DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 058585751

موريس غ . ديمومبين

النظم الإسلامية

نقله عن الفرنسية

صالح الشماع و فيصل السامر

١٩٥٢

أحمد زكي أبو شادي
A.Z. Abushady

Gaudefroy-Demombines, Maurice

موريس غ. ديمومبين

al-Nuzum al-Islāmīyah

النظم الإسلامية

نقلة عن الفرنسية

صالح الشماع و فيصل السامر

١٩٥٢

مطبعة الزهراء : بغداد

الفهرس

مقدمة المترجمين

لقي الاسلام اهتماما كبيراً من المستشرقين وكتاب الغرب في مختلف العصور، وقد اشبعوا كثيراً من نواحي الفكر الاسلامي بالدرس العميق والتحليل المفصل . لكن هؤلاء الكتاب ان التقوا في أساليبهم التحليلية ، وطرائق بحثهم ، فقد اختلفوا في مقدار نزاهتهم ، ودرجة انصافهم ، فنهم من مال مع الهوى فنضح قلمه بالدس والكيد ، ومنهم من حاول التجرد عن الهوى ، فاعترف قليلا أو كثيراً بالحق . ومع ذلك يجب أن نعترف بان المستشرقين — عموما — تميزوا بالمقدرة الفائقة على عرض المعلومات بعد هضمها وتحليلها .

ان الذي دفعنا الى نقل « النظم الاسلامية » للمستشرق الفرنسي موريس غودفروا . ديمومبين ، هو حاجة المكتبة العربية الى أمثال هذا الكتاب . والمؤلف ، فيما يبدو ، منصف الى حد كبير ، يتميز باعجابه الشديد بالاسلام وحضارته ونظمه ، لهذا انكب على الدراسات الاسلامية ، فاخرج كتباً عديدة تستحق الاعجاب ، لعل أشهرها كتابه عن المماليك في سورية .

انه لمن النادر ان يخلو كتاب غربي عن الاسلام من بعض توجيهات خاصة ، قد لا يرتضيها المسلمون كلياً أو جزئياً . ورغم انصاف المؤلف ودقته ، فقد وقع في بعض الأخطاء التي تستدعي المناقشة والرد . ان الاسلام لم يعارض حرية الفكر ، وأعظم ما عني به مفكرو الاسلام هو

التوفيق بين العقل والنقل ، لذلك لن يضيرنا أن نقف على ما يكتب عن ماضينا وحاضرنا ، مادام ذلك يتيح لنا أن نفكر ونتدبر .

واذا استثنينا بعض الشطحات التي وقع فيها المؤلف عن قصد أو غير قصد ، فكتابه في مجموعه يتميز بالفائدة الكبيرة والعرض المشرق الشامل لجميع مجالي الفكر الاسلامي وخصائصه واتجاهاته وتطوره فى مختلف العصور ، وهذه مزايا يندر أن تجتمع فى كتاب واحد .

ونحن وان لم نوافق المؤلف على جميع آرائه ، فقد حافظنا على حرفية الترجمة ، وحاولنا ان نضع بعض الهوامش كردود أو تعليقات ، مع شعورنا بانها مقتضبة غير وافية ، ونرجو ان تكون هذه الردود أكثر كمالا في طبعة ثانية للكتاب . كما اننا سنفيد من مجموعة الملاحظات والردود التي سيذكرها الخاصة من العلماء والمختصين ويعلقون فيها على هذه الطبعة الاولى ، ذلك اننا نشعر ان هناك اموراً أثارها المؤلف ، بعضها مصطبغ بالتفكير الفرنسي خاصة ، والتفكير الاستشراقي عامة ، وبعضها الآخر جاء دون تفصيل ، وهو فى حاجة الى مزيد من الايضاح الذي لم نستطع القيام به فى هذه الطبعة . ولا نستطيع أن نأتي هنا على جميع هذه النقاط ، ونضرب لذلك الامثلة التالية :

١ — يقول المؤلف ان الامامية ترى ان الامام يحل فيه بصورة جزئية جانب من الالوهية . وحين رجعنا الى عالم فاضل من علماء الشيعة أفادنا أن الامامية « الاثنى عشرية » تنكر مطلقاً القول بالحلول ، وتكفر من يقول به كلياً أو جزئياً .

٢ — ويذكر المؤلف ان العامة وقفت ضد الامام أحمد بن حنبل ،

والواقع ان الخلافة هي التي اضطهدته لرفضه الاعتزال .

٣ — كما يفترض المؤلف بعض فرضيات عن حاضر العالم الاسلامي ومستقبله ، لم نستطع الافاضة في الرد عليها ومناقشتها ، وكان الأحرى أن يجرد الكتاب من التوجيهات السياسية الخاصة التي تتنافى مع البحث العلمي .

لقد طبع كتاب «غومبين» هذا ثلاث طبعات في الفرنسية كانت آخرها عام ١٩٤٦ ، وهي الطبعة التي ترجمنا عنها ، لاسيما وان المؤلف أدخل فيها تعديلات واضافات لم تكن في الطبعتين السابقتين . وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية عام ١٩٥٠ ، وحين راجعنا هذه الترجمة وجدناها أسوأ مثال للنقل المليء بالنقص والتشويه والحذف دون عناية بسياق الموضوع .

وقد ظهرت بعض غلطات مطبعية أصلحنا أهمها ونعتذر الى القارىء عن ذلك .

وأخيراً ، يسرنا أن نقبل أي رد يتقدم به القراء في الصحف أو الرسائل ، كما يفيدنا وينير السبيل أمامنا حين نقدم على طبع الكتاب ثانية انشاء الله .

مقدمة المؤلف

يتكون العالم الاسلامى اليوم من جماعات مختلفة تسعى من أجل تكوين دول ، والعمل فى نفس الوقت على الاحتفاظ بشيء من الوحدة الدينية . هذه الوحدة اختلطت لمدة عدد من القرون بالوحدة السياسية ، بحيث جمع الخليفة في شخصه بين القوة الزمنية والسلطة الروحية . هكذا وجدت الجماعة الاسلامية ، متشربة نظمها الروح الدينية . وهذه النظم ذاتها ، هى التى نحاول تقرير القول فيها هنا ، مشيرين الى تطورها ، والى انها حتى في العصر الذي بلغت فيه اكمل وحدة في الظاهر ، كانت خاضعة الى أمزجة متنوعة ومأثورات متباينة .

حفظ هذا الكتاب الصغير الحجم فى طبعته الثالثة نفس الترتيب الذى كان للكتاب في طبعتيه السابقتين تقريبا ؛ ولكن لما كنا وجدنا في الطبعتين السابقتين بضعة هفوات وفراغات وامور غير دقيقة ، فاننا اخذنا انفسنا بكتابة اجزاء باكملها من جديد ، أملا منا بتقريبها اكثر من قبل الى الجمهور المثقف ، وجعلها اكثر نفعا للباحثين في الاسلام .

وقد سجلنا قائمة من المصادر في الطبعتين السابقتين حذفناها في هـذه الطبعة ، واننا نحيل القارىء الى كتاب جان سوفاجيه: Jean Sauvaget وهو مقدمة لتاريخ الشرق الاسلامي : رسالة في المصادر :

Introductian al'histoire de l'Orient musulman: essai de bibiliorgaphie (1948)

وننصح بقراءة الست والخمسين صفحة الاولى والتأمل فيها .

وحسبنا هنا في كل فصل الاشارة الى بضعة مصادر يمكن الحصول عليها بسهولة والى بضعة مقالات من دائرة المعارف الاسلامية E. I .

الفصل الاول

الحكام الاسلامي

استراده . لغاته . نظم

إن نظم العالم الاسلامي هى تلك النظم المشتركة بين الشعوب التي اعتنقت الدين الاسلامي ، كنتيجة للفتح او كثمرة للدعوة السلمية التي قام بها الدعاة ومختلف هيئات التبشير الاخرى . ولازال للاسلام مكانة محترمة في الحياة الدينية للبشرية ، فهو ينتشر بين مئتين وخمسين مليوناً من المؤمنين به المنبثين فى بقعة واسعة جداً تمتد ما بين الصين ومراكش .

حمل الفاتحون العرب الاوائل هذا الدين في القرن السابع الميلادي الى سورية ومصر والعراق ، حيث تقطن شعوب لم تكن بأية حال غريبة عنهم ، كما ان فروقهم الدينية لم تقف حائلا في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربية واعتنق الاسلام . ومن مصر انتشر

الاسلام الى بلاد البربر التي لاقى المسلمون صعوبة في فتحها . وما لبثت العقيدة الاسلامية ان اجتاحت في النهاية المذاهب الدينية المتباينة، كما سادت العربية ، لغة القرآن ، غيرها من اللغات المحلية . الا انه على الرغم من هذا احتفظت بلاد المغرب بخصائصها الفردية ، وقدر لها ان تتابع تطورها الخاص في العصر الحديث بتوجيه من الثقافة الفرنسية (١)

وفي خلال القرون الواقعة بين عام (٧١١ و ١٤٩٢م) قام المسلمون بدور حاسم في تقرير مصير اسبانية ، وتركوا طابعهم الفني في مدنها ، ولازالت لغتها تحمل اثاراً للكلمات العربية ، كما ان حياتها الاجتماعية تحتفظ ببعض عادات الشرق . ولكن من ناحية اخرى نجد ان استرجاع المسيحيين لاسبانية وحكم الملوك الكاثوليك لها لا يزال يكن لها المغرب كرها عميقا . وبتسرب الاســلام في افريقية مع مسالك التجارة وانتشاره على ايدي دعاة المسلمين دخل الى بلاد الزنج وتوغل حتى المناطق الاستوائية . الا ان الاسلام في هـذه البلاد الاخيرة لم يتغلغل في قلوب الاهلين بدرجة كافية .

اما في آسية فقد تم فتح فارس سريعا على اثر انتصارات الصحابة الاولى . وكان للفرس الاثر الاكبر في دوام مجد الخلافة العباسية . الا ان فارس بتشيعها قد اكدت على اصالتها الذاتية ، وباحيائها للغتها وفكرهـا الهندو - اوربيين صانت شخصيتها وحقها في تقرير

---

(١) من المعروف عن المستشرقين وكتاب الغرب اكثرهم ان لهم نزعات وتوجيهات قد تجانب الحق وتظلم الشرق وثقافته ، وهذا مثال له مشابهات في هذا الكتاب وغيره . ونحن هنا انما ننقل بامانة تاركين التعليق المفصل والرد لمناسبات اخرى قد نقوم بها نحن او غيرنا .

مصيرها (١) وماز ال السبعون مليونا من المسلمين الهنود يشغلون مركزاً بارزاً في شبه القارة الهندية . وتظهر اهمية مسلمي الملايو بكثرتهم التى تبلغ خمسين مليونا وبنشاطهم التجارى . وساعدت الاصول البشرية والموقع الجغرافي والحماية الهولندية على اعطاء اهل الملايو شخصية ثابتة . فاذا انتقلنا الى الصين وجدنا ان الجماعة الاسلامية رغم اهميتها قليلة العدد (حوالي ثمانية ملايين) مما يجعلها غير ظاهرة في زحام مئات الملايين الذين يكونون الشعب الصينى . والعربية عندهم مجرد لغة دينية لا يعرفها سوى المثقفين .

سار الاسلام من فارس شمالا عبر نهر جيحون وما وراءه الى الشعوب التتارية التى مازالت متمسكة بعقيدتها . وتحت ظل الاتراك العثمانيين اقتحم الاسلام آسية الصغرى وتركية الاسيوية وتقدم باتجاه نهر الدانوب والبحر الادرياتيكى . وفي الشمال حمل التتار هذا الدين الى روسية حيث مايزال موجوداً كقوة حية . ونستطيع هنا ان نتجاهل جماعات اسلامية اخرى صغيرة ذات اصول مختلفة تنبث هنا وهناك في اقطار العالم .

لم تفقد اية من المجموعات الكبرى الانفة الذكر باعتناقها الاسلام خصائصها الاصلية المنبثقة عن وضعها الجغرافي وماضيها وعن الصفات الذاتية التي يتميز بها افرادها . وتظهر تلك الخصائص بجلاء في لغاتها . ونستطيع القول بشيء من المبالغة ان نظم اي شعب اسلامي

(١) في صدد الحديث عن فارس والهند والملايو يضيف المترجم الانجليزي بعض الجمل من عنده لم ترد فى النص الاصلي . وقد اثرنا ان ننقل بعض الاضافات التي حشرها المترجم الانجليزي لاسيما البعيد منها عن موضوع الكتاب .

تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . باتخاذ هـ. المبدأ ، نستطيع ان نضع في الصفوف الاولى من المسلمين اولئك الناطقين باللغة العربية ، وان كان هؤلاء قد تكلموا العربية بعد الفتح كما في حالة سكان سورية والعراق ومصر والمغرب . ومع هذا فيلزمنا الا نعتقد بأن هذه الشعوب تتكلم بلهجة واحدة او ان عاداتها واحدة. فلهجة الشامي وعاداته تختلف بصورة واضحة عن لهجة المراكشي وعاداته . لكن اوجه الشبه بينهما اقرب شقة بكثير مما نلاحظ بين العرب وتلك الشعوب والعروق التى احتفظت باصالتها القومية عن طريق استمرارها على لغاتها القديمة . واقتباسات هؤلاء الاخيرين من القرآن ذات صفة شكلية جانبية ، فهي تقتصر على المصطلحات الدينية والتعابير الادارية والكلمات المجردة [كالحق والايمان . . .] وبكلمة اخرى لم يشمل الاقتباس غير التعابير التي يتلقفها شعب محكوم من آخر يسوده ويفوقه تمدنا . واكثر من هذا نلاحظ ان العربية قد فرضت كتابتها على الفرس والترك والملايو . . الخ . وقضت نهائيا على الالفباء القديمة لهذه الشعوب . حصل كل هذا باستثناء لغة واحدة هي الاوردية وهي لغة تكونت في القرن الثاني عشر الميلادي من الالفباء السنسكريتية وبعض خصائص العربية . لكن كل لغة احتفظت بطبيعتها الخاصة بها وذلك لان هذه الطبيعة لا تنتج عن الكلمات وحدها وانما عن النحو والصرف ايضا اي ما ينشأ عن التركيب الشكلي للجملة وترابط الكلمات فيها . وقد اقتبست الفارسية ثلث الفاظها من العربية واضافتها الى مجموعة كلماتها الهندو - اوربية ،

تكنها احتفظت باصول تصريف الفعل الخاصة بها وطريقتها الاصلية في تركيب الجمل . اما لغة الترك العثمانيين المستخدمة في الكتب والوثائق الرسمية فقد غالت في اقتباسها : بان اقلمت الالفاظ العربية والفارسية حتى انها لم تحتفظ باكثر من ثلث اللغة التركية الشائعة آنذاك . الا انها فرضت قواعدها التركية التي تبتعد كثيراً عن قواعد اللغات السامية والهندو - اوربية . ونفس الحكم يصدق على الاوردية ولغة الملايو والبربرية والصومالية وغيرها . فرض الاسلام تأثيره في الحقل اللغوي ، كما في غيره ، على الحياة العقلية للشعوب التي اتصلت به كثيراً او قليلا . ومن الناحية النظرية ، يلزم كل مسلم بقراءة القرآن في نصه العربي ، من حيث ان العربية هي اللغة الدينية للمسلمين وواسطة المؤاخاة كما كانت اللاتينية بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى . فقد اضافت اللغات التي دخلت في حوزتها مجموعة من الالفاظ الدينية والمجردة ، التي لم تعترض سبيل النمو الطبيعي لهذه اللغات باية حال . وسوف نتطرق الى عيوب الالفباء العربية في الفصل الثالث عشر .

هكذا نتبين كيف ان نظم الشعوب المعتنقة للاسلام حافظت على اصالتها ، ووصف ذلك يمثل تاريخا اجتماعيا لشطر من البشرية . ولسنا من الجرأة بحيث نستطيع ايفاء هذا الوصف حقه هنا ، وسنكتفي بتوضيح الخصائص الرئيسية للنظم التي تدين بها الشعوب الاسلامية المختلفة لعقيدتها تلك العقيدة المشتركة بينها جميعا ، لا لان هذه الخصائص مقتبسة من القوانين الكلية للفكر البشري ، بل لانها نتاج الدين الاسلامي . ومما لاشك فيه انه قد يظهر هناك خلط

احيانا بين العادات العربية والتقاليد الاسلامية ، في حالة تلك الأمور التي لاتتصل بالدين اتصالا مباشراً ، اذ يكون ، التمييزهنا غير واضح ابدا لاسيما في دراسة عجلى كهذه .

ولما كان فهم العقيدة الاسلامية امراً مستحيلا دون معرفة الخطوط الرئيسية لتاريخها ، فاننا سنبدأ بذكر النقاط الاساسية التي نما حولها الفكر الاسلامي في العصور الوسطى ، والاتجاهات المختلفة التي تطورت ضمنها . سنصف اذن العقائد الاساسية للاسلام وننتقل من ثم الى الواجبات الدينية للمسلم اي عباداته . ونحاول اخيراً توضيح تلك الحقائق المتعلقة بحيوات المسلم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يبدو انها تميز المجتمع الاسلامي عن غيره : فبعض تلك النظم كنظام الزواج مثلا يتبع عادات ومراسيم ليست اسلامية الاصل بل هي مقتبسة من افكار سحرية مشتركة بين جميع الشعوب ، رغم اختلافاتها المحلية .

المصادر

L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman 3 e ed., 1929 Paris.

الفصل الثاني

الجماعة الاسلامية

بلاد العرب القديمة . محمد . الخلافة الاموية . الخلافة العباسية
الفرق الشيعية . الاحياء السني . الاتراك

الاسلام دين توفيق بين عقائد متعددة ، وقد ظهر هذا الدين في بيئة واضحة المعالم ، وكان له كتاب ، هو القرآن ، احتفظ بنصه الاصلي حتى اليوم دون ان يطرأ عليه اي تحريف مهما كان ضئيلا . وتعاليم هذا الكتاب المقدس اكملتها السنة والحديث الذي دونه بعناية وحرص شديدين علماء الاسلام الاعلام . وقد اضيف الى ما تقدم نصوص تاريخية وادبية ، وذلك كما يبدو لغرض توكيد المعرفة التامة باصول الاسلام وصدر تاريخه ، وهذه هي حقبة ليس لدينا عنهـا معرفة كاملة حتى اليوم على اية حال .

وليست هناك ، باستثناء حـالات نادرة تافهة ، نصوص او كتابات مسجلة مدونة ، وهذه هي الاسس الثابتة للمعرفة التاريخية ،

نستقي منها معلوماتنا عن بلاد العرب الشمالية والوسطى في تلك الايام السحيقة في قدمها . اما النصوص والوثائق الخاصة بتاريخ جنوب بلاد العرب (اليمن وحضرموت) فهي قليلة العدد ولا تجدي في اعطاء صورة واضحة لماضيه . ومع ذلك فهي دليل على وجود حياة حضرية وتطور ديني واجتماعي اوفر نشاطا من بقيـــة بقاع شبه الجزيرة .

من هذا وجب علينا ان نرجع الى الشعر القديم والكتابات التاريخية التي لم تجمع حتى القرن التاسع الميلادي ، اذا شئنا ان نرسم بعض الخطوط الرئيسية للحياة الدينية لبلاد العرب قبيـل نزول القرآن . وفي عهد الجاهلية كانت الالهة ذات الصفات غير المحدودة تسيطر سيطرة ضعيفة كل منها على قبيلة مهمة او غير مهمة . وكانت العبادة المخصصة لهذه الالهة قلما تتميز عن عبادة الاوثان المقدسة ومنابع المياه والاشجار . ونجد عند كل قبيلة طقوساً للطواف والوقوف باشكال معينة والهرولة في صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل ، وكل هذه فيما يبدو تشير الى عبادة قديمة للشمس . لكن الاجرام السماوية الاخرى كانت تمجد كذلك ، كما تبقى في مكة طقس ديني هو التحية الخاصة برؤية الهلال ، وهو يرجع الى الجاهلية دون شك . وفي كل عام ، وفي فترة تتفاوت من بقعة لاخرى ، عندما يهطـل الغيث وينبت الكلأ ، يختار وليد حدث من الماشية ليقرب في احتفال دعي الموسم ، توسم فيه صغار الحيوانات عند فطامها . وقد شعر الانسان بانه محاط بطبيعة فظة شحيحة ، وان قدراً محتوما يجذبه الى الامام دون ان يحاول فهم غايته . اما آلهته فلم تمنحه من النبوءات سوى

القليل ، كما عمر عالمه جن غير منظور ما زال حتى هذا القرن العشرين يخشى من نزواته ومزعجاته ، ذلك الجن الذي يتقرب اليه بتقديم النذور ويسترضيه طمعا في الحصول على حمايته . كان الجن يقيم بصورة خاصة في البقاع المقدسة وبطون الوديان ، لذلك مر الناس بها عجالى وجلين . وظهر عند الناس شعور غامض بان الانسان حين يموت يترك خلفه قرينا يحيا من بعده حياة شاحبة بائسة ، ويتشكل هذا القرين بشكل طير الهامة الذي يحوم حول قبر صاحبه القتيل الذي لم يؤخذ بثأره ، فيظل يندبه بنواح عال حتى يؤخذ له بالثأر .

ان نبوءات الالهة يعبر عنها الكاهن ويفسرها للناس ، واوتى العرافون رؤى خاصة بهم ، فعملوا على تفسير الامور الخفية وتنبأوا بالمستقبل . استعمل هؤلاء الكهان والعرافون السجع وهو نثر ايقاعي مقفي كاسلوب للتعبير عن رؤاهم . واستخدم الشاعر حتى قبل القرن السابع الميلادي ايقاعات (الاوزان الشعرية) غنية في تعددها وقام بدور الملهم مدافعا عن عرض قبيلته متغنيا بامجادها ومعرضاً بمثالب اعدائها .

لم تكن الطبيعة في بلاد العرب تدعو الى الحياة المتحضرة الا في الجنوب والشمال الشرقي ، اما في البقاع الاخرى — ما عدا واحات قليلة — فان البدو كانوا في ترحال مستمر لا لمجرد البحث عن الكلأ لقطعانهم فحسب وهذا غرض سلمي ، وانما لغزو القبائل الاخرى ليحلوا محلها ، وخلال هذا تنشب حروب طاحنة ، تنشأ على اثرها طوائف اجتماعية جديدة وتباد اخرى . وبين جماعات الحضر والبدو الاقحاح ، الف اهل مكة طائفة اجتماعية هي مزيج من سكان عدة مدن ، اخلصت للتجارة وسيرت القوافل . ويبدو ان العلاقات

التي كونوها مع اهـل سورية واليمن (في رحلتي الشتاء والصيف) ومع سكان المسالك المؤدية اليها ، كل ذلك مكنهم من الحصول على مجد مؤثل لهيكلهم الصغير وهو الكعبة وافادت اكثر من هـذا من مجاورتها للاماكن واقبال الناس على زيارتها المقدسة الخاصة بعبادات البدو . هكذا غدت مدينة مكة مركز الحياة الدينية لاواسط بلاد العرب والحجاز ، واخذت تجمع بالتدريج مزيجا غريبا من الافكار المتسربة اليها من العبادات الأخرى . وانتشرت النصرانية منذ زمن بعيد بين بعض القبائل أما عن طريق دعوة الاحباش أو بتأثير فارسي متمثلا في المذهب اليعقوبي (الذي بشر به نصارى سورية المعتقدون بطبيعة المسيح الواحدة) . كما كانت هناك جماعات يهودية أو من العرب المتهودة التي وان كانت ثقافتها الدينية ضئيلة الا انها تمسكت بشدة بشرائعها وشكول عباداتها .

في بداية القرن السابع الميلادي تسربت الى الحجاز عدة تيارات فكرية أجنبية فتأثر بها بعض الافراد بدرجة كافية مما دفعهم الى رفع مستواهم الدينى الى مستوى أرفع مما هو عنـد البدو وفي صورة يدعوها الغربيون بالـ Animism [وهو القائل بان لكل موجود حتى الجماد روحاً وحياة لذلك يترجم عادة بالمذهب الحيوي] . وفي الاجتماعات التجارية المسالمة لدى القبائل وهي التي كانت تقام في عـــدة مواضع بالحجاز خلال الاشهر الحرم حين تعقد الهدنة العامة (وهي الاسواق) في هذه الاجتماعات ارتفع صوت المسيحية الذي يبدو انه توعد بيوم الحساب داعياً في نفس الوقت الى نعيم الجنة وعذاب الجحيم . وانتظر يهود يثرب نبياً ، كما رجا كثير من المتلهفين على مصائرهم ظهور من

يأخذ بيدهم ويرشدهم . ونشرت المجوسية في جميع انحاء الشرق فكرة الصراع بين الخير والشر وربما نجد لذلك أثراً في العقيدة الاسلامية .

ونحن لا نعرف بدقة ولن نعرف حياة الرسول التي قضاها قبل البعثة كتاجر قرشي من أوساط الناس ، وكيف انه شعر بانه الشخص الذي قدر له ان يحمل رسالة الى العرب هي كلمة الله الذي بدأ الناس يلهجون باسمه الأعظم .

يمكننا أن نفترض بان النبي تأثر بالعقائد النصرانية اليهودية التي اعتنقها البعض في مكة (١) والتي وجهت أذهان الاخرين الى وحدانية الله . ولما تحرر محمد (ص) عند الزواج من أعباء الحياة المادية يبدو انه اتجه بكليته الى التأمل . فتحدثنا كتب السير النبوية انه كان يتجول على جبل أبي قبيس المشرف على مكة : وكانت له رؤى انتهت بتعينها في صورة منظورة عيانية هي صورة جبرائيل وهو لدى النصارى الملاك الذي بشر مريم بميلاد المسيح ، وأصبح لدى المسلمين ملك الوحي

في سنة ٦١٠ م نزل جبريل على محمد بالوحي فنقله الى زوجه خديجة ، ثم الى عدد غير قليل من المؤمنين ، ظهر هذا الوحي أول الأمر على شكل تحذيرات قصيرة ملحة تضمنتها أقصر السور القرآنية وجاءت هذه السور الاخيرة في ترتيب القرآن الذي قام به جامعوه فيما بعد . وقد استقبلت قريش نبوة محمد بشيء من عدم الاكتراث في البداية ثم ما لبثت ان اهتاجت حينما أدركت بانه لم يكن يهدف الى اضافة الله الى آلهتهم كما ظنت بادىء الأمر ، بل كان يريد ان يحل محل آلهتهم إلهاً جديداً مجهولا لدى أهل قريش ، ولم يكن كما

---

(١) لم نشأ حذف هذه الفكرة او مناقشتها وذلك جريا على عادتنا بنقل الاصل كما هو وان كان كفراً .

تصوروا ضامنا لمكتهم الامن والثراء . ومع ان شخصيات هامة كابي بكر وعثمان وعمر دخلت الاسلام الا ان الجماعة الاسلامية كانت مجرد طائفة محدودة العدد من آل هاشم ، ومن أشخاص آخرين من الطبقات المستضعفة في مكة . وظن محمد أن دينه قد يلقى قبولا لدى الاحباش المسيحيين أحسن مما لقيه في بلده ، سيا وأن بعض اتباعه أقاموا مدة طويلة في ربوع الحبشة . وذهب هو نفسه الى الطائف الواقعة على مسافة يومين الى الجنوب الشرقي من مكة حيث حاول عبثا ان يجذب الى دينه طائفة نشطة من أهل هذه المدينة من الفلاحين والملاكين المتحضرين .

وعلى عكس هذا فانه حين تقصى اتجاهات أهل يثرب اقتنع بانهم على استعداد للترحيب به اذا ما هاجر اليهم ، وذلك لوضع حد للخلافات الداخلية التي استنفدت كل قواهم وبددتها . كان أهل المدينة خليطا غير مستقر من قبيلتين عربيتين وثلاث قبائل يهودية ، وكان نزاعهم يدور حول الاستئثار بزعامة المدينة المتحضرة المحصنة جيداً من غارات البدو ، والتي كانت تحتل بقعة وافرة المياه تسمح بزراعة مطردة للأرض . وكان النصر هذا الوقت في جانب القبيلتين العربيتين الأوس والخزرج ، ولكن المنافسة الدائمة بينهما هددت بانتقال السلطة الى القبائل اليهودية . وقد قابل محمد أفراداً من القبائل العربية الذين جاؤوا ليشتركوا في الاحتفالات الدينية التى كانت تجري سنويا فى مكة وماحولها . اعتنق هؤلاء اليثربيون دين محمد وشاطروه مصيره وفي سنة ٦٢٢ م ترك المسلمون مكة (الهجرة) في جماعات صغيرة وتبعهم فى النهاية محمد وأبو بكر وبعدئذ علي .

استمر الوحي على النزول خلال السنوات الشاقة التى قضاها النبي

فى مكة ، بكلمات نارية محاطة بهالة من العظمة ، يهيب بيوم البعث والحساب الذي سيثاب فيه المحسنون عن حسـنـاتهم بحياة خالدة في جنات النعيم ويجزى الكافرون على ما قدمت ايديهم بئس العقاب في عذاب السعير . كما اكد الوحي وحدانية الله التي انكرتها قريش ، وفرض واجبات الصلاة الا انه لم يحدد شكلها وعددها . ولم تلبث الدعوة الالهية ان فقدت حماسها حين انشغلت بتقرير قواعد الحيـاة وبصورة خاصة حين اخذت تروي قصص الانبياء القدماء الذين كان محمد خلفا لهم ، والذين كانوا ارهاصا للايمان الحق ، ذلك الايمـان الذي لم يخرقـه سوى شـرور وضـلال اليهود والنصارى ، ولم يدع محمد في الواقع بأن دينه دين جديد ، ذلك انه جاء لينذر بالحق كخاتم للنبيين بعد عيسى المسيح ، وليحى ويؤكد دين ابراهيم القديم . هكذا صار ليهود المدينة مجال للدخول فى هذا الدين الجديد .

خلال المفاوضات التي شرع بها الرسول في السنوات الماضية ، وفى غمرة الصعاب التى لاقاها في توجيه طائفة المؤمنين المحدودة العدد ، قام محمد بدور القاضى والمشرع والزعيم ، وهي مهمات قام بها خير قيام بشكل مفاجيء معجز بمجرد ان وطئت قدماه قباء عند ابواب المدينة . واستغرقه الوحي بعمق حتى ظهرت له افكاره الخاصة فيما بعد وكأنها افكار الله . واستطاع محمد بسهولة وباخلاصه التام مستعينا بكلمة الله ان يحل كل المشاكل التي اعترضت حياة الجماعة الاسلامية ، كما تيسر له كذلك حل مشاكله الشخصية التي بلغ بعضها في التطرف حد الاثارة . ومن المحتمل ان القرآن حين هدد قريش فى سوره الاولى بالعقاب الاليم ، كان محمد مؤمنا بقرب يوم الحساب ، ومما يدعو الى

الدهشة ان هذا يماثل ما تنبأ به المسيح ، لكن القرآن هجر في المدينة نغمة التحدث عن العالم الغيبي وتوجه الى تشريع ما يتصل بشؤون الواقع وماله اثر باق .

هكذا نجد ان السور المدنية في مادتها وصورتها ظهرت للمفسرين من المسلمين والاوربيين من بعدهم على انها تتميز عن السور المكية على الرغم من ان الترتيب الزمني معدوم نهائيا في نص القرآن في وضعه الاخير .

حين وصل الرسول الى المدينة عقد بين القبائـل العربية ميثاقا يدعوهم لا الى الدخول نهائيا في الاسلام ، بل الى الاعتراف بسلطته الشخصية ، التي امكن بصفته نبيا ان تظهر بالتدريج للمؤمنين عـلى انها ممثلة للسلطة الالهية .

اما اليهود فقد جاهد الرسول ان يجذبهم الى جانبه مستعينا في ذلك بالوحي القرآني الموائم لما في ضمائرهم ، لكن جهوده ذهبت سدى. وعلى الرغم من تفاهة الثقافة العقائدية ليهود المدينة ، فانها كانت كافية لمنعهم من اعتبار شخص محمد النبي المشرع والمنتظر عندهم في التوراة . ولما صدم محمداً خداعهم ، اسرع الى بغضهم ، وساعدتـــه ظروف مواتية ، كما ايده الوحي في ذلك ، فعمل على افنائهم او طردهم .

ان الاتفاق الذي عقده المهاجرون مع الانصار من اهل المدينة والمتضمن للتآخي في الجانبين المعنوي والمادي ، لم يتح للمهاجرين ان يساهموا مساهمة فعالة في الحياة الاقتصادية للمدينة ، وقـد اعتمد وجودهم على ضيافة الانصار لهم ؛ تلك الضيافة التي ثبت انها لو استمرت طويلا لغدت عبئا ثقيلا على كاهل اهل المدينة . عندها اتجه المسلمون

الى التعرض لقوافل غير المسلمين وماشيتهم المارة بالمدينة (١) وجهز المسلمون حملة ضد قافلة مكية كانت تجلب من الشمال بضائع غنيـة، وفي حراستها نفر من قريش، فأدى ذلك الى واقعة بدر التي اعتبرها مؤرخو الاسلام هزيمة للمشركين كالها لهم المسلمون بعون من الملائكة. ولم تحل الحملتان اللتان قادها اهل مكة ضد المدينة دون اغناء النبي المؤمنين به باموال اليهود، كما عمل في نفس الوقت على تثبيت دعائم سلطته ونشرها بين القبائل البدوية. وفي ذات الوقت، اعلن القرآن قدسية الاماكن التى قدسها ابراهيم نفسه في مكة، فأصبحت صلوات المسلمين تقتبل الكعبة. وشعر القرشيون بفائدة وضرورة عقد اتفاق، وقد انجز هذا العمل على يد اشخاص عقلاء هم العباس عم الرسول وابو سفيان. وفي سنة ٦٣٠ م دخل محمد مكة منتصراً، وطهر الكعبة من الاصنام، فغدت بيت الله الذي هو معنا اينما كنا.

توفى الرسول سنة ٦٣٢ م دون ان يعين للمسلمين خليفة له، كما لو كان يعتقد حقيقة بان العالم سيفنى قبله. ان الجماعة الاسلامية ايام الرسول لم تكن متجانسة، الا انه استطاع الجمع بينها عن طريق وحدة العقيدة وسمو شخصيته وكونه نبيا مرسلا. وقد كان شيخ قبيلة وحاكما اعلى يوحى اليه من الله دون ريب، وذلك من غير ان تكون له السلطة التي مارسها الملوك او جرت بها التقاليد السياسية في تلك العصور. ولم يعلن الوحي عن السلطة التى تخلفه والتى ينبغي ان تضمن استمرار الجماعة الاسلامية، مما ادى الى ارتباك الحالة والتهيئة

---

(١) يشير هنا المؤلف، الى ان المسلمين «مارسوا فى هذا عادة البدو التجارية في نهب وسلب بضائع جيرانهم» ولسنا نظن ان هذه المقابلة صادقة لاسيما وان المسلمين الاوائل عرفوا بالتمسك بالفضائل الرفيعة.

لحصول انقلاب . اما فكرة الوراثة الغريبة عن العادات السياسية للعرب فنبذت نهائيا لاسيما وان محمداً لم يخلف ولداً ذكراً . ولم تبعث فكرة الحكم بالوراثة الا بعد حين . وبصيرة غريزية استعين بنظام الشورى الذي اتبعته قبائل العرب قبل الاسلام في انتخاب شيوخهم . وجرت محاولة للتوفيق بين الطموح الشخصي والاعتداد القبلي والميول الشائعة ، الا انه فى الاخير كان من حظ المسلمين ومستقبل الاسلام ، ان يصبح ابو بكر صاحب النبي وابو زوجته الاثيرة لديه خليفة لرسول الله . وكما توفى محمد ولم يعين له خلفا ، فانه لم يفكر كذلك بجمع آيات الوحي التى نزلت في مدى عشرين عاما ، والتى رسخت في اذهان الناس باعادتها وتكرارها عند اداء الفرائض الدينية . ولم يجمع القرآن جمعا نهائيا الا زمن عثمان .

اخذت الجماعة الاسلامية بتكوين تنظيمات اجتماعية وعائلية جديدة . وبعد جمع القرآن في نصه النهائي ، اصبح للمسلمين تشريع قانوني ، تطرق احيانا الى امور فرعية جانبية ، وان لم يكن له قاعدة عامة او مبدأ دستوري . وكان محمد المرجع الاعلى فى التوفيق بين الطوائف الاجتماعية المتباينة العادات ، مادام ذلك التوفيق لا ينافي الناموس الالهي . وتمم تعاليم القرآن اسلوب الحياة الجديد الذي نشأ عن الدين الاسلامي ، ذلك الاسلوب الذي حل محل فضائل الجاهلية التي يمكن جمعها في صفة « المروءة » وهذا هو عين الاسلوب الذي عاش وفقه الصحابة مقتدين بالرسول وعاملين جهدهم على ان يحتذوا حذوه . كما كان الطريق المستقيم الذي سلكه الخلفاء الراشدون ابو بكر وعمر وعثمان وعلي . لكن الانتصارات الباهرة التى احرزها الخليفة عمر غيرت في بضع سنوات معالم الحياة المادية والعقلية

كانت بلاد العرب تحيا حتى هذا الوقت على هامش المدنية الشرقية ، نشاهد انها اخذت تدفع بقبائلها فجأة كالسيل الجارف في غمرة العالم المجهول يحدوها الدين الجديد الذي اعتنقته قريباً ، فى هذا العالم المجهول وجدت معتقدات قديمة وحضارات رفيعة اختلطت ببعضها وتداخلت وطبعتها الحضارة الاغريقية باثارها الواضحة ، كما تركت فيها المجوسية بعض الاثار . كما ان الاسكندرية لم تطمس حضارتها الا منذ عهد قريب ، في حين ان انطاكية كانت لاتزال تحفل بمدارسها الفكرية ، بينما جند يسابور نراها تقوم كمركز مهم لليعاقبة .

في هذه البقعة من العالم الغنية بذكرياتها والزاخرة بالحياة ، واجهت فارس روما ثم بيزنطة . ويتحدث القرآن عن الانتصارات المتبادلة بين الفرس والروم والتي انتهت بانتصار هرقل ، ذلك الانتصار الذي امتلك مخيلة اهل مكة . وهناك رواية تقول ان محمداً راسل اباطرة بيزنطة وملك الساسانيين يدعوهم الى اعتناق الاسلام . وقد تجلى صراعهم من اجل الزعامة فى ذلك العداء المرير بين الحكام الصغار فى الدولتين العربيتين في صحراء الشام ، هما دولة اللخميين في الحيرة على الفرات الادني التى حكمت تحت حماية الفرس ، والغساسنة في بصرى التي حكمت بأسم بيزنطية في جنوبي سورية . وقد هددت جحافل العرب في بضع سنوات واكتسحت كلا من فارس وبيزنطية ، وحكم العرب الشعوب التى طالما تعودت على تغير السادة الحاكمين ، واكثر من هذا ظهر الاسلام فى اعينهم على انه (دين خارج على المسيحية) او نوع من الهرطقة المسيحية Heresie Chretienne .

لم يكن معظم الفاتحين من المسلمين قديسين ولم يتصفوا كذلك بالرغبة على ارغام الشعوب على الدخول في دينهم ، وقد اتجهت حماستهم

الى التمتع بثمار فتوحهم بسلام ، فهم بعد ان يجمعوا غنائم الميدان ، يجنون غلال الارض دون مشقة زرعها . ولقد اعتاد البدو ان يأخذوا الفدية من سكان الواحات المستقرين . وابتكر القرآن طريقة للتعاون مع الشعوب المفتوحة ، من « اهل الكتاب » (اليهود والنصارى) وحمايتها . ثم عمت هذه الطريقة جميع الذين رضوا بحكم المسلمين ، فدفعوا الجزية مقابل حماية ارواحهم وممتلكاتهم وترك الحرية لهم في ممارسة معتقداتهم وعاداتهم ، والابقاء على حكامهم في وظائفهم . وكان للشعوب المفتوحه حضارة ارقى من حضارة الفاتحين ، لكن الاخيرين مالبثوا ان ادركوا الحاجة الملحة الى النظام في سياسة الرعية والاستمتاع بطيبات الحياة ، وشعروا ان هذا يجب ان يحصل في نطاق اوسع من ذلك الذي حصل في حيز تطور الفكر الديني او مستوى الموازين الاخلاقية . وفي ذات الوقت اكتسب المسلمون تحمساً بالفن لم يثره فيهم اي حافز قبل اليوم . ولم يعد القرآن كافياً بنصوصه المحدودة الى ان يلبي الحاجات الجديدة التي طرأت على حياة المسلمين . لهذا تطلب المسلمون قانوناً جديداً لا يتنافى مع المبادىء الرئيسية للتشريع القرآني ومع هذا تتوفر فيه مرونة ومقدرة على التحور . ووجد هذا القانون في السنة النبوية التي اعتبرها الخلفاء الراشدون صراطهم المستقيم ، ذلك الصراط الذي شرعه الرسول كقدوة لامته من بعده .

هذه السنة ، كالقرآن ، تناقلتها الالسن من جيل الى جيل فجمعت بذلك ذكريات متعارضة ومادة موضوعة ذات هوى ، اصبحت فيما بعد حججاً للخلافات التي نمت واستفحلت في المجتمع الجديد الذي كان في دور التكوين . وحين جمع علماء الحديث في القرنين الثامن والتاسع للميلاد (الثاني والثالث للهجرة) الاحاديث المتفرقة وصنفوها كان

عليهم ان يميزوا بين الصحيح والضعيف منها .

وفي الفصل التالي سيعلم القارىء كيف فعلوا ذلك . واكتسبت هذه الاحاديث بمجموعها صبغة العقيدة الاسلامية ، ودعيت بالسنة ، والحديث هو رواية موجزة اللفظ منسوبة الى الرسول .

ان مكانة السنة قد جاءت في الحقيقة بوصفها توكيداً لمنزلة القرآن . لكن رواية الحديث من جيل الى جيل ، وحتى التعبير عنه ، قد تضمنت عنصراً من عناصر الاهواء والنزعات الشخصية . وكان في هذا تحول عن كلمة الله الاولى التي اوصيت الى محمد ونقلت عنه ، واتباع لكلمة محمد [الحديث] التي رواها عنه الصحابة والتابعون . وبسبب الاحترام المطلق الذي تمتع به القرآن ، نجد الانشقاق الكبير الذي اصاب الجماعه الاسلامية بعد اغتيال الخليفة عثمان سنة ٦٥٦م - ٣٥هـ واصبح علي خليفة ، وهو زوج فاطمة بنت الرسول ووالد حفيديه الحسن والحسين .

واضطر علي الى محاربة بعض الصحابة الذين شاركتهم عائشة زوج الرسول التي ساهمت بصورة فعالة في النشاط السياسي آنذاك . وفي النهاية سنة ٦٦١م جابه علي اهل الشام بزعامة معاوية وجهاً لوجه ، وقد ارغمه الاخير على قبول التحكيم الذي كانت نتيجته في غير مصلحة علي ، والذي رفضه الخوارج اشد الرفض ، وتمسكوا بحكم كتاب الله . وقد ترك الخوارج معسكر علي الذي لم يلبث ان اغتيل فانتقلت الخلافة الى البيت الاموي (٦٦١- ٧٥٠م : ٤١-١٣٢هـ)

ان القرن الذي حكم خلاله الامويون ليثير اشد الاهتمام دون شك ، مع انه اقل فترات التاريخ الاسلامي وضوحا في الاذهان . في هذا القرن وضعت جميع النظم الاسلامية وبدأت كافة الاتجاهات

الفكرية ، حينما اخذت الافكار تتجاوز حدودها الاقليمية الى آفاق أوسع . وهو عصر تفتح الروح الاسلامية وسط ثراء مادي غزير ، وهي كذلك الفترة التى مهدت بعد سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) للدولة العباسية بان تكون مركزاً مهما للحياة العقلية . وكان امراء الاسرة الاموية الذين حط المؤرخون العباسيون من شأنهم ، حكاما حاذقين واقوياء العزم فى غالب الاحيان ، وقد مهدوا السبيل لكي يحتضن المجتمع الاسلامي اولئك الذين كانوا حتى الان مجرد دافعي جزية لا غير .

ان الامبراطورية الاسلامية التى استطاعت في بضع عشرات من السنين ان تمد رقعتها من خراسان والسند الى مراكش وبلاد الغال الافرنجية ، لم يكن لها دستور ولا ادارة منظمة . والخليفة وهو ممثل القرآن والسنة النبوية كان يتنازل عن سلطاته اللامحدودة الى وكلاء هم حكام الاقاليم وقواد الجيش وجامعو الضرائب والقضاة . وكانت واجبات هؤلاء هي ضمان الدفاع عن حدود الامبراطورية والحفاظ على الامن الداخلي والاشراف على جباية الضرائب والرسوم وتحصيلها في مواعيدها المقررة . وكان هذا نظاما لم تسبقه سابقة او مبدأ من قبل ، قام على كفاءة واجتهاد الرؤساء لا على قواعد شكلية مرسومة .

اما تقسيم الامبراطورية الى ولايات كبيرة فقد بني على اساس جغرافي . واصبحت بلاد العرب « مهد الاسلام » على هامش الامبراطورية ، بحيث ان محاولات ابن الزبير في اعلان نفسه خليفة في مكة ذهبت سدى سنة ٦٩٢ م (٧٣ هـ) . لكن بيت الله بقى مركزاً دينيا للعالم الاسلامي ، ولم يلبث قبر الرسول فى المدينة ان

غدا مكانا مقدسا لدى المسلمين يحترمونه بدرجة تساوي احترامهم لبيت الله ، وفي القرن الثامن الميلادي كانت المدينة ماتزال مركزاً للدراسات الفقهية ، ويعتبر مالك بن انس ابرز الفقهاء الذين ظهروا فيها . كما احتوت المدينة الى جانب ذلك مدرسة شهيرة دربت فيها الجواري على الغناء والموسيقى .

اما دمشق فصارت مركز الامبراطورية ، حيث اثيب الجند جزاء خدماتهم في الحرب بقطع من الارض ، وهؤلاء هم اهل الشام الذين كونوا جيشاً مخلصاً على الدوام لبنى امية الذين كان يعكر صفوهم القيسيون من الشمال وبنو كلب من الجنوب . وقد احتفظ معاوية في عاصمته بالادارة البيزنطية ، تلك الادارة التي جاهد اعقابه في ان يصبغوها بصبغة اسلامية دون ان يمسوا تركيبها الاساسي .

وكان الخوارج والشيعة يثيرون الاضطرابات في العراق ، وفي نفس الوقت تطورت مصادر الثروة المادية في هذا البلد بتوجيه من حكامه البارزين من مثل زياد بن ابيه والحجاج الذين بالاضافة الى حكمهم العراق انابوا عنهم من يحكم البلاد الايرانية الفسيحة اي خراسان . اما مصر فقد امدت الخلفاء بثرواتها الطائلة التي لم ينس الخليفة ان يغدق منها على مجموعة كبيرة من عرب الجنوب (اليمانيين) الذين استوطنوا هناك ، وقد حكمها ولاة من جملتهم عبد العزيز اخو الخليفة عبد الملك . اما الجزء الغربي من العالم الاسلامي فكان في المراحل البدائية من تنظيمه الاداري .

احتفظ بلاط الامويين بمظهرين ، مظهر التمدن وما يتبعه من ترف ، ومظهر اخر مفرط في البداوة . وقد احب الخلفاء غوطة دمشق . وهي السهل الوافر المياه الواقع على بعد بضعة اميال شرقا

والذي يتلاشى في الصحراء شيئاً فشيئاً وكان النازحون من مكة والطائف على السواء من الحضر دون شك ، وان كان اجدادهم اصحاب قوافل طالما اخترقوا بها الصحراء ، وان هؤلاء جميعا لم يلبثوا ان تذوقوا حياة المدن مع ان اغلبهم من امهات بدويات . وقد ابتنى بعضهم بيوتا ريفية واخرى للصيد في مواقع جيدة الارواء ، كما كانت لهم قصور على حدود الصحراء كشفت حديثا مما اتاح لنا ان نتصور النماذج الاصلية لها ونستبين معالم الفن والتمدن في عهد بني امية .

بعد ان جاء معاوية الى الخلافة على اثر التحكيم الذي جرى في صفين وارتضاه على السيء الطالع ، اخذ يطبق نظام الوراثة في الحكم بعد ان ايد ذلك رجال حكومته واعوانه ، وهي فكرة غريبة على التراث العربي . وفي اجتماع عقد بين زعماء القبائل والشخصيات البارزة في الامبراطورية ، استطاع معاوية ان ينصب ابنه يزيد وليا لعهده . وقد تبنى العباسيون هذا النظام الجديد وان كان قد رافقه بعض الاغتيالات .

اما العباسيون فاستمسكوا بالسلطه بعد كفاح تعددت اصوله ، وقد ادى مجيئهم الى تغيير جذرى في الخلافة . وبينما تمسك الامويون بتقاليد قريش فقد ظلوا عربا خلصا في اعماقهم رغم تكيفهم الحاذق للعهد الجديد ، واقتبسوا النظام المالي لنصارى سورية ومصر الذين اعتنق فريق كبير منهم الدين الاسلامي فيما بعد . لكن المسلمين الجدد في المقاطعات الشرقية كان اغلبهم من شيعة العلويين ، وظلوا كذلك رغم انهم منوا بكثير من الهزائم ، اذ لم يكن على رأسهم من يقودهم قيادة حازمة . وقد اعتقد هؤلاء بشرعية آل الرسول في الخلافة وهي عقيدة ارتاحوا اليها لانها واءمت نظام الحكم الذى سار عليه ملوك

الفرس والمستند الى نظرية التفويض الالهي . وقد تنقل العباس عم الرسول ببراعة فائقة بين المسلمين وقريش وساعد على فتح مكة سنة ٦٢٩ م (٨ هـ) . وقدر لذريته الذين ورثوا عنه براعته ومكره ان يثيروا الخواطر ضد الامويين في العراق خلال القرن الثامن ، وقد تظاهروا متحمسين لارجاع الحق لآل علي ، في حين انهم لم يخدموا سوى مصالحهم الخاصة بصورة كلية . واستطاعوا ان يكسبوا ود المعتزلة الذين بدأوا في الظهور كقوة مؤثرة في الاوساط العقلية كما سنرى في الفصل التالي ، والذين وقفوا بقوة في وجه الامويين ، مع انهم لم يقبلوا بتاتا بتعاليم الشيعة المتطرفين الذين اعتقدوا بأن آل علي هم وارثو النور الالهي . وقد اعلن ابو العباس السفاح نفسه سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) خليفة شرعيا للرسول وبايعه في الكوفة جمع غفير من زعماء القبائل .

بمجيء العباسيين استطاع المسلمون الجدد والفرس خاصة أن يصلوا الى السلطة ، وقد جلبوا معهم الى المجتمع الجديد ميولا واذواقاً تبدت في كل ناحية من نواحي الحياة العملية . وسرعان ما هجرت دمشق لتحل محلها بغداد ايذانا ببدء العهد الجديد . وادار الخليفة ظهره للبحر الابيض المتوسط وقطع علاقاته مع الغرب الذي اصبح فيما بعد مستقلا من مصر الى جبال البرانس لا تربطه بالخلافة سوى الاعتراف الاسمي وهذا ليس اكثر من عمل دبلوماسي فحسب . واتجه الخليفة الى الشرق حيث الاقاليم الفارسية التي كان مقدراً ان تخلع طاعته فيما بعد وترسل الى بغداد سادة للخلافة العباسية . واهتم الخليفة كذلك بالخليج الفارسي والبحار الهندية التي كان تجاره يجلبون اليه منها طرائف الشرق البعيد .

لقد ادعى الخليفة العباسي انه سيعيد الجماعة الاسلامية الى طريق الاسلام الاولى التي انحرف عنها الامويون ، فتظاهر بالتقوى واحترام السنة النبوية واجلالها . واعتبر الخليفة العباسي نفسه كالنبي المفسر الملهم لكلام الله سواء كان ذلك بشخصه او بوساطة علماء الدين والقضاة الذين تمتعوا بثقته . وقابل المؤرخون بين تقوى الخليفة العباسي وقدسيته وبين زيغ الخلفاء الامويين وفسوقهم وفي هذا ميل الى التحيز ظاهر يجب الا ينطلي علينا . واتخذ الخليفة العباسي في ذات الوقت مظهر اكاسرة الفرس ذوي الابهة والرونق البراق والترف المألوف لشعبي العراق وفارس ذوي المجد الفني التليد .

وزخر بلاط الخلفاء بخليط عجيب من الاطباء الاخيار والقضاة والشعراء ومدعي العلم والمنجمين . وشهدت ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم ، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الاغاني وتدار كؤوس الراح خلال ذلك . ويعطر الجو بانسام عبقة تتصاعد من المبخرات ، ويختلج على رنين قطرات الينابيع ، ويهتز الجو طربا للاصوات القوية المغردة المنبعثة عن افواه المغنيات والحان الاعواد . وقد تعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة ، كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة مفحمة ، او زيارة ناسك متسول ذي كبرياء وفظاظة ، وقد يحز رأس بينما تدور الاقداح . وتقترب الليلة من نهايتها ، فيثقل الخمار قلوب النشاوى ، وتنهل الدموع ، وقد ينشد شاعر قصيدة ينعى فيها العمر القصير . وفي الختام يبزغ الفجر باضوائه المتهيبة ، فيؤدي صلاة الصبح اولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوى : انها حياة ملأى بالاحاسيس ، عنيفة رقيقة معا ، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع في آن واحد ، نجد مثيلا لها لكن

بصورة أوضح وأعنف ، وذلك فى عصر النهضة الاوربية . وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة ، والاغاني ، ومروج الذهب ، وفى روايات المؤرخين وقصائد الشعراء .

لكن وراء هذا الوجه الرومنتيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر ، وفي فصلنا القادم سنتحدث عن أفكارهم وصراعهم . لقد شهد القرن التاسع الميلادي [الثالث الهجري] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة ، والتوفيق بين العقل والنقل. وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك ، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الاخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ كل هـذا المجد .

ذهبت الامبراطورية الاسلامية أشتاتا متفرقة تحت وطأة الضرورات الجغرافية والتاريخية . فى القرن (١٠ م = ٤ هـ) كانت الحدود الغربية للامبراطورية المواجهة للامبراطورية البيزنطية مازالت فى أمان اذا استثنينا بعض الغارات الآنية القصيرة . لكن جميع الاقاليم الفارسية انفصلت ، وعادت تبعث بالامراء الفرس من البويهيين ليقبضوا على زمام الامور ويسيطروا على خليفة ضعيف عام ٩٤٦ م ٣٣٤ هـ . ولما كان هؤلاء من الشيعة ، فانهم ساعدوا على نشر دعاية شيعية معتدلة ، بينما كان القرامطة ينشرون الرعب والفوضى من مكة الى بغداد . وأسس الاسماعيليون في افريقية « تونس » المملكة الفاطمية التي حكمت لمدة قرنين مصر وسورية . وبقيت الاندلس مستقلة ومعادية تحت ظل خلفاء من الاسرة الاموية ، لكنها مع ذلك تابعت كغيرها كل

مظاهر الفكر الشرقي .

نلاحظ في القرن الحادي عشر الميلادي [الخامس للهجرة] ، أن الخليفة بدل أسياده ، فالترك عرفوا سبيلهم الى بغداد منذ نهاية القرن التاسع الميلادي واحتلوها وحكموها في ١٠٥٦م = ٤٤٨ هـ ، وحكم الامراء السلاجقة العراق والجزيرة وجزءاً من سورية ، وقسموا هذه البلاد الى امارات صغيرة متنافسة . وان تبعثر القوى الاسلامية ووضع الخلافة العباسية المزري ، وتفسخ الخلافة الفاطمية ، كل ذلك أتاح للصليبيين من الفرنجة أن يقوموا بمغامرتهم البالغة الجرأة ١٠٩٧م = ٤٩١ هـ . لكن هذه المغامرة باءت بالفشل بسبب ما وجد عندهم كذلك ، من تناحر شخصي ، وفوضى في الصفوف ؛ كما أدى وجودهم الى رد فعل في العالم الاسلامي ، فتوحد تحت راية الزنكيين والامراء الايوبيين ، وأولهم نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الذي استعاد بيت المقدس (سنة ١١٨٧ م = ٥٨٣ هـ). أعاد السادة الجدد للشرق المذهب السني ، ومنذ ذلك الوقت اقتصرت الشيعية عدا فارس على أقلية منفصلة هنا وهناك . إلا انه تكون منهم طائفة كبيرة من الفقهاء حذقوا عقيدتهم في المدارس التي أسسها الشيعة .

أما الاحياء او الانتعاش السني فقد أكد على المظاهر المحدودة الضيقة للاسلام الاول . وحيث يكون رد الفعل سريعاً ، نجد ان النزعات المضادة لا يعوقها عائق عن الاستثارة . وقد ظهر رد الفعل هذا في التقدم السريع الذى أحرزته الصوفية حين غمرت الشرق في القرن (١٢م - ٦ هـ) بالتكايا ومراكز التبشير الصوفي . وقد نظر العالم الاسلامي الى الصوفية نظرة شك وريبة ، ومع ما كانت لهم من عبادات فانها لم تكن تتوافق مع تحسس الصوفي بفرديته المفزعة

البالغة ، إلا انه بفضل تعاليم الغزالي (ت ١١١١ م = ٥٠٥ هـ) انضم أهل التصوف تحت لواء السنية . لقد بثت الصوفية في الاسلام نزعات وجدانية أغوت صفوة الناس ، وبسطت نفوذها على كتل الشعب بنشرها تقديس الاولياء ، الاموات منهم والاحياء ، وذلك عن طريق تبجيل الشيوخ وكل ما يسمى في المغرب باسم المرابطين واهـل الزوايا : marabouts et zaouias وأصبحت الصوفيـة أحيـا صورة الاسلام لـمدة قرون . وفى الغرب ، في مراكش في القرنين (١١ و ١٢ م = ٥ و ٦ هـ) قاد المرابطون والموحدون اصلاحا دينياً هدفه احياء القوة الدينيـة للكفاح ضـد استعادة الاسبان للاندلس .

في القرن الثالث عشر (١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ) طوح المغول بالخلافة العباسية ، وفي بحران الاضطراب الذي عم البـلاد بتأثير فتوحاتهم ، ركدت الحياة الفكرية الاسلامية حتى القرن الماضى . الا انه في هذه الفترة المظلمة لم يعز على الاسلام أن يجد بين آن وآخر رجالا صادقين حدبوا على القيم الروحية فيه . فى القرن (١٤ م = ٨ هـ) جاهد ابن تيمية بحماس كيما يعيد السنية الى الحنبلية الخالصة كما كانت في القرن (٩ م = ٣ هـ) . وعلى الرغم من المقاومة التي لقيتها جهوده فان هذه كانت دليلا على حيوية الفكر الديني .

أعاد الفتح العثماني الى الشرق النظام والوحدة ، وعامل السلاطين مختلف المفكرين بتسامح أو بعدم اكتراث أحيانا أو بالشنق والاضطهاد تارة أخرى . هذه المعاملة على أية حال لم تعترض سبيل انتعاش الحياة الاخلاقية الجديدة واستيقظ العالم الاسلامي من سباته فجأة ، فتحقق من ضعفه المادي

وعقمه العقلي ، وأثقلته الصلوات الرتيبة التي أصبحت آليـــة لفترة طويلة حيث حق له أن يتقاعس طوال الفترة المظلمة عن القيام بأي جهد من أجل البحث الديني . وهذه اليقظة حدث بارز ، بالغ الاهمية ولا يقل عنها أهمية قولنـــا بوجوب افساح المجال لها ، وسط اضطرابات العالم الراهنة ، لتأخذ مكانها من جديد بين القيم الاخلاقية للمستقبل ، وهذا ما سنعالجه بالتفصيل في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر .

المصادر

Halphen, Les Barbares; Diehl et G.
Marcais, Le Monde oriental;
Gaudefroy-Demombynes ,Le monde musulman jusqu' aux croisades; H. Masse, L' Islam; Tor Andrae,
Muhammad, trad. fraucaise; Buhl, Muhammad.

الفصل الثالث

الحركة الفكرية

الجبر والاختيار . الاعتزال . مذهب الخوارج . الشيعة : الامامية الزيدية ، الاسماعيلية ، القرامطة ، الدروز ، النصيرية . التصوف. البهائية . الوهابية .

إن الاحداث الدينية ذات علاقة وثيقة الصلة بالاحداث السياسية وربما نلمس هذه الحقيقة في الاسلام بصورة أوضح مما نلمسها في غيره من الأديان . يظهر لنا الوصف التاريخي المجمل السريع الذي قدمناه في الفصل السابق ذلك الامتزاج الدائم بين ماهو دنيوي وماهو روحي ، وهذه خاصية أساسية نلحظها في النظم الاسلامية . لم ينقطع المسلمون خلال قرون كثيرة عن بحث أخطر القضايا التى تدخل ضمن دائرة المعرفة الانسانية ، هذا مع العلم ان حياتهم اليومية قد نفذ فيها التدين وتشعب خللها جداً . أما عملنا في هـــذا الفصل فسنوجزه في صفحات قليلة باستعراض هذه القضايا .

لم يكن محمد فيلسوف دين « لاهوتياً » ، وانما كان نبياً ، وهذا أمر لا يحتاج الى فضل بيان . وأحاطت به زمرة من الرجال كانت الصفوة المختارة في الجماعة الاسلامية الاولى ، وقد روضت هذه الزمرة نفسها

على طاعة الناموس الذي جاءهم باسم الله والسير على تعاليم نبيه والاهتداء بهديه . وكان لهذه الجماعة ايمان قوي بريء اكتفوا معه بعدد يسير من القواعد والفرائض .

مع هذا ، استطاع المسلمون في بضع عشرات من السنين أن يشاركوا في العيش شعوبا امتلأت بالمشاحنات الدينية ، واستطاع أبناؤهم بالذات أن يساهموا باخلاص في المشاكل الاساسية التي انبعثت عن التأمل في مصير الانسان والاحاطة بالكون . وأدخلوا في مجالات بحثهم آراءاً بالغة التنوع ومقدرة غاية في الثراء الى حد ان الباحث يتردد بعد اجمال الخطوط العامة للحركة الفكرية الاسلامية في اسناد أي دور معين لاي مفكر اسلامي فيها .

يبدو ان الحجاج الذي أقام الكنيسة المسيحية وأقعدها وجد سبيله الى الفكر الاسلامي ، حتى قبل ان يدخل أهل الذمة من المسيحيين الى الدين الجديد ويصبحوا شطراً من الجماعة الاسلامية. وانه لم يؤثر عن الرسول فقط ان القرآن جاء مبشراً ومكملا لما ورد في التوراة والانجيل ، وانما الأمر هو حقيقة ناصعة لا تقبل الشك. ولقد استمر تأثير اليهودية والمسيحية على تراث الاسلام بعد الرسول ايضا . وعنف المناقشات التي أثارها التراث الاسلامي في مجالي الفكر الدينى والميتافيزيقي لدليل قاطع على حيويتـه ، في حين ان ضعف التفكير الدينى الحديث دليل مريع يشير الى الآلية في ممارسة العبادات وعدم الاكتراث لها .

شغل الفكر الاسلامي نفسه باسمى وأرفع المسائل الخاصة بالمصير الانساني ، تلك المسائل التى أشار القرآن الى كثير منها ، على الرغم من ان القرآن هو كتاب وحي وليس بكتاب جامعي في فلسفة الدين.

ومشكلة الجبر والاختيار التي اثيرت مبكراً في العهد الاموي غالبا ما وردت في القرآن من مختلف وجوهها . كما أكد المؤرخون على وجود المتشابهات في القرآن ، وهي آيات تحتمل مختلف التفسيرات أصبحت غذاء لتأييد وجهات نظر الاحزاب المختلفة . ولا يسعنا في هذا المجال الا ان نظهر اعجابنا بثراء تفكير محمد ، ذلك التفكير الذي مكنه من استخراج الاسس الجوهرية لاية مشكلة من ذات نفسه ومن غيره ومن وضع الحلول المتعددة لها . ومع اننا لا نستطيع الجزم الا بعد بحوث ضافية ، الا انه مع ذلك يمكن القول ان جميع القضايا المتتابعة التي شغل بها القديس أغسطين (١) في فلسفته الدينية قد وردت في صورة أولية في القرآن ، ولا يعوزها غير التمحيص المنطقي لمفكر لاهوتي.

يبدو من دراسة القرآن ان الفكرة المسيطرة عليه هي طبيعة الاله الواحد القدير منذ الازل والى الابد ، ذلك الاله الذي أصبح بعد عصر محمد يدعي بالاله المطلق الذي لا يحد بحدود الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وانه خارج نطاق الزمن يقدر الله ، أو انه قدر فيا مضى مصير الانسان . وهنا قد يعتبر البعض اللغة هي المسؤولة عن عدم التحديد الظاهر في كون فعل الله ماضياً ناجزاً ، أو انه فعل حاضر غير منته بعد ، وبالتالي غير مستقل عن الزمن ، مما يجعل الله مرتبطا بالزمن ، في حين انه من ناحية أخرى مطلق وفوق الزمن . ويعين الله مصير الانسان بارشاده الى طريق الهدى ، فيتبعه البعض مهتدين بنعمة الله التي انعمها عليهم . في حين ان الله غشى عيون البعض الاخر ووضع في آذانهم وقراً فعادوا لا يفقهون شيئاً ، هذا عينه أدى الى

---

(١) أعظم فيلسوف نافح عن المسيحية ومن أشهر اباء الكنيسة اللاتينية عاش بين ٣٥٤ و ٤٣٠ م

جبرية لا مفر منها صارمعها كل عمل للانسان باطلا و كل جهد مضيعا

الا ان القرآن مع هذا ينص على عدالة الله : وقد كان تطبيق هذه العدالة التي هي ذلك الثواب الذي ينشده المؤمنون يوم الحساب قضية من القضايا الرئيسية التي أثيرت منذ الايام الاولى للرسالة باكبر حماس. لا يضر الله الانسان في شيء ، وسيجزيه الجزاء الاوفى على ماقدمت يداه . هنا يبدو تناقض صارخ مع فكرة الجبرية المقدرة من قبل مما دعا الى محاولة التوصل الى ما يأتي : لماذا قدر للبعض الخير وللاخرين الشر وكيف يثاب البعض على ذلك الخير ويعاقب آخرون على هذا الشر، مادام الانسان غير مسؤول عن أفعاله ؟ أما العقيدة المسيحية فقد احتمت بظل جهالة الانسان وغيبية الاحكام الالهية ؛ ولا ندري لماذا لم يلجأ الاسلام الى حجة كهذه .

كما قام غموض آخر حين حاول المسلمون ان يوضحوا أصل الخير والشر . أما القرآن فلم يقدم شيئاً محدداً في هذا الصدد . ولم يكن معروفاً ما اذا كان الله قد خلق الشر أو لم يكن له به علم أو انه تعالى قد احتمله وسكت عنه ، كما لم يعرف ما اذا كان الانسان قد ابتلي به منذ مولده او ان الحياة هي التي تأتي له بالشر . يعتبر الاسلام الخير طاعة الله أما الشر فهو عصيان لاوامره .

وفي الواقع لكي نقدر حلول القرآن حق قدرها ، يجب ان نتذكر ان الوحي في بحث المسائل العليا المتعلقة بمصير الانسان أوشرح ماهية الكون أو تناول أعم شؤون الحياة البشرية اليومية ، ساير ظروف الحياة لدى الجماعة الاسلامية ، عاملا على تذليل العراقيل بمجرد ظهورها ، وحل أية عقبة تعترض سبيل الرسول . والجبر الذي منع قريشاً من الاصغاء الى دعوة محمد واسى الرسول على اخفاقه معهم ،

فترك الاشرار ليواجهوا مصيرهم غير مأسوف عليهم ،هذا رغم ان النبي شعر بشيء من الرثاء لهم حينما كان يفكر باللعنة الابدية التي عليهم: فاذا كانت لهم اية ارادة فان أفعالهم ستدلل على انهم غير مجبرين على فعل الشر . وهناك آيات تنبئنا عن الخير غير المحدود لا له رحيم وعن الثواب الذي وعد به الاخيار جزاء أعمالهم الصالحات ، هذه الايات تلطف من الوعيد الذي تذكره آيات أخرى ، وتشجع على اتباع تعاليم النبي. واننا لا نعتقد بان فكر محمد قد اخذ شكله النهائي دفعة واحدة ، رغم ما يقول به مشاهير المؤرخين المحدثين بانهم اكتشفوا ذلك عند محمد ، ورغم ان دراستهم لتعاليم القديس أغسطين قد اظهرت لهم انها تكونت دفعة واحدة . ان رأينا هو ان محمداً قد تحسس بالمظاهر المختلفة لقضيته بتأثير الظروف المحيطة به ، تلك الظروف التي قد تخفى علينا حقيقتها أحياناً .

ويبدو ان محمداً كون فكرة عن تكوين الانسان متأثراً بالتراث اليهودي المسيحي وها نحن أولاء نقرر ذلك فيما يلي : كان آدم آخر صورة لخلق الله ، استقبل من حضرته النور في نفس الوقت الذي وهبت له الحياة ، وقد علم اسماء الاشياء كلها واكتسب بذلك سطوة عليها . وائتمر الملائكة بامر ربهم حينما أطاعوا آدم فسجدوا له . ولم يبق له شيء يفعله بعد ذلك غير التمتع بنعيم الجنة مع صاحبته حواء، لكن ملاكا ثائراً هو أبليس رفض تكبراً السجود لآدم ، فاخرجه الله من ملكوته ، مما دعا ابليس الى ان ينتقم لنفسه وذلك بتعليم آدم المعرفة اي الشر . ومع ان الله قد غفر لآدم الا انه أرسله الى هـذا العالم وفي ذات الوقت والى عليه نعمة نوره والامل بالعود ثانيـة الى الجنة . واعطى من ناحية أخرى الشيطان القوة على التغرير بالانسان

حتى يوم القيامة . والنوع البشري الذي بدا يتكاثر ويعمر الارض فيه قبس من نور الله ، الا ان البشر في خطر دائم من فقدان هـذا القبس لو لبوا ايحاءات الشيطان اليهم . والله يعين البشر بارسال انبيائه الذين ينقلون اليهم وحيه وهو ذلك النور الاتم ويهـدونهم الصراط المستقيم . ولما كان الله لا يرسل أنبياءه الى الناس جميعا ، فانه قد يبدو ان لله صفوة مختارة تمثلت في تلك الشعوب المختارة التي أرسل اليها سلسلة أنبيائه من نوح الى عيسى (كذا) ، أما بقية البشر فهي مضيعة مهجورة وذلك لعزوف مقدر من الله عليها . أما متى قدر الله هذا المصير فان الحديث النبوي يقدم وجهات نظر مختلفة ، فهناك حديث يحدد هذا الوقت بخمسين ألف سنة قبل خلق العالم ، وآخر متواتر يظهر الله كمشرف على نمو الجنين معطيا اياه صورته بالتدريج ، مقررا مصيره في نهاية هـذا التطور . الا انه مع ذلك فان الفكرة الخاصة بصيرورة الانسان التي اتينا على ذكرها قبل قليل لا تطبع الانسان على الشر منذ تكونه ، انما هذه الفكرة تسمح بالاعتقاد بضعف الانسان ذلك الضعف المؤيد برحمـة من الله . لذا يستطيع الانسان أن يقاوم بنجاح سطوة الشيطان ، وبالتالي صار للناس جميعا امكانية الفوز والخلاص. لكن القرآن يقول إن الله لم يشأ ان يغفر للناس جميعا وانـه أقسم بعزته وجلاله ليملأن جهنم بالكافرين ، فمن الناس من هدى الله ومنهم من حقت عليهم ضلالته ، هكذا في النهاية نجد أنفسنا وجها لوجه أمام أسرار مغيبة عنا .

ان اختلاف الاحاديث التي وصلت الينا والتي تؤيد ما جاء في القرآن من ناسخ ومنسوخ تكون أساسا لعدم الاتفاق الذي ظهر عند الناس منذ بداية القرن (٨م = ٢هـ) أيام الامويين . وغالبيـة هذه

الاحاديث تدعم فكرة الجبرية ، وهي الفكرة التي سادت المذهب السني. دعي في البداية أصحابها باسم الجبريين (من الجبروت أي قوة الله القاهرة) لكن أقلية لا بأس بها اعتنقت فكرة الاختيار أو حرية الارادة في أفعال الانسان ، وباشتقاق لفظي ما زال غير مشروح شرحا وافيا بعد ، دعي هؤلاء بالقدرية (من القدر) وجاء رأيهم مطابقا لعقيدة المعتزلة الذين سنتحدث عنهم في الفصل التالي ، كما سنتحدث بكلمة عن المرجئة الذين أرجأوا حكم الله الى يوم القيامة

ويرى الاوربيون عامة ان الاعتقاد بالجبرية هو في نهاية الامر الفضيلة الاساسية للمسلم . ولن نحاول هنا ان نحدد الى أي مدى قهرت هذه الفكرة غريزة الحياة بين المسلمين وعملت على هدم قوامهم تدريجيا .

في الخلاف الذي قام حول الجبرية ، ساند الخلفاء الامويون فكرة أنكار حرية الارادة في افعال الانسان . وان سلطتهم قد تأتت نتيجة عدم اشتراكهم مع الجماعة الاسلامية في فتنة عثمان ، التي أدت في نفس الوقت الى ظهور ثلاثة أحزاب كبيرة متعارضة في الاسلام هي الخوارج والشيعة والمعتزلة . أما اتباع الحزب الاول فهم الذين خرجوا على جيش علي ورفضوا طاعة العلويين ونصبوا عليهم اماما أمينا على الدين الحنيف ؛ بينما الحزب الاخر هم شيعة علي كما يسمون بصورة خاصة ؛ وأخيراً نجد صحابة النبي البارزين الذين اعتزلوا ، وهذه حقيقة اذا أضيفت الى حقائق أخرى استطعنا تفسير أصل كلمة المعتزلة الذين اعتزلوا الحزبين الآخرين .

وقف المعتزلة ضد الامويين على طول الخط واعترفوا باحقية علي في خلافة محمد بعد وفاته ؛ لكنهم مع هذا اعترفوا بشرعية الخلفاء

الراشدين الثلاث الأول واجلوهم لما قاموا به من الاعمال ، وهذا ما قلدهم به معتدلة الشيعة وبعض الخوارج . ان هـذا الاتجاه الوسط واللا أموي معاً هو الذي أدى الى توحيد قوى المفكرين بحسب رأي نيبرج Nyberg في النصف الاول من القرن الثاني الهجري لاسقاط الدولة الاموية والعمل لا على احلال ذرية علي محلهم ، تلك الذريـة التي اعتقد المتطرفون من المفكرين بان النور الالهي قـد حل في آل الرسول ، بل لاحلال العباسيين الذين يتميزون بالاضافة الى حذقهم السياسي بالحكمة الصائبة والحكم الصحيح . ومهما يكن من أمر فان مذهب المعتزلة قد تبنته الخلافة العباسية منذ البداية حتى مجيىء المتوكل الى الخلافة سنة ٨٤٧ م=٢٣٣هـ وأصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي الى الحد الذي ينطبق فيه هـذا القول على الاسلام . ساد الاعتزال وتغلب بصفته مذهباً رسمياً لا بصفته مذهبا عقليا حراً كما اعتقـد المؤرخون الاوربيون من قبل . لقد دافع الاعتزال بحرارة عن أركان الاسلام وهي القرآن والسنة ورفض الاعتقاد العامي التقليدي الخاص باهل الحديث ، وجعل العقل سنداً للعقيدة ، وباستعارته الاساليب المنطقيـة لفلسفة اليونان أوجد المعتزلة اسكلائية (١) اسلاميـة . والمعتزلة هم أول مناطقة الاسلام والمسمون باهل الكلام أو المتكلمين.

ان المعتزلة تعتقد بوحدانية الله المطلقة وتعارض كل نوع من الثنائية المجوسية وغير المجوسية ، وترفض تناسخ الارواح ، وتجرد

---

(1) Scholastique musulmane

الاسكلائية نسبة الى مدارس الفلسفة الدينية التي نشأت في اوربا في العصور الوسطى في القرون المتأخرة . وهنا يريد المؤلف ان يعتبر المعتزلة مدرسة فلسفية نشأت من صميم الاسلام .

الله عن كل صفة منفصلة عن ذاته . ويسود تعاليمها الاخلاقيـة فكرة عـدالة الله ، الذي لم يوجد الشر لكنه سمح بوجوده في أعمال خلقه الاعتيادية . وعمل المعروف لديهم هو اطاعة أوامر القرآن والانسان حر في أفعاله وسيثاب على ما قدمت يداه من خير . أما ذنوبه العظمى فهي معصية ما نهى الله عنه ، ومن يقترف هذه الذنوب فاسق يوضع في منزلة بين المنزلتين اي مقام يقوم بين الكافر والمؤمن. وعلى عكس ما ذكرنا أعلاه نجد الاسم الذى أسبغ على هذه الفرقة قد أرجعه البعض الى الاشتقاق من لفظ « اعتزل » عن الناس في حين ان آخرين يرجعون اشتقاق لفظ الاعتزال الى ذلك الزهـد الذي اتصف به المعتزلة الاوائل اذ الزاهد هو « المعتزل » عن العالم . وجد المعتزلة أنفسهم ضد الشيعة والغلاة منهم خاصة الذين أسبغوا نوعاً من الالوهية على أئمتهم العلويين وكذلك ضد الفقهاء المتزمتين من السنـة الذين كانوا فى ذلك الوقت علماء للشريعة وبالتالي بيدهم تنظيم الحياة الدينيـة للاسلام كما أظهروا معارضة الامويين الذين اعتنقوا رأي المرجئة وهو الجبرية المطلقة .

ان الموقف الذي وقفه المعتزلة ازاء صفات الله ، يتحدد بعدم أخذهم بخلودها ولا سيما فيما يتعلق بكلام الله . وهذا المبدأ الذي يكون عنصراً ثانـوياً فحسب في مناقشات المعـتزلة ، كان له أثر ملموس ومعين جذب أنظار الناس بصورة واضحة حتى أصبح هذا القول شعار المعتزلة. والمذهب الذي قبل حتى هذا الوقت كان يقول بان كلام الله الذي فاض من أنواره لا يمكن أن يكون إلا أزلياً كما ان الله أزلي وانه لا يمكن أن يكون مخلوقا فى أية حال من الاحوال ؛ ووضعت عـدة حلول للتمييز بين القرآن نفسه من حيث انه كلام الله وبين تجسده المـادي

في نسخ مكتوبة أو بشكل متلو على الالسنة في حين أكد المعتزلة ان القرآن خلق في نفس الوقت الذي خلقت فيه الكائنات الاخرى على وجه الارض . وكان هذا هو المبدأ الرسمي الذي حاول الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م - ١٩٨ - ٢١٨ هـ) ان يفرضه بالقوة .

لقد أسس المهدي منظمة للتحقيق مع ذوي الميول المنحرفة السائدة بين طوائف الشعب الايراني خاصة ذلك الشعب الذي اعتنق الاسلام حديثاً ، فسجنت هذه المنظمة وأعدمت أرواح الكثيرين من المتهمين بالزندقة ، تلك الكلمة الايرانية التى أطلقت في البداية على المجوس (١). ان التأثير الباقي للمجوسية على التفكير الاسلامي هو حقيقة يجب أن نحدد مداها فيما بعد . وقد أخذ الخليفة يعرض للمحنة (امتحان) أفكار اولئك الذين كانت لهم أية مكانة بسبب مراكزهم المهنية أو بسبب نشاطهم العقلي . ووجهت المحنة زمن المأمون ضد معارضي المعتزلة وكل ذوي المكانة كالقضاة مثلا ، بحيث يلزمهم ان يؤكدوا ايمانهم الراسخ بخلق القرآن . وقد طورد الامام ابن جنبل من جانب العامة وسجن لرفضه الاعتراف بمبدأ خلق القرآن . الا انه بعد حين أخذ الخليفة المتوكل يؤيد مذهب السنة تأييداً مطلقا ويضطهد كل من عداهم من غير السنة من الهراطقة والكفار والمنحرفين، ونفس القضاة أو ذريتهم أضطروا في زمن المتوكل أن يعلنوا اعتقادهم التام بعدم خلق القرآن . هذه حالة من حالات تقلب الفكر طالما ظهرت بين الجماعات التى يغلب فيها الهوى على العقل ، وقد كان سقوط المعتزلة تاما وفظيعا بحيث يمكن الاستنتاج أن محاولة التوفيق بعد ذلك بين العقل والنقل لم تنتشر الا فى نطاق ضيق . ولم يكن تأثيرها شديداً

---

(١) زنديق من صديق : والصديقون م أبرار المانوية .

حتى ضمن هذا النطاق الضيق : من ذلك ان أحد المعتزلة البارزين وهو ابن الراوندي تحول فجأة الى الشيعية المتطرفة . الا ان فكر المعتزلة لم يمت على اية حال ومع ان التمييز المذهبي لمؤلفاتهم يجعلنا في شبه شك من الصورة النهائية للاعتزال ، فان الفكر المعتزلي قد فرض نفسه وعاش بصورة مطردة مؤثراً في بعض العقول التي لم تكن راضية تماما عن أهل السنة المتنفذين في الحكم . من هذه العقول التي أثر فيها الاعتزال بقوة الاشعري ، وهو صاحب مبدأ التوفيق الذي قدر له منذ زمنه السيطرة على فلسفة الدين الرسمية في الاسلام . ونشطت مدارس المعتزلة زمن البويهيين (ق ١٠ م = ٤ هـ) في العراق وفارس وخراسان . وأثرت هذه العقيدة تأثيراً طيبا في الشيعية المعتدلة .

تكون الحزبان الآخران الكبيران في الاسلام ، الخوارج والشيعة بعد الانشقاق الذي حصل أثر معركة صفين لسبب سياسي : كان الخوارج من المؤمنين الذين انفصلوا عن جيش علي وخرجوا عليه لقبوله التحكيم ذلك التحكيم الذي اعتدى على اختصاص الله في حل الخصام واعطاه لحكمين من البشر . وبعد ان انتخبوا زعيما لهم واعتبروه اماما لجماعتهم تجمعوا في منطقة البصرة وكانت لهم بعدئذ امتدادات في شبه الجزيرة العربية . عارض الخوارج كلا من معاوية وعلي الا انهم ساعدوا في البداية انتصار الامويين على العلويين بسبب تلك الحملات والاضطرابات التي قاموا بها ، كما كانوا بعد ذلك سببا لانتصار العباسيين على الامويين . وفي أواخر القرن الثاني للهجرة اختفوا من المسرح العام للتاريخ ، وان بقيت لهم مواطن بعيدة ضمت العباديين والنفاريين والتي ما زالت تعيش في عمان وزنزبار والمغرب (في مزاب وجبل نفوسة) وتعاليمهم الخاصة بموضوع توجيه الجماعة الاسلامية

ما زالت السبب الرئيسي لعزلتهم . وقد قوى الخوارج بانضمام جماعات كبيرة من المؤمنين الجدد (الموالي) اليهم ولذا أكدوا على عدم ضرورة اقامة امام من قريش ، ولا حق من العرب ، بل يمكن أن يكون « عبداً حبشيا » . وقد أجلوا أبا بكر وعمر ونبذوا عثمان وعليا .

دعا بعض المؤرخين الخوارج باسم « البيوريتان (١) المسلمين » وهم في الواقع فرقة راعت بدقة نصوص القرآن ودعت الى التمسك بالوحدة الاجتماعية والاخاء الاسلامي اللذين تميزت بهما الجماعة الاسلامية الاولى . وبسبب تفسيراتهم لبعض الحقائق الاخلاقية نراهم ينفصلون عن السنة . فالرجل الذي يقترف الكبيرة يعتبر لديهم مرتداً وبالتالي كافراً ، لذلك أباحوا دمه وممتلكاته ونبذه من الجماعة الاسلامية . ويخضع المجتمع العبادي من الخوارج لقوانين أخلاقية صارمة يشرف على تنفيذها هيئة من الفقهاء . أما المزابيون من الخوارج الجزائريين فيتصفون بصورة خاصة بالامانة والشرف ، ذلك الى جانب كفاءتهم ومرونتهم في أداء الاعمال . ويدعون بازدراء باصحاب الفريضة الخامسة ، وهذه طريقة غير مباشرة لامتداحهم بانهم لا يبتعدون قيد شعرة عن التراث السني المأثور .

أما الشيعة فلها مدلول سياسي وديني آخر غير ماهر بنا ، ولها دور كبير في التاريخ . وهي حزب تلك الفئة التي ظلت بعد صفين والتحكيم

Puritains de l' islam

(١) البيورتان أو أصحاب المذهب الطهري وهم جماعة من البروتستانت الانكليز الذين اعتبروا اصلاح الكنيسة زمن اليصابات ١٥٥٨-١٦٠٢ غير كاف، ونبذوا البدع التي ظهرت في المسيحية .

موالية لعلي ، حين تخلى عنه أهل الحجاز تحت ضغط بعض صحابة النبي كالزبير وابنه ، وحين تمسكت سورية ومصر بولاء معاوية أشد التمسك . وينتشر الشيعة انتشاراً واسعا في العراق ومناطق ايران، ويدعون شرعية الخلافة في ذرية علي حتى ولو كانت هذه الذرية لابناء غير فاطمة . وحين قهر الامويون الشيعة بصورة بالغة ، وخدعهم العباسيون ، غدوا فرقة ساخطـة على مر الايام . جمع أوائل العلويين حولهم في العراق المؤمنين الجدد في الاسلام وهم الموالي الذين وضعهم خلفاء الشام في مركز اجتماعي ثانوي ، والذين جمعوا بين خصائص « النبط » والفرس معا . وفي القرن الثالث الهجري قامت حركة الزنج مصطبغة بصبغة علوية . وكان القرامطة والاسماعيلية من الشيعة كما كانت بعض الفرق الصغيرة ذات أصل غامض كالنصيرية . من هنا نجد ان العلوية والشيعية عبارة عن تعبيرين يكمنان وراء الولاء المخلص كثيراً أو قليلا لامامة آل النبي . وفي دائرة العلوية والشيعية نجـد اتجاهات اجتماعية ودينية مختلفة عن بعضها كثيراً .

تغير مركز الحزب المعارض على اية حال في القرن (١٠ م=٤هـ) بصورة فجائية الى حزب مؤيد للخلافـة . وكان الخليفة في الواقع تحت سيطرة الامراء البويهيين الشيعة منذ (٩٤٦ - ١٠٥٥ م = ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) ، وهؤلاء الامراء خففوا من غلواء الثورة التي تشرب بها مذهبهم والذي كان يدعو الى ابدال الخليفة العباسي بممثل عن الامام الشيعي المختفي . وبعد اختفاء القرامطة انتشرت شيعية معتدلة انتشاراً واسعا بصورة شبه رسمية في كل مدن الشرق الادنى مصحوبة ببعض أعمال الاضطراب . واثناء ذلك نجد المتطرفين من الشيعة اي الاسماعيلية قد أسسوا في افريقية « تونس » (سنة ٩١٠ م =٢٩٨ هـ) خلافـة

مهدية انتقلت الى مصر (سنة ٩٦٩ م = ٣٥٩ هـ) ثم فتحت سورية وادعت ان لها النفوذ على جميع المواطن الشيعية. واتخذ هؤلاء مظهر العداء للخلافة السنية فى بغداد، لكن في سنة ١٠٥٥ م سقطت بيـد الامراء السلاجقة الذين ادعوا أنفسهم حماة غيورين على المذهب السني وقد حاول الصليبيون ان يستفيدوا من الاسماعيلية فى أواخر أيامهم لكنهم لم يحصلوا على شيء منهم كما أملوا ذلك، وفي (سنة ١١٦٩ م) انهى صلاح الدين حكم الفاطميين في القاهرة. واستمرت الجماعات الشيعية على أية حال في الوجود في كل مكان فى الشرق تقريبا، ففي فارس أصبحت الشيعية مذهب الدولة الرسمي منذ مجيء الاسرة الصفوية الى الحكم سنة ١٥٠٢ م — ٩٠٨ هـ.

كانت العقيدة الاساسية لدى الشيعة سياسية الطابع، فقالوا بعدم شرعية الثلاثة الاوائل من الخلفاء الراشدين وبحق على الخليفة الرابع باستخلاف محمد بعد وفاته مباشرة، وبان الخلفاء الامويين والعباسيين كانوا غاصبين بجملتهم. ان حقوق علي وذريته قد نص عليها القرآن في رأيهم، لكن هذه الحقوق قد زيفت او فسرت على غير وجهها الصحيح. وعلى هذا الاساس فهناك قرآن شيعي يختلف عن القرآن المتداول (١) ويعتقـد الشيعة ان النور الالهي الذي حل فى آدم والانبياء من بعده واحداً بعد آخر حل كذلك في آباء محمـد وعلي وانتقل اليهما والى ذريتهما من بعد، وبالتالي فقد تجلى هذا النور نفسه

---

(١) يتفق عامة المسلمين والباحثين فى القرآن على انه هو القرآن الاصلي، والاختلاف الذي يشير اليه المؤلف لعله ان يكون حول تلك الايات القليلة المتعلقة فقط بحق علي فى الخلافة، وهي آيات يعتقد بعض الشيعة المتطرفة بانها غير موجودة في قرآننا الحالي.

في أبناء علي من غير فاطمة ايضا ، وهم جميعا من « أهل البيت » وهذا تعبير غامض ادى الى ظهور جماعات عدة لكل امامها الخاص . ولما مات الامام الثاني عشر دون خلف ، فقد اعتقد الشيعة بفكرة رجعة الامام وهي الفكرة التي لها أصول دون ريب في العقائد اليهودية والمسيحية (كذا) . وبعد نهاية الغيبة الصغرى في (٩٣٩م ٣٢٨ هـ) التي قام خلالها أربعة وكلاء عن الامام الغائب تبدأ الغيبة الكبرى التي تتوقف فيها صلوات الجمعة ما دام الامام مختفيا ، وسيظهر في الفرصة المناسبة . لقد وجدت الطائفة الشيعية وهي ترتقب رجعة الامام نفسها ضائعة في وسط سني وخاضعة لحكم غير شرعي وعاملة على كتمان عقائدها الحقيقية خلف التطبيقات الدينية الظاهرية العامة . وهكذا اكتسبت الشيعة مظهر جمعية سرية ازدادت نمواً بتأثير الفرق المتطرفة كالقرامطة والاسماعيلية .

نجد أنفسنا ثانية نقابل بين الشيعية والسنية على أنهما متضادتان لكن يجب الا يعني هذا انه ليس للشيعة سنة (بمعنى التراث النبوي) ، وذلك لان لهم مجموعاتهم الخاصة من الحديث ، تكونت خلال القرن العاشر (الرابع الهجري) في وقت سيادة الامراء البويهيين على بغداد كما أقام الصفويون شيخا الاسلام كحارس للشريعة .

يكون الامام الشيعي معصوما اذا حاز على الصفات التي تقررها له العقيدة الشيعية ، وتختلف فرق الشيعة عن بعضها في صور القوى العلوية التي يضفونها على الامام . والزيدية بوصفها أكثر الفرق الشيعية اعتدالا ، والتي تعترف عن طريق غير مباشر بشرعية الخليفتين أبي بكر وعمر تعتقد ان امامها يرشده الله بنفسه . ويعتقد الغلاة بالحلول ، وان العنصر البشري في الامام « الناسوت » يحتضنه العنصر الالهي

نصف مليون دولار تخصص لدراسة الشرق لاوسط

برنستون - نيوجرزي - ٢ ك ٢ - منحت موءسسة روكفلر مبلغ نصف مليون دولار الى جامعة برنستون كي تخصص لتمويل دراسات خاصة عن الشرق الاوسط • وتشمل هذه الدراسات الابحاث وتدريب المعلمين وقد بدأ قسم دراسات الشرق الاوسط عام ١٩٤٧ بعد ان قدم الاموال اللازمة كل من موءسسة فوردوشركة كارنجي وموءسسة كليفلند دودج وستتركز الدراسات بنوع خاص على لغات الشرق الاوسط بما في ذلك العربية والفارسية والتركية

افتتاح موءتمر الشبيبة الاسلامية في كراتشي

كراتشي - ٢ ك ٢ - قال الدكتور محمد علي رئيس حكومة الباكستان ان العقيدة الاسلامية تستطيع ان ترضي العالم الذي نعيش فيه «هذا العالم الذي ينادي بحياة هادئة بعيدة عن النزاع القائم بين الشيوعية والرأسمالية» • وقد ادلى بتصريحه هذا في حفلة اقيمت لتدشين اول موءتمر عالمي للشبيبة الاسلامية

وقال محمد علي ان في الاسلام قوى تستطيع ان تضع حدا للاثراء المسرف والفقر المدقع • وقد حضر لموءتمر ١٤٩ مندوبا عن ٣٣ دولة

(1955) ١٩٥٥/١/٣

حدث جديد في عالم الكنائسي الماروني

اسطوانات الخوري بولس الحاج بطرس

لمناسبة زيارة حضرة الخوري بولس الحاج بطرس من جوار بحوز لبنان للولايات المتحدة وتلبية لطلب جوالينا في سائر انحاء امريكا وقد اعجبت ايما اعجاب بصوته الرخيم والحانه الكنائسية الساحرة باصولها وعذوبتها، سجل هذه الاسطوانات الخمس. وقدرافقه في بعضها جوقة من الشبان والشابات في بروكلن والموسيقار الشهير الاستاذ سامي الشوامير الكمان والسيدة نجده خوري على الارغن.

« اللاهوت » . أما الحال عند الامامية فان الامام يبقى بشراً ، ولكن حلولا جزئيا يضع فيه جانباً الهيا .

والامامية بوصفها الفرقة الرئيسية ، تعتقد باثني عشر اماماً آخرهم محمد بن الحسن وتدعى هذه الفرقة بالاثني عشرية . أما الزيدية من الامامية فتحل زيداً بن علي بن زين العابدين محل الامام الخامس عند الاثنى عشرية وتعتبره الامام المختفي . والى هذه الفرقة ترجع الاسرة المالكة في فاس (٧٩١ - ٩٢٦م = ١٧٥ - ٣١٤ هـ) وائمة اليمن . وما زال الزيديون موجودين في جنوب بلاد العرب .

اما الاسماعيليون فاشتقوا اسمهم من امامهم السابع اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر خليفة شرعي لديهم . ولم يقتصر اثر الاسماعيلية على دورهم الهام في تاريخ شمال افريقية الذي لعبه عبيدالله المهدي والدولة الفاطمية التي قدر لها دون توقع ان تحكم في تونس ثم في مصر ، لكن تاريخ الشرق والحروب الصليبية زاخر بالجليل المدهش من أعمالهم كذلك .

وبلغ دور الشيعة الاقصى كجمعية سرية في ظل الاسماعيلية، وقد تميزت هذه السرية بالطاعة المطلقة للرئيس ، والمؤمن بالاسماعيلية ينشأ على تأويل باطني مغالى به للقرآن لان ذلك سوف يؤهله للاستقلال التام في دينه وخلقه .

ولا تختلف الشيعة عن السنة الا في بعض أمور تفصيلية تختلف الاجابة عليها باختلاف الفرق . وفيما يتصل بحرية الارادة يقترب الشيعة بصورة عامة من المعتزلة ، وهم مثلهم آمنوا بخلق القرآن .

وقد استندت جماعات اخوان الصفا والقرامطة الى فلسفة غنوصية(١) بينما تعالت عامة الشيعة عن الصوفية ، وان شابهتها في بعض المظاهر الخارجية المعينة وتعدد اتجاهاتها . ان الشيعة تعتقد بامام ألهمه الله من نوره وانابه عنه على وجه الارض ، بينما تدعو الصوفية الفرد الى أن يجاهد وحده كيما يجد الله . وفي بعض الاوقات وقف الشيعة موقف المعارضة العنيفة ضد أهل التصوف كما حصل للحلاج . وتتميز الشيعة ببعض خصائص تفصيلية في الاذان وفي تراويح رمضان وغير ذلك . وللفقه الشيعي أجوبته الخاصة على المسائل الفقهية سنشير اليها في مكانها المناسب .

ترتبط القرمطية بالشيعة ببعض أوجه الشبه الظاهرية ، والقرمطية في أساسها خليط من اتجاهات اجتماعية وفلسفية نشأت في العراق الادنى في القرن التاسع (الثالث الهجرى) . أما من ناحية ارائها الفلسفية فترتبط باخوان الصفا ، بينما يذكرنا مظهرها الاجتماعي بالشيوعية التى تميزت بها حركة الزنج . وفي كلتا الحركتين نجد الدعوة الى امامة العلويين تتخذ كستار يكسب مبادءهم صبغة مقبولة لدى العامة . لكن القرامطة رفضوا قبول فكرة وراثة آل علي للنور الالهي واستعاضوا عنها بقيام مرشد للجماعة الاسلامية مهما كان أصله ما دام ملهماً من الله ، وتزعم القرامطة رؤساء منظورون اعتبروا أنفسهم نواباً عن سيد مختف ، واقتبسوا من الشيعة هذه الفكرة كما اقتبسوا منهم مراسيم الانضمام الى الفرقة . والعقيدة القرمطية الخاصة

---

(١) الغنوصية : فلسفة نشأت من معتقدات شتى ، وهي مشتقة من الغنوص أي المعرفة العليا ذات الاسرار . والغنوصية تهدف الى تخليص الروح من الجسد والسمو بها الى العلاء .

باكتساب النور والمستقاة من الهلينية والمجوسية هي التي تقرر بنية الفرقة ، تلك البنية المتكونة من عقائد وفرائض عملية تتدرج من أبسط العقائد والفرائض التي يعتنقها مسلم بسيط وترتفع الى مستوى عال من الادراك المباشر للوحدة الالهية ، ذلك الادراك الذي ينكر فكرة الواجبات الدينية . هكذا تجمع القرمطية بتنوعها بين الفلسفة في أعلى قمتها وبين أبسط مظاهر الشيعية المتطرفة في أساسها الى جانب ما تقدم نلاحظ ان القرامطة لم يقوموا بشيء سوى التخريب وحسبنا ان نذكر حملة ابي طاهر سنة ٩٣٠ م (٣١٨ هـ) على مكة وسلبه الحجر الاسود الذى لم يعاد الى موضعه حتى سنة ٩٥١ (٣٤٠ هـ) بفضل وساطة الخليفة الفاطمي فيما يظهر . وأشاد القرامطة في خراسان قلعة الموت التى غدت الحصن المنيع للاسماعيلية ولم تهدم حتى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦ هـ) على يد المغول بزعامة هولاكو . وفي سورية بنى القرامطة سلمية التي أصبحت من نصيب الحشاشين من الاسماعيلية . ومجمل القول ان القرمطية لا تعني مؤرخ النظم الاسلامية الا من حيث انها ساعدت ، كما ساعدت الشيعية في نفس الوقت ، على نمو النقابات وأصحاب الحرف والجمعيات السرية ، وكان هؤلاء ذوي ميول متباينة: من ذلك جماعات الفتوة في القرن السابع الهجري الذين كانوا ضد الاسماعيلية .

ويكون الاسماعيليون الجدد في الهند الذين ينتمون الى ابن الخليفة الفاطمي المستأمن (المتوفى سنة ١٠٩٤ م = ٤٨٧ هـ) جماعة متماسكة يتزعمها اغا خان . وفي النهاية نجد في فارس جماعة من غلاة الشيعة هم مؤلهة علي أو (العلي الهية) يقفون على خط مستقيم ضد الشريعة الاسلامية بعقائدهم وفرائضهم المعقدة .

والدروز فرع آخر من الشيعة المتطرفة ، ويدينون بعقائدهم الى فرد دعا في القاهرة الى الوهيـة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (المتوفي سنة ١١٢٠ م = ٥١٤ هـ) ، وما زال الدروز مؤمنين بهذه الدعوة الى اليوم . يبدو ان مبادىء الدروز في أعلى صورها متأثرة بعناصر من الافلاطونية الحديثـة كالقول بالعقل الفعال والنفس الكلية . وهذه الفرقة العنيفة المكونة من مائة وخمسين الفا والتى ما زالت معزولة وسط العالم الاسلامي قد اثارت هياجا في الشرق خلال القرن التاسع عشر ، هذا وان عقلية الدروز أبعد ما تكون عن الاصالة .

أما النصيرية في شمال سورية وجبل الانصارية فتكون جماعة انفصالية هامة يعتبرها الكتاب العرب من الاسماعيلية ، وهم في الواقع يؤمنـون ببعض عقائد الاسماعيلية لكن اصلهم على اية حال غير معروف . واذا أمكن اجراء بحث محلي في مناطق النصيرية فان ذلك سيثبت دون شك وجود بطانة وثنية كما أشار الى ذلك دسو dassaud . وهم يعتقدون نظرية الفيض الالهي الذي حل في سلم متدرج من الناس على رأسهم علي . وامتازت النصيرية بوجود ثلاث مراحل يمر بها معتنق الدعوة ، كما امتازت بمراسيم خاصة بها .

ان الفرق الاسلامية الثلاث الكبرى والطوائف التي ترعرعت معها تميزت جميعا بطابع سياسي ، ولم تفترق الا بسبب الامامة . يؤمن الخوارج بان الحكم للمؤمن الذي تعتقد الجماعة الاسلامية بأحقيته ، بينما تعتقد الشيعة بوراثة الحكم في ذرية علي الذين يتمتعون بايثار الهي خاص ، في حين ترى السنة ان الحكم سلطة منحها الله لقبيلة قريش ويجب الا يخرج عنها .

ان حركة التصوف بعيدة بالمرة عن مجال السياسة . وقد ظهرت في الاسلام كنتيجة للتطور التلقائي لبعض العقائـد القرآنية ، ذلك التطور الذي غذاه الجو الاجتماعي في القرن الثامن الميلادي . أما عن القواعـد الواجب اتباعها في الحياة العملية ، فان القرآن أوصى الناس باتباع طريق وسط متوازن بين الزهد والاسراف في اللذة ، وهو الطريق الذى حاولت التعاليم فيما بعد ان تجعله صفة بارزة للنبي . واتبع الفاتحون من المسلمين بصورة طبيعية ما امرهم به دينهم من التمتع دون تهيب بالثروات الهائلة التي انهالت عليهم بشكل غير متوقع . وتشير بعض الاحاديث الى ان محمداً (ص) قد اثر عنه تذوقه للعطور الذكية والثياب البديعة والاسلحه الفاخرة والخيول المطهمة والطعام الشهي . هذا جانب لحياة الرسول ، أما الجانب الاخر فيظهر لنا عسر الرسول وهو يقاسي الجوع ويمارس القصد الى ابعد الحـدود على الدوام ، غير عابيء باية متعة عدا ما أحل الله له من النساء . ازاء هذا الوضع ظهرت أحاديث معارضة لهذه النزعة دعت الاتقياء الى التمرد على الثراء الفاضح الذي تمتـع به بعض الصحابة واعقابهم ، فوقفوا ضد جشعهم وحبهم للترف الذي نهى الله عنه . الا انه وجد في سورية ومصر رهبان من النصارى كانوا أمثلة للزهـد ، وحين دخلت الاتجاهات البوذية الى العالم الاسلامي في العهد العباسي أخذت تساعد على نشر نزعة الزهد والتصوف . وتكونت منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) جماعات المتصوفـة في الكوفة والبصرة التي ترتبط باسم حسن البصري (توفي سنة ٧٢٠ م = ١٠٢ هـ) . أما المحاسبي (توفي سنة ٨٣٧ م = ٢٢٣ هـ) الذي وصلتنا تعاليمه برمتها فقد كان شيخ المتصوفة في بغداد . ولم يعد التصوف مجرد زهد لذات الزهد،

بل أصبح وسيلة لقطع جميع العلائق التي تصل النفس بالعالم لتيسير السبيل أمامها كيما تبلغ الذات الالهية .

واتخذ الزهاد لباسا من الصوف الابيض كرمز للبساطة والطهر ومنه اشتق اسمهم فيما بعد .

لم يلاق الصوفية طريقا ميسراً أمامهم لبث معتقداتهم بل لاقوا مقاومة من جانب الاحزاب السياسية - الدينية المتعاقبة التي حكمت الجماعة الاسلامية . وكيما ينجز الصوفية رغبتهم في تطهير نفوسهم ، ويحققوا أمانيهم في حب الله ، جانبوا الفرائض المألوفة التي شرعها القرآن والسنة ، كيما يطبقوا طرائقهم الشخصية في ممارسة الزهد والذهول ؛ وقد عارضت فردية الصوفية هذه عقائد الشيعة بصورة خاصة ، لان هؤلاء اعتبروا تدخل امامهم في مساعدة المؤمن وهو يحاول التقرب الى الله أمراً لازما . اما الخوارج فوجدوا التصوف مناقضا للاداء الصحيح للفرائض الدينية ، وبالتالي فهو يعارض الصفات التي يجب ان يتحلى بها المؤمن الحق . في حين كان علماء السنة اقل عداء للمتصوفة في الظاهر وان ابطنوا لهم الحقد والكراهية ؛ بينما برر المعتزلة موقفهم تجاه الصوفية باسباب منطقية . هكذا تعرض وضع الصوفية في الجماعة الاسلامية الى كثير من الاتفاقات والصدف بحسب مايثيره أي صوفي من انتباه الناس اليه وبحسب مايكون عليه مزاج واهتمام ولاة الامر في حينه . وبقي الحال كذلك حتى جاء الغزالي فوفق بين التصوف والسنة وذلك بادماج التصوف في اطار العقائد المتبعة ، والزام معتنقي التصوف بمراعاة الفرائض الدينية . كما لطف الغزالي من صرامة الفرائض الدينية ، التي يصعب القول بروحانيتها لمجرد النية وذلك باضفائه عليها انوار الحب الالهي ، كما اضفى حياة جديدة على الفرائض الواجبة

التي كادت ان تصبح آلية انذاك . ولم يذهب بحثا تأليف « احياء علوم الدين » الذي كتب ببيان ادبي رائع قل له مثيل في النثر العربي.

كان للجماعات الصوفية في الشرق كما في الغرب ، زواياهم وتكاياهم التي مارسوا فيها شعائرهم الروحية من المواعظ التقية وتلاوة القرآن والاوراد المصحوبة بالموسيقي والغناء« اوالسماع » ، الى حلقات الذكر وصور التعذيب الوحشي للبدن . وفي القرن الثالث عشرم (السابع هـ) حوى الشرق عـدداً عديدا من الربط والخوانق والزوايا حيث يجري التعليم ويتدرب المريدون .

اننا لا نستطيع ان نوجز ماضي الصوفية وحاضرها في المامـة بسيطة ، فالتدخلات السياسية لبعض جماعات الاخوان من الصوفية وشعوذات آخرين ادت الى اطلاق احكام مرتجلة لا تمت تفكير العامة الضيق ؛ ومن هنا اقترنت الصوفيـة لدى هـؤلاء بصور الدراويش الحواة « والعيسوية » . وكما ان التأثير المقلق للتمارين المولدة للذهول الصوفي على ثبات ورصانة العقل الانساني ، تلك التمارين التي قصدمنها ان يبلغ المتصوف عن طريق شدة شوقه وتواضعه العميق مرحلة الاتحاد بالله . كما انهم المتصوفة ايضا بان « الانا » في تشربها للكل الجليل [الله] تكون اقرب الى فقـدان ذاتها في نوع من التضخم هو السبب الاساسي لاعم حالات المس . لكن تصوير الصوفية بهذا الشكل يحرمنا من الاحاطة بما يلزم من مظاهر الصوفية ويجعلنا ننسى بان الارتفاع بالروح الى درجة معرفة الله بارغامها على التطهر قبل محاولتها الاتحاد بالكمال المطلق يجعل الصوفيـة تتخلص من المراسيم الالية التي لا ترضي الحس ولا العقل وبذلك تدفع الحياة الباطنية الى التحرر وتمنح الحياة الاخلاقية رونقا جديدا . ويمكن القول بان

الصوفية في عهودها السابقة انعشت الحياة الروحية للمسلمين الذين وجدوا بان مراسيم الدين الشكلية غدت كل شيء في الايمان ، مما اخمد صوت الضمير ، كما حزن المسلمون من ناحية اخرى لتفشي وثنية تقديس الاولياء . وسترانا عائدين الى طرق موضوع الصوفية فيما بعد حين نتناول الحديث عن هذا التقديس .

ويبدو من المعقول ان نربط ، الى حد ما ، بين النزعة الصوفية ومحاولات نمو النزعة التوفيقية التي قامت بين المسلمين في فترة متأخرة ، والتي لا قيمة لها الا اذا اعتبرناها جهدا مخلصا لتوحيد جميع الناس من ذوي الارادة الطيبة في حركة عامة صحيحة متوجهة نحو الله . ولا شك ان المحاولة الخائبة التي قام بها في القرن السابع عشر الميلادي السلطان الفذ « اكبر » الامبراطور المغولي لم تترك لها اثرا حيا في الهند . ويلزمنا ان نلاحظ ان النزعات الاسلامية في الهند الحديثة لا ترجع الى هذا الامبراطور وان كانت جهوده لم تذهب جميعها سدى لا سيما وان غيره من المصلحين الدينيين اقتدوا باعماله .

لقد ركدت الشيعية الفارسية ، شأنها شأن المذهب السني ، في صيغ ثابتة وانحصرت في نطاق حياة عقلية لرجال الدين تتصف بالضيق والالية معا هم طبقة « الملائية » : وقد اصاب المذهب الشيعي في القرن الماضي لطمة عنيفة تركته ضعيفا لزمن غير قصير . وظهر فرد مثقف ملهم هو الميرزا محمد علي ادعى بانه يجمع في شخصه علامات الامام المختفي والنسمة الالهية في آن واحد : واعلن انه هو « الباب » الذي يفتح عن انسانية كاملة . وقد اشاح بوجهه عن الاتجاه التقليدي للاسلام ولم يفكر بالرجوع الى المبادىء الاسلامية

القديمة ، بل هدف الى مبادىء جديدة ؛ ولما كان المرزا قد اشرب العقيدة الاسماعيلية التي لم تعر الفرائض الدينية الا اعتبارا قليلا وكان مستنداً تارة الى النزعة العقلية وطوراً الى نزعة صوفيـة فانه توقع للاسلام مستقبلا تتابع فيه الدلائل الالهية على الظهور وتحمل كل منها بحسب رأيه أحدث ما كشف عن عالم الغيب . ومع ما كان للباب من لاهوت غامض فاننا نجد عنده نظاما أخلاقيا عمليا قد يكون أكثر ثباتا مما هـو في الاسلام ، ادعى بانه يتطور بالتضامن بين أفراد العائلة ويزيد في استقرارها الخلقي ، وذلك بتحقيقه استقلال المرأة كما تجرأ على دخول معترك الحياة السياسية كمعارض صلب للطبقات الحاكمة في ايران . وقد ألقت به طبقة « الملائية » في غيابة السجن وعذب سنة ١٨٥٠ م مما أكسبه صفة العظمة وأدى الى تقوية دعوتـه ونجاحها . لكن أعوانه انشقوا على أنفسهم بعد موته : فالجماعـة التي التفت حول « صبحي أزل » استطاعت وحدها أن تحتفظ بافكار الاستاذ وتصونها . ويبدو من الصعب علينا أن نقدر التأثير الفعلي لهذا الفرع من البابية من على التطور الديني لايران . أما البابيون الاخرون فقـد ساروا في السبيل الذي وجههم نحوه بهاء الله ، الذي قام بدور المصلح والنبي ، وقد انتشرت تعاليمه في مؤلفات ترجمت الى عدد كبير من اللغات الاوربية : ونحل هذه التعاليم إما محل القرآن أو محل تعاليم الرسول وصحبه . والبهائيـة في هذه الصورة الاخيرة لم تلاق فيما يبدو سوى نجاح وسط في الشرق ، مع العلم انها بلغت امريكا في

دعوتها . واتخذت البهائية شكل عقيدة مركبة يظهر انه سام في تكوينها جميع الاديان البشرية الكبرى ، كما يظهر انها عقيدة تجاهد في عدم « تثبيط » النزعة العقلية للعلم الحديث من ناحية وعدم « تثبيط » النزعات الصوفية لبعض الجمعيات المعاصرة من ناحية أخرى .

ومن الجدير بالذكر انه يلزمنا الا نبالغ في الاعتقاد بوجود الجمود الروحي الذي ظهر في العالم الاسلامي حتى القرن الماضى ، فدراسة الفقه واللاهوت لم ينقطع عن مواصلتها أشخاص وجماعات ذووا وجدان وتيقظ ، ولم يخل بعضهم في نفس الوقت من عقول بلغت مراتب عالية من الكمال . لقد تمسك ابن تيمية الذي توفي سنة ١٣٢٨م (٧٢٩هـ) تمسكا شديدا بالمذهب الحنبلي ، الذي يحمل احتراما بالغا للقرآن والسنة . وقد فكر ابن تيمية انه وجد فى هذا المذهب الحل المباشر والبديهي لجميع تلك المسائل التى استصعب الاجابة عليها أهل « الكلام » الجدليون الذين استخدموا التفكير المنطقي والاستدلال العقلي في حل المسائل . كما انه بلور فكرته واكملها بعنايته الواضحة بمصالح الجماعة الاسلامية ، ومن هنا قال « بالمصلحة » ناظراً إليها على انها محاطة بنوع من العناية الالهية العملية . وقد وقف موقف المعارضة الشديدة من تقديس الاولياء . وفى نهاية القرن الثامن عشر قلد هذه الاراء شيخ من نجد هو محمد بن عبد الوهاب الذي بشر بالرجوع الى الدين كما كان في صدر الاسلام ، ودعى الى قمع كل البدع التي جاءت بعد ذلك ، ونبذ جميع تلك الفرائض الجاهلية التي لم يقو الزمن على ازالتها . وقد أكد بصورة خاصة معارضته لتقديس الاولياء ،

وانا نشاهد ان الوهابية حين اجتازت حدود نجد ومنطقة الخليج الفارسي اجتاحت بشدة مكة والمدينة وحطمت كل آثار التقديس التي أضفيت على الرسول وآله . ولم يقف هؤلاء المصلحين عند حدهم الا تدخل الجيوش المصرية ، أولئك المصلحين الذين قدر لهم فيما بعد أن يسودوا بلاد العرب في القرن العشرين .

المصادر

Goldziher, Dogme et loi de l' Islam ; Nyberg, mo' tazila; Wensinck, Murdjiya; Massignon, Carmates; Nocairis; tassawwuf; tariqa; Strothmann, shia.

الفصل الرابع

العقيدة الاسلامية

الاسلام والكفر . وحدانية الله . الملائكة ، الشياطين ، الجن . الانبياء . البعث . يوم الحساب . الجنة . النار . تقديس الأولياء . الاخوات .

ان العقيدة الاسلامية التي نجد مبادئها في القرآن قد تكونت في عدة عصور على يد علماء المسلمين في صورة فتاو تعتبر بمثابة أجوبة على مسائل آنية تحدث بين الفينة والفينة للجماعة الاسلامية ، وهذه الفتاوى لا تخرج عما جاء به القرآن والسنة . وهي مع ذلك لا تخلو من اختيار ناتج عن الاجتهاد الشخصي « الرأي » من أجل تفسير قضية أو حكم عليها . وهكذا لا يستغرب أن تكون العقائد المتأتية من هذه الاحكام تختلف الواحدة منها عن الاخرى بحسب زمانها وبحسب الميول الشخصية للقائلين بها . وأول محاولة لجمع هذه الاحكام نجدها في محاولة جمع الحديث ، ثم في الفقه المنسوب الى أبي حنيفة وأخيراً في « العقائد النسفية » للنسفي المتوفي سنة ١١٤٢ م (٥٣٧

هـ) (١) أما الاحكام التي وضعها الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين» فقد عمل على محاكاتها من جاء بعده.

يدعي معتنق الدين في القرآن المؤمن أو المسلم دون ما تمييز بين التعبيرين. ويضيف القرآن الى كلمتي الايمان والاسلام كلمة البر (سورة البقرة آية ١٧٧) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين واتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة واتي الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) وقد تناول حديث من أحاديث الرسول ما في هذه الآية فجمع في صيغة واحدة كل ما فرض على المؤمن من فرائض وأعمال. وهناك حديث آخر يبدو انه يميز بين الايمان والاسلام ويقرر ان الايمان هو اعتقاد بالله وملائكته وكتابه والتوجه اليه والاعتقاد برسله وبالبعث ؛ وهذا تعداد لا يخلو من غموض. بينما الاسلام هو عبادة الله دون شريك واقامة الصلاة وايتاء الزكاة المشروعة وصيام شهر رمضان. ويمكن ان نستنتج من هذا ان المؤمن هو الذي يؤمن بالعقائد والمسلم هو الذي يقوم باداء الاعمال التي تؤكد هذه العقائد. لكنه ليس هناك في الحقيقة شيء هام في هذا التمييز الظاهر وهذا ما يجب أن نتذكره. ولقد كان الغزالي هو الذي أوجب على المسلم تطهير القلب الذي أعتقد انه يمنع

---

(١) النسفي: عمر بن محمد (٤٦١ ـ ٥٣٧ هـ) أحد الائمة المشهورين بالحفظ الوافر، وكان أصولياً متكلماً مفسراً محدثاً فقيهاً، صنف قريباً من مائة مصنف وله كتاب «العقائد النسفية» في علم التوحيد.

حياة جديدة للفرائض الاسلامية . ولن نعير اهتماما الى التمييز بين الايمان والاسلام فيما سيأتي من شرح .

وفي عهد مبكر من الاسلام أقامت العقيدة الايمان على أساس من التأليف بين ثلاثة عناصر : تصديق داخلي أو معرفة عميقة تكتسب بالوحي النبوي أو باستخدام العقل ، وشهادة باللسان ، وأداء الفرائض الاساسية للمسلم وهي العمل بالاركان . وهذه العناصر الثلاثة هي التي صاغتها العقيدة الاولى بالشكل التالي : تصديق واقرار وأعمال .

ومسألة الاعمال أو فرائض الدين بالنسبة للايمان مسألة كبرى في الاسلام كما هي في المسيحية . وقد أشرنا سابقاً ان المسلمين ناقشوا موقف المسلم الذي لا يؤدي الفرائض وهو في نظر المعتزلة والاشعرية فاسق في حين « علق » المرجئة أمره الى الله ليحكم فيه يوم الحساب ، بينما أعلن الخوارج بانه كافر . لا يصبح المؤمن عند المرجئة كافراً اذا ارتكب الكبائر ، مادام عمل الحسنات لا يجعل من الكافر الا منافقا . والمفتاح العملي في العقيدة العامة هو ان الذي يقيم الصلاة مولياً وجهه شطر القبلة يعتبر مؤمناً ، بينما تارك الصلاة يعتبر كافراً . وهذا الاخير هو الذي يطلق على غير المؤمنين عامة وهم الكفار وبكلمة أدق المشركون الذين يجعلون مع الله الهاً آخر .

ان العقيدة الاساسية هي وحدانية الله ويقر القرآن ان الله لم يلد ولم يولد . وهذا هو فيما يعتقد المعنى الجاري الذي يعطيه الاسلام لكلمة التوحيد . ولكن حينما حاول الاسلام ان يعالج صفات الله ، أي أن يتبين الدلالة التي يجب ان تمنح لمواهب الله الخاصة بالمعرفة والعمل

والسمع والبصر .. الخ ، وحينما بحث العلاقة بين ذاته وصفاته . فهم العلماء ان اعطاء قيمة مستقلة لصفات الله يحدد بعض الشيء من فكرة وحدانيته . لذا قالوا ان صفات الله لا يمكن ان تكون الا معتمدة على ذاته ؛ وبهذا المعنى يجب ان نفهم التوحيد في عقيدة الموحدين .

ان الله خالق الكون ، وقد خلقه في ستة أيام ولم يسترح في اليوم السابع (سورة ٤٠ آية ٣٧) ، وقد خلق الله من دخان يملأ الفضاء المياه والارض والجبال والكائنات الحية وأخيراً خلق آدم في يوم الجمعة . وهناك سبع سموات وسبع أرضين كما ان هناك سبع مناطق في الجنة وسبع أخرى في النار . ولا نجد في الحديث تفاصيل عن الخلق ؛ الا ان بين الاخبار الكثيرة المروية التي تدعي تفسير العالم نلاحظ شيوع الروايه التالية : خلق الله ملكا يحمل الارض على كتفيه القويتين ؛ قدماه مثبتتان على ياقوتة تحملها قرنا ثور ينتصب على سمكة بهموت تسبح في أوقيانوس يشرف على جهة لا يمكن العلم بها ، والملائكة وهي من خلق الله ليست بالذكور ولا بالاناث خلقت من نور ، وهي في منزلة أدنى من منزلة الانبيـاء ، مادام هؤلاء يكتسبون ميزة خاصة كنتيجة للصراع الذي عليهم ان يقوموا به ضد الطبيعة البشرية . وعلى رأس الملائكة أربعة عظام مقربون هم جبريل حامل وحي الله الذي يدعوه القرآن بروح القدس ، وميكائيل الذي يرعى نظام الطبيعـة وحياتها ، واسرافيل الذي سينفخ في الصور يوم الحساب ، وعزرائيل ملك الموت الذي يقبض الروح من أفواه المحتضرين .

ان الملائكة يراقبون البشر : فهناك الحافظان والكاتبان اللذان يسجلان الحسنات والسيئات : وهناك شك فيما اذا كان هؤلاء الملائكة

تختلف اشخاصهم أو أنهم هم أنفسهم يقومون بوظائف مختلفة . أما الحافظان،في الليل فيحل محلهما عند شروق الشمس آخران وهكذا الامر عند غروبها : وهنا لحظتان يتعرض فيهما المؤمن الى الخطر ، وعليه أن يحذر خلالهما من اغواء ابليس واتباعه ، وكذلك عدم تمييز بين الملكين الكاتبين وبين ملكي القبر منكر ونكير . أما الجنة فيحرسها الملك رضوان وأما النار فيحرسها مالك .

تتجول الشياطين حول الارض وفي السموات الدنيا وتعمل على مباغتة أسرار الملائكة على حدود السماء السابعة . تعمل الملائكة على طرد الشياطين باستمرار برجمها بحجارة تتمثل بالشهب ، وعمل الملائكة هذا هو شبيه بما يعمله الحجيج اذ يرجمون جمرة منى مقلدين بذلك ابراهيم الذي تقول عنه الاخبار أنه طرد الشيطان الى منى برجمه بالحجارة ومن هنا لقب الشيطان « بالرجيم » : ويلاحظ أن معنى كل هذه المعتقدات المختلفة لا زال غير معين .

يحمل جيش ابليس من الشياطين أسماء متنوعة هي : جني ، شيطان ، عفريت ، مارد ، (عاص) . وقد خلقت هذه الشياطين قبل الانسان من نار : وهي ما بين ذكور وأناث ويستطيع جميعها الاتحاد بالبشر . وبعضها مسلم لكن القسم الاكبر منها عدو للانسانية والاسلام . والاعتقاد الشائع الخاص بتقديس الاولياء والذي تطور كثيراً كما سنبين ذلك فيما بعد ، قد ملأ العالم كذلك بالجن المقسمين في سبعة جيوش لكل قائده وواجباته والبقعة التي يحل فيها ؛ ويهاب الانسان من كل من هؤلاء طريقته الخاصة في مهاجمته ، وان استطاع الانسان في نفس الوقت ان يدافع عن نفسه ضد كل

طائفة من هذه الطوائف .

ان ابليس رأس الشياطين كان الملاك الاثير عند الله ، وقد أرسله لمحاربة الجن المارقين على وجه الارض . وعند ماخلق الله آدم امتحن اخلاص الملائكة بان أمرهم بالسجود لآخر خلقه . فأطاع الجميع سوى أبليس الذي أبى واستكبر بسبب علو عنصره . ولما طرد من الجنة انتقم أبليس لنفسه باغواء حواء الذي أدى الى اقصائها وزوجها من الجنة . واستمر أبليس فى حياة هذا العالم كوسوس للانسانية وعامل على اغوائها ؛ وقد تأثرت المعتقدات القرآنية بعد القرآن الذي تابع الحكايات والقصص اليهودية والمسيحية بالذكريات المجوسية فاضفيت أهمية جديدة على الشيطان « أبليس » .

يجب على المسلم أن يعتقد برسل الله وبكتبه التى هي مظهر رسالتهم . وبعد هبوط آدم غفر الله له وأحل فيه نوره الالهي الذي انتقل من نبي الى آخر حتى استقر فى محمد . وترى الشيعة ان هذا النور انتقل من الرسول الى أئمتهم من ذرية علي الواحد بعد الاخر . ان آدم هو أول الأنبياء الذين يكونون سلسلة موصولة الحلقات . والأنبياء أفراد من البشر تميزوا بفضائل أساسية معينة : كالصدق والعقل وغيرها . كما انهم معصومون عن الكبائر ، ويتصفون عادة بالقدرة علي اتيان المعجزات . ويختلف المفكرون الدينيون في عدد الأنبياء ؛ لكنهم تعارفوا على أن الذين جاءوا بكتب منزلة يبلغ عددهم مئة وثلاثة عشر نبياً ، وان كان معظم هذه الكتب قد ضاع : والانبياء الستة الرئيسيون هم آدم ونوح وابراهيم وموسى الذي جاء بالتوراة وعيسى صاحب الأنجيل وخاتمهم محمد (ص) وهو أعظمهم جميعا . ومع ان هناك حديثا واحداً ظاهر الصحة بقرران محمداً لم يؤت موهبة صنع

المعجزات ولم تكن له غير معجزة واحدة فاقت جميع المعجزات الاخرى وهي القرآن الموحى به اليه ، فان اعتقاداً شعبياً شائعاً ينسب اليه معجزات صغرى كمعجزة شق القمر بصورة خاصة .

ان الكتب التي جاء بها الانبياء القدامى الى الامم لا تختلف عن القرآن ، وهذه الكتب تقدمت بقوانين تحتم على عباد الله طاعتها ، لكن اليهود والنصارى حرفوا ما انزل اليهم من كتب . فجاء القرآن واحيا الاصل الحقيقي للوحي لآخر مرة قبل قيام الساعة ، ومن هنا كان محمد خاتم النبيين .

ونجمل القول ان العقيدة الاسلامية تقر بالبعث وبيوم الحساب والاتجاهات المتعاقبة في اليهودية التي روجت الاعتقاد بعقاب على الارض ينال الاشرار أو بعقاب بعد الموت مباشرة أو بحساب عام عند نهاية الزمان ، هذه الاتجاهات أدت الى وجود الاعتقاد الشائع في الاسلام الخاص بقبول فكرة العقاب في القبر . ويروي القرآن على سبيل التذكرة النوائب التي أهلكت قوم عاد وثمود ؛ كما أسهب الحديث كذلك في ذكر عذاب القبر . فما يكاد يتلاشى وقع خطوات أولئك الذين أوسدوا الميت التراب حتى يزوره ملكان مرعبان هما منكر ونكير اللذان يسألانه « من هو ربك ؟ » فاذا أجاب بالشهادة الاسلامية التي تكررت اعادتها بجانبه عند موته والتي يجب أن تكون آخر كلماته ، تركه الملكان برفق وفتحا له بابا يستطيع أن يرى من خلاله موضعه في الجنة . أما اذا لم يجب أو أجاب خطأ ضربه الملكان بأعمدة من حديد في قبره وفتحا له بابا يرى من خلاله مقعده من النار .

هذا الاعتقاد أدى الى قيام عادة في مصر وغيرها برثها أحاديث

دوث ان الرسول خاطب الموتى : مؤداها انه يقترب رجل معروف بتقواه من اللحد المفتوح ، ويعلم الميت الجواب الذي يجب أن يقوله للملكين .

ويبقى الموتى في قبورهم حتى يوم الحساب ، ما عدا الانبياء والشهداء الذين ينقلون أثر موتهم مباشرة ، أما الى الجنة نفسها أو الى محل وسط هو الاعراف .

إن يوم الحساب سيزدحم بالاحداث المروعة . أولها اضطراب شؤون المجتمع الانساني : وسينمحي الايمان ، ويسود الارض الشر والعنف والحرب ، ويتولى الحكم أراذل الناس ... الخ . وفي هذه الاثناء سيبعث المهدي الذي سيملأ الارض عدلا بعد أن ملئت ظلماً وجوراً . وهو مؤيد بهداية الله ووارث كافة تعاليم الشرق الخاصة بظهور منقذ للانسانية . وقد ظهر هذا المهدى فعلا عدة مرات في بقاع العالم الاسلامي لكنه فشل في كل مرة لأنه لم يكن المهدي الحقيقي المنتظر عند المسلمين .

وسيقوم المسيح الدجال ما بين العراق وسورية وهو أعور شنيع المنظر يحمل على جبينه حروفاً تنبيء عن الكفر ، كما سيركب حماراً ويتبعه سبعون ألفاً من يهود اصفهان . كذلك سيأتي من وسط آسية أقوام أشداء هم اهل يأجوج ومأجوج . وبعد ان يشربوا بحيرة الناصرة يسيرون قدما الى بيت المقدس .

أما المسيح الذي ينزل من السماء ، فسيظهر في احد مساجد دمشق عند صلاة الظهر في الزاوية الغربية من المأذنة الشرقية ، وسيعطيه الامام محله ليصلي هو بالناس ، ثم يذبح الدجال عند أبواب الله ، ويطلب المسيح من الله هلاك يأجوج ومأجوج . وسيتزوج وينجب

أطفالا ويحكم الارض مدة اربعين عاما ينشر فيها السلام والامن بين البشر والوحش ..

إننا لنشعر بشيء من التيه وسط هذه الاحداث التي تجمعت من مصادر شتى والتي هي في نفس الوقت غير معينة في نظر التاريخ . ولا ندري أين نجعل موضع ظهور الوحش ، والدخان الكثيف الذي سيغطي الارض لمدة اربعين يوما ، ودمار الكعبة وشروق الشمس من المغرب . علاوة على ما تقدم ، تمثل هذه الاحداث تجمع روايات قديمة لم يقر الدين بها جميعا . وقد نبذها الغزالي ، وان كانت يراعته قد صاغت مشاهد الاحداث المقبلة بروح شعري وأسلوب فياض .

وفي النهاية سينفخ اسرافيل ملك يوم الحساب في الصور (نفخ الفزع) فتهلك كل الكائنات وتبقى في البرزخ في حالة بين الموت والحياة مدة أربعين عاما . ويهطل المطر فيحيي موات الارض ويستمر حتى النفخة الثانية في الصور « نفخ البعث » فتعود جميع الكائنات الى الحياة ، وهذا هو نشر يوم القيامة . وسينتظر الناس والحيوان كذلك دون شك ساعة الحساب في بقعة من الارض هيأها الله لهذا الغرض ربما تكون في بيت المقدس ، وسيكون الجميع من البشر والوحش عراة تصليهم الشمس بوقدتها وينصب العرق من أجسادهم بغزارة فيكون بحيرات واسعة ، وهم يقفون منتصبين ينتظرون بقلق حكم الله فيهم . وآخر الامر يعطى الملائكة لكل كتابه الذي كتبت فيه حسناته وسيئاته ، ويحمل الابرار كتابهم بيمينهم والاشرار بشمالهم ويمثل الانسان بعدئذ بين يدي الله الذي يأمر بوزن اعماله بالميزان « ق : س ٢١ : ٤٨ » وذلك بعد اتمام حسابه . وستبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين « ق : س ٣ ، ١٠٢ » . وفي هذه

اللحظة يشفع الرسول فيقبل الله شفاعته عن الجماعة الاسلامية .
وبعد الحساب يسير الناس جميعاً على الصراط وهو معبر أدق من الشعرة وأحد من السيف . فيجتازه الصالحون بسرعة البرق ، أما الذين حقت عليهم اللعنة فسيهوون الى قرار الجحيم .
فاذا نهل السعداء من حوض النبي ، دخلوا الجنة التي قسمتها الاخبار الى عدة مناطق ، منها الفردوس التي ورد ذكرها في القرآن. وصف القرآن الجنة باسهاب ، ووصف حياة المكرمين وكيف يستمتعون بها ، وقد أضاف الحديث اوصافا اخرى . ومنذ بداية الدعوة الاسلامية يبدو ان الجنة كانت هي الموضع الذي يحلم به اناس عاشوا في ارض قاحلة والفوا حياة بدوية شحيحة ، ويكرر القرآن اسم الرياض والجنات المرة بعد المرة (ق : س ٧٦ ، ١٢ - س ١٨ ، ٣٠ - س ١٠ ، ٩ - س ٤٤ ، ٦٠ - س ٢ ، ٦٨ الخ ...) وفيها جميعا تجري الانهار من كل جانب وتتدفق من ماء سلسبيل وانهار من لبن واخرى من خمر (ق : س ٤٧ ، ١٦) وانهار من عسل « ق : س ٤٧ ، ١٧ » (١) تترقرق في الظلال الكثيفة للاشجار الوارفة (ق : س ٤ ، ٦٠) ، والقرآن الكريم يسمي ثلاثة من الاحواض هي الكوثر وعينان اخريان تنبعان من تحت عرش الله هما الزنجبيل والسلسبيل (ق : س ٧٦ ، ١٧) . وقد نشر الحديث بين جمهور المسلمين عظمة الشجرة « طوبى » التي تنشر وارف ظلالها الى مدى بعيد : وهذه الشجرة لها ذكر في القصص القديم ، وقد اشار اليها القرآن في

(١) يعطي المؤلف للسور والايات أرقاما لا تطابق أحيانا طبعات القرآن المتوفرة لدينا ، ويبدو أنه اعتمد على طبعة خاصة مع العلم ان ترقيم آيات القرآن ليس واحداً في جميع الطبعات .

سورة الرعد (٢٩) ويتكىء المسلمون على الارائك وسط خيام فاخرة لمدة طويلة (ق : س ٧٦ ، ١٣) ، ويكتسي اهل الجنة ثيابا زاهية ، وقد حلوا باساور [من فضة] ومن كريم الاحجار ، ويطعمون شهي اللحم ولذيذ الفاكهة (ق : س ٥٢ ، ٢٢) ، وقطوف الجنة من الاعناب والنخيل دانية على المؤمنين (ق : س ٧٦ ، ١٤) «كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية» (ق : س ٥٢ ، ١٩) ويسقيهم ربهم من شراب طهور لا يصيب شاربيه بأذى (ق : س ٧٦ ، ٢١) ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً يسقونهم بكأس يمتزج شرابها بماء الزنجبيل (ق : س ٧٦ ، ١٩ — س ٥٢ ، ٢٤) . اما ما يتصل بالازواج المطهرين فان الحديث فصل ما ورد في القرآن على سبيل الاشارة العابرة تفصيلا وافيا : وهؤلاء مطهرون بمعنى خلوهم من اي نقص يصيب البدن البشري . اما الحور العين في عيونهن حور اخاذ بلمعان سواده وبياضه (ق : س ٥٢ ، ٢٠) ، وهن حور مقصورات في الخيام .

والمؤمنين الذين يرغبون بانجاب الاطفال ان يتمتعوا بهذه النعمة ، وهناك لفتة تشير الى حب العرب لصغارهم وعجبهم بأبوتهم وستكون تربيتهم ميسرة وسريعة كولادتهم .

إن السكن المثالي عندالبدو المتحرقين الى الظلال الوارفة والمياه الجارية غير الآسنة والى الثياب الزاهيـــة والحلى البراقة والعطور والنساء ، كل هذا تملك مخيلة المسلمين في اثني عشر قرنا (كذا) ويجب ان لا تفوتنا حقيقة هي ان المغريات التي قدمها القرآن بهذه الصورة يجب ألا ندهش لبساطتها لانهـــا كانت مطلوبة في بيئتها الاولى كما نجدها في التعاليم المسيحية التي ورد ذكرها في القرآن

كثيراً . إلا ان مثل هذه المتع لم تكف ذوي النفوس المرهفة المثالية من المسلمين الذين لم تأسرهم كليا هذه الامور المادية الرتيبة التى وعدبها الدين الحنيف : بل طمحوا الى بركة رؤية وجه الله .

اما جهنم التي دعاها القرآن بالنار غالبا فتتكون بحسب كلام المفسرين من سبعة اقسام وضعوا لها اسماء لم ترد واضحة التسلسل في القرآن . وارفع الاقسام هو جهنم التي سيعاقب فيها المسلمون الذين اذنبوا عقابا محدود الامد ، اما الاقسام الاخرى فقد حفظت لليهود والنصارى والصابئة والمجوس والوثنيين واخيراً المنافقين وادعياء النبوة الذين خاصمهم الرسول في المدينة . ولم تعطنا المأثورات الاسلامية والاخبار المتواترة فكرة واضحة عما يقوله القرآن عن صنوف العذاب التى سيسامها اهل جهنم : إلا انهم سوف يقاسون ظمأ قاتلا يدفعهم الى ارواثه بشرب الحميم ، وسيتناولون من قعر آبار الجحيم قطرانا وقاراً مذابا (ق : س ٤٧ ، ١٧ — س ١٤ ، ٢١) ، وستجف جلودهم وتصلى وجوههم النار الخ .. والقصص الاسلامية التى تعالج موضوع جهنم ليست جديدة ، بل هي كالقصص المسيحية ذات اصول في الكتب اليهودية . وقد اشرنا الى ان الآثمين من المسلمين ان يخلدوا في جهنم التى ستنمحي آثارها يوما ما ، بل يعتقد بعض علماء الدين ان النار كلها ستزول وليست جهنم وحدها .

إن المؤمن ينتظر دون شك بطمأنينة وثقة نيل ثوابه من لدن رب عادل ، وهولا يعلم ما اذا كان جزاء افعاله سيغير في مصيره الذي قدر له من قبل . ان الله من السمو والبعد واللا تشخص بحيث ان المؤمن ليس متأكداً على الدوام ان دعاءه الذي يوجهه اليه في صلاته اليومية سيجاب . وقد كانت الآلهة في الجاهلية ضعيفة إلا

انها قريبة ، ولذا كان الفرد متأكداً من سماعها دعوته إن لم يكن متأكداً من اجابتها رغباته . وقد شعر المسلمون كالنصارى بسعادة نتيجة ان إلههم المألوف لديهم كان قادراً على التجلي لهم من وراء حجاب والاصغاء الى رغائبهم وان كان القرآن لا يشير الى مثل هذا التجلي ، وقد حل الاولياء محل الالهة القدماء .

يحتل تقديس الاولياء مكانا مرموقا في حياة المسلمين . وهو من بقايا الطقوس التي يحاول فيها الانسان ان يكسب قوى الطبيعة المتجبرة الى جانبه ، بسبب ما يشعر به من ضعف بدني وقوة عقلية في آن واحد ، وحافظت العقائد الشعبية على هـــذه الطقوس فى الاديان المنظمة الكبرى التي رمزت الى هذه القوي الطبيعية بماهيـــة فردية ذات طبيعة ميتافيزيقية [مجردة] عليا من شأنها أن تكون بعيدة وعالية جداً عن معبوداتها . ورغم ان اليهودية والمسيحية قربتا الى الانسان الهاً يرعاه ويحميه ، وجعلتا هذا الاله مألوفا وعينياً عن طريق الصور والتشبيهات ، إلا انهما لم تستطيعا تحاشي تقديس الاولياء ومخلفاتهم أكثر مما فعل الاسلام الذى حرم الصور والتماثيل على خلاف اليهودية والمسيحية . وتشغل أماكن الاولياء المسلمين المواقع التى كانت فيما مضى محلات مقدسة : كمنابع المياه والاشجار والاحجار وقمم التلال ، كل هذه اختيرت لتكون بيوتاً للالهة الوثنية القديمة ومقامات لاولياء اليهود والنصارى كذلك .

إن نمو تقديس الاولياء تعرض بطبيعة الحال لمؤثرات جغرافية واقتصادية : فلئن ساعد سيد المكان المقدس على رفاه البلدة التي ارتفع فيها الى مكانته هذه ، فانه استفاد في ذات الوقت من أهمية مكانته فى

حياة الامة . كما ان الاحداث السياسية من ناحيتها لم تكن دون أثر من ذلك ان مراكش بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) على يد أسبانية الكاثوليكية التي احتلت افريقية بنوع من رد الفعل بعد أن تخلصت من حكم المسلمين في ديارها «أسبانية» . فقام حينئذ في جميع أنحاء مراكش رجال أعلنوا بانهم قادرون على طرد الغزاة الكفرة بقدرة خارقة للطبيعة : وكانت لهم هذه القوة ، اما بسبب قرابتهم للرسول «وهم الشرفاء» واما لعلاقاتهم الروحية بولي شهير : وسوف نرجع كرة أخرى الى موضوع هؤلاء المدعوين في مراكش باسم المرابطين ، ومهما كان أصل الولي ، كان لديه البركة كخاصية أساسية ، والبركة نوع من الفيض المقدس وبها يمنح الولي مقدسيه السعادة وكل النعم الاخرى في عالمنا هذا . كما يستطيع أن يخلع نعمه لا على الفرد فقط بل على المقاطعة كلها أو قد تتجاوز هذا العالم الى العالم الآخر عن طريق شفاعته عند الله . وليس من الضروري أن تتدخل إرادة الولي لمنح البركة وجعلها نافذة ، بل يكفي حضور الولي والتمسح به لتعم البركة ؛ هكذا يعم فيض البركة ، ويستطيع حتى خدام الولي أنفسهم أن ينقلوا هذا الفيض . وفي حياة الولي تفيض البركة من بدنه ، وتبقى كذلك بعد موته ، لأن رفاته تملأ القبر بشكل معجز بالخير والبركة اللتين تتجاوزان الكفن وتتشربان الى التربة المحيطة بالرفاة . وأثر حماية الولي لغيره يتسع فيشمل مجالا واسعا . وهذا الاثر محلي في العادة ، ويعم مجموعة من القبائل أو منطقة جغرافية معينة . وحين يكون أحد القديسين كعبد القادر الجيلاني قد استطاع بقببه الكثيرة التي هي فوق الحصر أن يسود في جزء من العالم الاسلامي ، نجد ان تقديسه يتميز بخصائص عامة ، وإن كان

يظهر ان كل قبة من هذه القباب التي للولي الواحد تكون مقاما مستقلا وتشكل موضعا محليا لتقديس الولي. من ثمة يظهر ان الولي ذو صبغة إلهية مألوفة عند اتباعه، ويحتفل بعيده في مواعيد معينة منذ ازمان عريقة في القدم حددتها الظواهر الطبيعية «كموسم البذر والحصاد والجفاف ... الخ» حتى ان اصول هذه المواعيد غير معروفة تماما اليوم. وتقام أعظم الافراح عند ذكرى ميلاد الولي (المولد أو المولود). كما يسمى أيضا بالموسم وهذا تعبير مشوق، لأنه أطلق على الحج الى مكة [في الجاهلية] وفيه كانت تنحر الاضاحي على سبيل القرابين من المواليد الجدد لقطعان الماشية، كما كان يجري وسم صغار البهائم. وبمعنى جد مختلف نقلت هذه الكلمة الى الغرب فاشتقت منها الرياح الموسمية. ويجتمع الحجيج في مكان العبادة حيث يقيمون خيامهم ويعتلي الفرسان خيولهم ويزاحم المشاة بعضهم بعضا. وتقدم الاضاحي وتتلى صلوات خاصة ويمارس الجميع عبادة معينة ذات شعائر قديمة.

استطاع الرسول محمد بعد تطور بطيء في شخصيته: أن يحتل المقام الاول بين طائفة الاولياء. ويبدي لنا التراث الاسلامي ان الصحابة أجلت الرسول اجلالا يبلغ حد التقديس واعتبروه ذا بركة. انتشرت هذه الفكرة على مر الزمن: فكان محمد (ص) في نظرهم الانسان الكامل الذي يجب أن يكون القدوة لجميع المسلمين، ثم غدا بعد ذلك حامي المسلمين في هذه الحياة، حيث يظهر لهم فيها في الاحلام ويرعاهم بنصحه، كما سيفعل في العالم الآخر، حين يشفع لهم عند الله. وليس من المبالغة أن نقول: ان محمداً عند عامة المسلمين احتل

في عقائدهم وطقوس عبادتهم نفس المكانة التي اسبغت على المسيح عند النصارى تقريباً (١) وأصبحت زيارة قبر الرسول في المدينة طقساً لا يقل وجوبا عن الحج الى مكة : كما ان اضرحة الصحابة وضريحي صاحبي الرسول الخليفتين الاولين أبي بكر وعمر اللذين يرقدان عند قدمي الرسول في مسجد المدينة ، وأضرحة شخصيات اسلامية لامعة أخرى ، كلها تزار لغرض نيل البركة مع انهم ليسوا بأولياء بالمعنى الخاص .

ان تقديس الاولياء أخذ يتصل بالتصوف . ومنذ القرن العاشر الميلادي (٤ هـ) فصاعداً ، أصبح للمتصوفة أماكنهم الخاصة للاجتماع وفيها يمارسون السماع ، وقد غدت هذه الاماكن على مر الأيام ربطاً وزوايا وخوانق . ولفظة رباط أطلقت من قبل على الحصون الموجودة على الحدود والتي اتخذها المتطوعة من المؤمنين أماكن للجهاد المقدس على تخوم البلاد الاسلامية ، ومن ثم اطلقت اللفظة على الاماكن التي شغلها المتصوفة من حيث انهم جاهدوا فيها كذلك في سبيل الايمان اما الزاوية فقد اشتقت من زوايا المسجد حيث يجتمع الطلاب باستاذهم او اتباع مذهب ما برئيسهم . وهذه الاماكن التي اتخذت كبيوت استراحة للزهاد المتجولين صنفت في رتب متمايزة لكل منها شيخ بارز . والصوفية في هذه المرحلة من تطورها اصبحت شبيهة بالرهبانية في الغرب . وأصبح لكل جماعة متصوفة « طريقة » أي أصبحت

(١) يذكر المؤلف هنا ان مكانة السيد المسيح عند النصارى ترجع الى أسباب أعمق ، ولعله يقصد بهذا الى أن النصارى ينظرون الى المسيح على أنه ابن الله في حين ان المسلمين ينظرون الى نبيهم على انه انسان .

لها غاية دينية أخلاقية ، ورياضتها العملية الخاصة ، وهذه الطريقة تشمل تلاوة أجزاء من القرآن « الذكر » وترديد اوراد ذات صيغ خاصة من مثل « ياالطيف! » مئة ألف مرة . ويصبح المريدون فقراء أو دراويش بعد البيعة أو التلقين ودعي هؤلاء الفقراء كذلك باسم الاخوان .

ولكل أخوة اسلاميـة طريقتها الخاصة في البيعة أو التلقين ، وصيغها في الصلوات ، ومركزها الرئيسي الخاص بها وفروعها التى هي مراكز لاجراء المراسيم الدينية والتعليم . لكن الاسلام فى هذا المجال الخاص ، كما هو في جميع المجالات الاخرى لم يميز بين رجل الدين ورجل الدنيا : فكما يكون الامام فى نفس الوقت تاجرأقبية وعباءآت فقد يكون شيخ طوائف الصوفية اسكافيا . هكذا طورت الاخوة الاسلاميـة بصورة واسعة جداً ، تنظيم الرتبة الثالثـة التي ألحقها الكاثوليك بطوائفهم الكهنوتية : لقد غدت الاخوة الاسلامية جمعية سرية بكل معنى الكلمـة احتوت في داخلها مؤمنين من كل صقع ، واستطاعت هذه الجمعية أن تستجيب لكل حركة دينية أو سياسية . ومن المعروف جيداً ولا سيما فى أفريقية ان الاخوات الدينية أو اجتماعات الـ (خوان) قد درست وروقبت ، وبالتالي ظهرت آراء معارضة لها تمتاز بنفس الاهمية والحيوية كما كان لهـا نفس الادارة الدقيقة . وكانت السياسة الاسلامية كما يرتأي البعض أما معارضة لهذه الاخوات على طول الخط أو موافقة لها ؛ وعلى العكس فان معارضي الاخوات لم يكونوا بحاجة الى كثير من الاستشارة لكي يعلنوا عدم أهمية هذه الاخوات على الاطلاق . واعتبر آخرون الاخوة كائنا عضويا حيا يولد وينمو ويتكاثر ثم يندثر أمام أعينهم ، ذلك

الكائن العضوي الذي لاءم جيداً عقلية البربر والذي نشأ دون شك استجابة للوقوف في وجه السيطرة الاجنبية ؛ وعلاوة على ذلك لاحظ هؤلاء الاخرون ان المسلمين لم يكونوا ليتأخروا عن الاتصال باخوة أوربية كالماسونية الحرة . كما رأوا في الاخوات الاسلامية مظهراً طريفاً من مظاهر الرأي العام من الخير توجيهه ورعايته لا الوقوف ضده ولا شك ان الظروف السياسية قد تضيف أهمية أخرى الى الدور الذي قامت به الاخوات . ومنذ غزوات رباح حتى حرب عام ١٩١٤ شغل السنوسيون كزاً خطيراً في شؤون الصحراء الكبرى ونجح زعماؤهم في تشكيل دويلة وان كان شأنهم اليوم لا يبدو للعيان كثيراً ، بل ان خدماتهم ذاتها أدت الى خسرانهم .

والمتصوفة سواء كانوا مستنيرين مخلصين أو مشعوذين ليسوا جميعا منتمين الى الاخوات الاسلامية ، ذلك لان النفس الالهي يتجلى حيث يشاء ونستطيع ان نلاحظه عند أفراد يختلفون عن بعضهم غاية الاختلاف ، نلاحظه عند الملهم الذي يخلص نفسه كلية الى طقوس الزهد ، كما نلاحظه عند الممسوخ أو نصف المجنون أو شبه الدعي الذي يستغل ايمان العامة بحيله وشعبذاته ، وكذلك عند المجنون والمعتوه الذي لا يحل تمتماته الا مستخرج ماهر يعرف كيف يحول هذه التمتمات الى تنبؤات الهية . هذه صورة حية لتقديس الاولياء . وقد أعطت العادة الجارية لكل من اسلفنا ذكره اسما لا يطلق على الكثير منهم الا بصعوبة وهو اسم المرابط : ومعنى الكلمة الاساسي هو المخلص للرباط ، أي الحصن الديني المشيد على حدود البلاد الاسلامية والمرابط شبيه بالراهب المحارب في المسيحية . وبهذا المعنى أطلقت الكلمة بصورة صحيحة على مرابطي مراكش . وللمرابطين دور

مهم في الحياة الاجتماعية الاسلامية : اذ أنهم يشيعون حولهم تأثيراً خلقيا سحريا ، ذلك التأثير الذي يرجع الى قيمتهم الشخصية أو الى السلطة الموروثة عن أسلافهم أو بسبب العاهات الفسلجية التي أوصلتهم الى الاستنارة . وقد يكون المرابط وحيدا لا يخلف وراءه شيئا ، بل قد يلحق نفسه كذلك باخوة من الاخوات ؛ وقد يكون مؤسس طريقة جديدة فيصبح ضريحه مهما ويشرف عليه «مقدم» (١) وربما يكون مكانا لاجتماع أخوة جديدة .

المصادر

Wensinck, Muslim Creed; E. I : Macdonald, imam ; Carra de Vaux,'aqida.

(١) وهو القيم في البلاد الاسلامية الشرقية .

الفصل الخامس

أصول الشريعة الاسلامية

القرآن . تفاسير القرآن . السنة . الاجماع . القياس . الفقه . المذاهب السنية

✳

رسخت الخطوط الرئيسية للعقيدة الاسلامية فى القرآن ، في السور التى نزلت في مكة . بينما حددت الايات المدنية قواعد العبادة المفروضة والعلاقات العائلية والاجتماعية . ولم تكن هذه القواعد ، وهي أسس الشريعة الاسلامية كافية لاعطاء الصحابة الوسائل اللازمة لحل المشاكل التى واجهت قادة الجماعة الاسلامية ، رغم ان تلك القواعد جاءت احيانا ذات صبغة تفصيلية . لذلك لجأ الصحابة الى ذكرياتهم والى السنة النبوية التي غدت فيما بعد عاملا مساعداً خطيراً من حيث انها أحاطت بصنوف من التفاصيل لم يتطرق اليها القرآن ومن حيث انه صار من الممكن وضع الاحاديث وانتحالها . وأضاف الفقهاء بعدئذ أصلين آخرين للشريعة هما الاجماع ، أي اتفاق عامة المسلمين ،

والقياس أي الاستدلال عن طريق التمثيل . تلك هي اذن الاصول الاربعة للفقه في الاسلام .

ومنذ اختفاء مذهب المعتزلة ، نجد العقيدة الاسلامية تتفق بأن القرآن غير مخلوق ، وانه كتب خارج نطاق الزمن كما كتبت كذلك حياة العالم أجمع على اللوح المحفوظ : لقد نزل وحي القرآن الى السماء السفلى ومن ثم نقل الى الرسول بحسب الوقائع منجما في أجزاء مختلفة الطول وليس لها معدل ثابت . وفي العهد المكي تعرض الرسول لحالات صمت طويلة ملأت نفسه أسى .

وقد جاء الوحي الرسول عادة بوساطة الملك جبريل ، الا ان محمداً كان يسمع احيانا اصواتا لا يتميز صاحبها وفي أحيان اخرى جاءه الوحي بطريق نوع من الادراك الباطني اعتبره آتياً من لدن الله مباشرة وكان الرسول يتعرض لنوع من الذهول عند كل وحي ينزل عليه ، يدفعه الى التدثر بعباءته حسب تقليد قديم نلحظه عند الالهيين من حملة النبوة ثم يتلو الرسول بعد هذا ما أنزل اليه .

اتخذ الوحي في السنوات الاولى صورة دعوة ملحة الى الايمان بالحقائق الاساسية : وحدانية الله ، البعث ، الجزاء ، انذار البشر بقرب يوم العقاب . وقد تميزت السور الاولى بأنها كالريح العاصفة تتفجر عن وعيد صارخ ولعنات انتثرت بينها الوعود والصور الزاهية في أسلوب موزون مقفى فيه ملامح من تلك الحكم والاقوال التي استعملها رجال الدين في بلاد العرب القديمة . ونلاحظ ان الجزالة اللفظية أخذت تتضاءل باستمرار نزول الوحي في مكة ، كما صارت الاختلافات التي طرأت على الايقاع اللفظي للآيات تساعد النقاد المحدثين على اتمام تصنيف الآيات بحسب نزولها ، ذلك التصنيف الذي بدأ على أيدي

علماء المسلمين . وفي الفترة المدنية تختفي هذه الجزالة ، ما عدا حالات خاصة يكون فيها الاسلوب أخاذاً ، ذلك لأن الوحي صار يصوغ قواعد الحياة العملية ، ويؤكد في أذهان المسلمين المعاني الاساسية التي نزلت في مكة . وقد قرر علماء المسلمين الخطوط العامة لترتيب آيات القرآن من حيث تاريخ نزولها ، رغم ان هذا الترتيب لا يناظر ما نجده من ترتيب الايات في نسخة القرآن المعروفة لدينا : وجاء النقد الغربي فارتضى التخطيط العـام الذي تقدم به علماء المسلمين هؤلاء . والواقع ان تاريخ محمد وتاريخ الاسلام الاول يعتمد على وثيقة واحدة راسخة الاصول هي القرآن .

لقد أعار علماء المسلمين كبير التفاتهم الى تحديد الظروف التي ولدت فيها مختلف آيات القرآن والظروف التي تساعد على توضيحها . وأعطيت كل آية محلها اللائق بها قدر الامكان في تاريخ الجماعـة الاسلامية الاولى ، كما غالى المفسرون في محاولتهم تفسير كل آيـة بارجاعها الى حادثة من حيـاة النبي ؛ إلا أن غيرهم مال الى اتجاه آخر ولم يعتمد على هذا المبدأ وقال بان الذات الالهية تسمو عن التدخل في كل صغيرة و كبيرة الا ان هذا التفسير السطحي للوحي لا يخلو على أية حال من قيمة عند المؤرخ الذي يستطيع بعد تحديد زمانه ومكانه ان يوضح الخطوط العامة للسياسة والانظمة . ويلزمنا ألا نسلم بصحة جميع هذه المصادر دون تمحيص .

ومنذ الايام الاولى للجماعة الاسلامية ، دعا الرسول اتباعـه الى الاجتماع ليفضي اليهم بالوحي ، وليعلمهم القيام بشعائر دينية معينـة ليست لدينا معلومات محددة عن طبيعتها بشكلها الاول . ويحتمل أن تكون هذه الاجتماعات لغرض العبادة وتلاوة القرآن واحتمال تفسير

بعض غوامضه ومحاولة تثبيته في ذاكرة المؤمنين . والواقع ان ذاكرة هؤلاء المؤمنين الاوائل أصبحت خير مؤتمن على الوحي وناقل له . ولا تزال الذاكرة أشرف مكان لحفظ القرآن ونقله ، ومما يميز الانسان ويرفع من قدره أن يكون حافظا يحوي القرآن كله في صدره لكن مع ذلك كانت الكتابة معروفة ومنتشرة في مكة ، الى حد أبعد مما ذهب اليه النقد الحديث لمدة طويلة . وقد دونت أجزاء من القرآن على مواد مختلفة متيسرة في بلاد العرب في القرن (٧ م = ١هـ) كالرقاق والفخار الذي استعمله البابليون والآشوريون للكتابة ، وعظام الواح الكتف للجمال ، ويبدو ان أوراق البردى المصرية لم تعرف في بلاد العرب انذاك .

لم تجر في حياة الرسول أية محاولة أكثر من جمع بعض أجزاء الوحي ؛ لذا لم تتوفر أية مجموعة للكتاب المجيد : كما لم تكن هناك جهود متواصلة لتصنيف أجزائه تصنيفا منهجيا . والصعوبات المادية في سبيل جمع القرآن هي التي سببت دون شك تهيبا من الاقدام على ذلك . وفي خلافة أبي بكر ، شعر المسلمون بحاجة الى نص قرآني مضبوط ، بجمع كل أجزائه المدونة وغير المدونة ، يكون الرجوع اليه أضمن من الرجوع الى الذاكرة والى الاجزاء المتفرقة . واسند هذا الواجب الى كاتب الرسول المقرب زيد بن ثابت ، ويبدو ان أبا بكر لم يتيسر في خلافته نشر هذا النص . كما ان مختلف جماعات المحاربين المسلمين في سورية ومصر والعراق وايران ما لبثت ان وجدت لديها أجزاءاً مكتوبة تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافا بيناً . وهددت الظروف والملابسات بتوسيع شقة هذه الاختلافات ، كما بدأ النقاش يثور حول الآيات المتشابهة والغريبة ، كما اقترح ان

تضم الى القرآن الاحاديث القدسية المعتقـــد بانها موحاة بمعناها لا بلفظها ، من هنا قام الخليفة عثمان تدفعه تقواه وحبه للوفاق بين المسلمين بتأليف لجنة تعاونت مع زيد بن ثابت فوضعت الترتيب النهائي للقرآن وكتبت منه أربع نسخ وزعت على المدينة ودمشق والبصرة والكوفة وعنها نقلت حرفيا النسخ الاخرى التى نشرت فى ارجاء الامبراطورية وغدت نماذج لاقدم النصوص القرآنية الموجودية لدينا والتى يرقى تاريخها الى القرن (١٠ م = ٤ هـ) . وتقول الاخبار ان الخليفـــة عثمان كتب النسخ الاربعة بيده أو كتب واحدة منها على الاقل وهي التى كان يقرأ فيها حين قتل . وحفظت مكتبات الجوامع والامراء الصفحات الملطخة بالدم من هذه النسخة لمدة طويلة . وقد شاهد ابن جبير سنة (١١٨٤ م = ٥٨٠ هـ) فى مكة قرآنا خاصا بعثمان عرض على باب الكعبة أثناء صلوات الاستسقاء .

يقسم القرآن الى مئة وأربع عشرة سورة ، لكل اسمها الخاص المشتق من بعض محتوياتها ، وفيها عدد متباين من الآيات (الآية = دليل معجز) . ان تلاوة القرآن كطقس دينى أوجب تقسيمه لا حسب السور المتفاوتة الطول ، بل الى أجزاء متساوية من حيث الكم تقريباً ، وهذا ما دعا المسلمين الى تقسيم القرآن الى ثلاثين جزءاً وستين حزبا ومئة وعشرين ربعاً . ان الفاتحة التى يبدأ بها القرآن ، والسورتان الاخيرتان « ١١٣ و ١١٤ » وهما « المعوذتان أي اللتان يستعيذ بهما الانسان من الشيطان » قصيرة جداً (١) والفاتحة

(١) يذكر المؤلف هنا ان السور الثلاث هذه ليست في الحقيقة جزءاً من الوحي ولسنا ندري الدافع الى هذا القول ، مع ان واقع الحال يستوجب قبول القرآن جملة بوصفه كتابا منزلا مع ان المؤلف يقر من ناحية أخرى بان بقية سور القرآن قد أوحي بها . وكان عليه أن يقيم الدليل على رأيه هذا لا أن يكتفي بمجرد اشارة عابرة

نوع من الدعاء ، أما السورتان الاخريان (١) فيختم بهما القرآن وهما بمثابة سياج حصين لطرد الارواح الشريرة . ورتبت السور الباقية وعددها (١١١) حسب ترتيب تنازلي من حيث الطول ، تبدأ باطول سورة هي الثانية وتنتهي باقصرها ويمكن القول بصورة عامة ان السور الاخيرة في القرآن تتضمن بواكير الوحي . وأول سورة نزلت من القرآن هي السادسة والتسعون ؛ والسور الطويلة التي يبدأ بها القرآن نزلت في المدينة . وقد أظهر النقد في السور المدنية آيات ترجع الى الفترة الاولى ، أهمل (٢) وضعها في مكانها فوضعت فيما بعد في ثنايا السور المتأخرة ، ولا نعلم اليوم الظروف التي أدت الى ذلك .

ومع ان نص القرآن ثابت رسميا ، فلا يزال مبعث تردد عند قراءته وتفسيره . ان القراءات المتعددة بعد أن تعرضت لخلافات ومناقشات كثيرة أقرت العقيدة بعضها بوصفه صورة صادقة للوحي . هذه القراءات لم تنشأ عن الخلافات الفظية للقراء ولا عن تباين لهجاتهم عن بعضها فحسب ، بل نتجت كذلك من الاختلاف في قراءة النصوص المكتوبة . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا بان النقط لم تبتكر الا زمن الحجاج في عهد خلافة عبد الملك بن مروان في السنوات الاخيرة من القرن (٧ م = ١ هـ) ، فمكن هذا من التمييز بين الحروف مثال ذلك بين الـ « ب » والـ « ت » والـ « ث » والـ « ن » والـ « ي » أما حروف العلة الثلاثة فانها لم تستعمل الا بعد هذا العهد : هذه

(1) Vieilles formules conjuratoires.

(٢) يخالف عامة الباحثين في القرآن من المسلمين ما يقوله المؤلف في هذا الصدد ويؤمنون بان القرآن قد أوقف على ترتيبه الحالي توقيفاً الهياً .

التحسينات التي أدخلت على الكتابة العربية تمصر الاصلاح الماسوري(١) في الكتابة العبرية . أما اختلاف القراءات التي تحفل بها العقيدة الاسلامية عادة فهي قليلة الاهمية في تفسير القرآن .

لقد بحثت الاختلافات النسبية للقرآن في علم التفسير الذي هدف الى تحديد معنى الالفاظ وتوضيح معنى الآيات ، بالرجوع الى الشعر الجاهلي من الناحية اللفظية ، والى الحديث النبوي او الى الاستدلال العقلي من ناحية الافكار . هكذا تطور المفسرون بفروع خاصة من المعرفة : كعلم غريب القرآن وعلم الناسخ والمنسوخ للتمييز بين آيتين متناقضتين وأيهما تبقى نافذة المفعول ، الى غير ذلك .

أما الاصل الثاني من أصول الشريعة الاسلامية فهو السنة والحديث ولايزال هذا الاصل الى اليوم وثيقة باقية الأثر لدراسة النظم الاسلامية . أما الاحاديث القصيرة الشائعة التي يمنحها قيمة كبرى اسلوبها المباشر فتوقف القارىء على تفاصيل حياة الرسول ، وتوثق الصلة بينه وبين الحياة الاجتماعية للعرب في القرن السابع الميلادي . ولاشك ان كثيراً من هذه الاحاديث موضوع انتحل في القرن (٨ م ــ ٢ هـ) ليلبي حاجة البدع والنزعات التي ابتعدت كل البعد عن مقاصد الرسول .

هذه الاحاديث الموضوعة التي استعملت دون حذر تكون مرجعاً أخاذاً يجذب أنظار الباحث . وكل منها يتصل بالرسول أو باحد الصحابة بسلسلة من الاسانيد : روي عن فلان انه روى عن آخر انه ذكر عن احد صحابة الرسول قال : ان الرسول قال :

(١) ماسور أو ماسورة لفظة عبرية تدل على ذلك الفحص النقدي الذي قام به علماء اليهود للتوراة .

... وهذا هو الاسناد . ونلاحظ ان كل ما فعله الرسول او امتنع عنه وكل احاديثه وكل ما سكت عنه ، جميع هـذه اكتسبت قوة القواعد ومفعولها .

جمع المثقفون المتتبعون من المسلمين في القرن (٩م = ٣هـ) أنواعا مختلفة من البحوث هي أساس كل الدراسات في علم الحديث . وقد رتب بعضها حسب أزمنة الاشخاص الذين اسندت اليهم تلك الاحاديث . وأشهر هذه البحوث الخاصة بالحديث هي تلك التي جمعت بحسب ترتيب موضوعاتها . فمثلا (جامع الصحيح) للبخاري (توفي ٨٧٠ م = ٢٥٧ هـ) طالما طبع في الشرق ، وله كثير من الشروح أشهرها (عمدة القارىء) للعيني (توفي ١٤٥١ م = ٨٥٥ هـ) و (ارشاد الساري) للقسطلاني (توفي ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ) . وهناك مجموعة أخرى للحديث هي « صحيح مسلم » (توفي ٨٧٥ م = ٢٦٢ هـ) . وهناك الى جانب ما ذكرنا أربعة مؤلفين يعتمد عليهم أيضا هم : ابن ماجة (توفي ٨٨٦ = ٢٧٣ هـ) وأبو داود (توفي ٨٨٨م = ٢٧٥ هـ) والترمذي (توفي ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ) والنسائي (توفي ٩١٥ = ٣٠٣ هـ) . كما ان هناك بعض المصادر الشائعة أخذت من هذه هي : « مصابيح السنة » للبغوي (توفي ١١٢٢ = ٥١٦ هـ) . وتنقيحه « مشكاة المصابيح » للتبريزي وكتاب « الاربعين » للنووي (توفي ١٢٧٨ م = ٦٧٧ هـ) و « جامع الصغير » للسيوطي (توفي ١٥٠٥ م = ٩١١ هـ) و « تقريب النووي » مهم جداً في مجال نقد الحديث .

ومع ان مؤلفي مجاميع الحديث حاولوا ان يرتبوها حسب نظام خاص ونجحوا الى حد ما ، فان القرآن وتفاسيره والسنة وتفاسيرها

كونت رصيداً ضخماً لا يمكن أن يحول بسهولة الى موجز ضيق من القواعد والمبادىء تحدد السلوك . ولم يقف الجدل عند حد ، وقد جاء وقت أصبحت الاحاديث الموضوعة نفسها لا تستطيع ان تلبي وقائع الحياة الجديدة الا بصعوبة ، لا سيما حين فرضت رقابة ووجه النقد الى الاحاديث الموضوعة وتجريحها بغيــة هدمها . أما الرأي فكانت له قيمتـه الخاصة على الدوام ، وبواسطـة المتكلمين ، لا سيما المعتزلة وهم انشطهم غدت الشريعة تستقي من أصل آخر هو الاجتهاد والرأي الشخصي ، هـذا مع العلم ان ممارسة الاجتهاد اقتصرت على المجتهدين وهم عدد قليل من كبار العلماء المسلمين ، ولا نزال حتى الان نعجز عن ادراك مدى امكانية الاجتهاد بعدهم .

واذا كان الرأي المنفرد غير كاف ليوجد معتقداً ، فانه تصبح له السلطة حينما يستند الى اجماع المسلمين ، لا سيما ان حديثا للرسول يقرر ان أمته لا تجتمع على ضلال . ويجب الا نظن ان الاجماع هو رأي العامة من المسلمين بل رأي الخاصة من رجال الدين والفقهاء في زمن من الازمان ؛ وجرت محاولة لجعل الاجماع خاصاً بعلماء المدينة وحدهم في عصر من العصور .

أما التقدير أو الحكم الفردي فلم يقبل به الا الى حد ضيق جداً فحسب ، ما دام ليس أكثر من تطبيق يماثل حالة سبقت ، وهذا هو القياس . وما زال القياس مستعملا الى اليوم ، فيستطيع الفقيـه أن يطبق حالة جديدة على حالات مماثلة سبقت من قبل . إن حق عمل هذه الاحكام نجده غالباً يتمثل فى تلك الفتاوى التي يفتيها أشخاص معترف بقيمتهم العلميـة ، وان لم يكن الواحد منهم ذا منصب رسمي كمفت . وقد كثرت مجموعات الفتاوى ومخطوطاتها الى حد كبير ، واذا انشرت

شيئاً فشيئاً فستكون مرجعاً خطيراً من مراجع تاريخ النظم الاسلامية.

ان تنوع العقائد التي نتجت عن هذه الاصول المختلفة ، وسط المشاحنات الدينية والفقهية الحادة ،منعت هذه العقائد من بلوغ مستوى الوحدة التامة ولو كانت تلك الوحدة ضمن نطاق الاسلام الاول . ومدارس الفقه التي أسست في القرن (٩ م = ٣ هـ) على أساس حنيف لا تزال تحتفظ باختلافاتها عن بعضها حتى اليوم : وهـذه المدارس تقتسم فيما بينها حكم العالم المسلم السني . واختلافاتها الظاهرة في وجهات النظر العقلية المختلفة لها أهمية علمية حقيقية ، لكن هـذه المذاهب ليست فرقاً منشقة انما هي جميعا مذاهب تسير في دائرة الاسلام التقليدي وليست بخارجة عن أصول الاسلام الاولى : لذا يستطيع المسلم أن ينتقل من أي من المذاهب الاربعة الى الآخر دون أن يرتكب اثماً . وأكثر من هذا يمكن في بعض الحالات أن يتابع قواعـد مذهب لا ينتمي اليه : فالمالكي مثلا يستطيع أن يعقد زواجا ويعلن انـه سيتبع قواعـد المذهب الحنفي فيما يتصل بالنتائج القانونية المترتبة على هـذا الزواج ، وذلك بشرط قبول هذا الزوج كل النتائج المترتبة على مثل هذا العقد سواء كانت ترضيه أو لا ترضيه .

أما المذهب الحنفي الذي أسسه الامام أبو حنيفة (توفي ٧٦٧م = ١٥٠ هـ) فهو أقل المذاهب الاربعة صلابة . وقد تبناه الترك واستمر المذهب سائداً في آسيا الوسطى والهند . ويمكن أن نجد بعض آثاره في تلك الاقطار التي كانت تحت الحكم العثماني كتونس والجزائر مثلا . بينما المـذهب الشافعي هو مدرسة محمد بن ادريس الشافعي المولود في بغداد والمتوفى سنة (٨٢٠ م = ٢٠٥ هـ) فقد كان المذهب الرسمي للخلافة العباسية وعن طريق تجار وبحارة الخليج

الفارسي انتشرت الشافعية الى المناطق الساحلية من المحيط الهندي . ولا يزال هذا المذهب منتشراً عند سواحل الخليج الفارسي وبلاد العرب الجنوبية والهند وبين الجماعات الاسلامية المهمة في جزر الصوندة Suuda . ونفس التأثيرات التجارية حملت المذهب الشافعي الى افريقية الشرقية ، وقد درس المذهب الشافعي بصورة خاصة عند علماء العربية في هولندة سيدة جزر الهند الشرقية الى وقت قريب . وبعض آثار هذا المذهب يمكن أن نجدها في مصر السفلى . أما المالكية فقد أسسها في المدينة الامام مالك بن انس (توفي ٧٩٥ م = ١٧٩ هـ) وانتشرت وسادت في المغرب (تونس ، الجزائر ، مراكش) وافريقية الوسطى ، وكانت موضوع دراسات مهمة لدى المدرسة الفرنسية . أما المذهب الحنبلي فمؤسسه محمد بن حنبل (توفي ٨٥٥ م = ٢٤١هـ) فليس له الا اتباع قلائل في قلب الجزيرة العربية وعلى سواحل الخليج الفارسي وهو أصلب المذاهب السنية . ويبدو في البلاد السعودية الحديثة ان الحنبلية أخذت بالاختلاط بالوهابية .

ان مجموع القواعد الناتجة عن هذا المجهود الكبير في الدراسات الدينية والتفكير فيها ، هو الذي يكون الفقه الاسلامي ، وقد كون الفقهاء في الدولة الاسلامية هيأة معتبرة عرفت في بعض الاوقات العصيبة كيف تهيج العامة . ان الفقه هو بالجملة المعرفة المنهجية للشريعة المحتواة في القرآن والسنة ، تلك المعرفة التي يوضحها ويتآزر معها الرأي المنطقي . ويمكن الفقه ان يتابع المزاج الشخصي للفقيه ، فيميل نحو التأويلات الشخصية ، أو نحو السنة المتواترة .

وأقدم بحث شرعي معروف لنا اليوم هو موطأ مالك بن أنس .

وفي سورية أسس الاوزاعي (+ ٧٧٤ م = ١٥٨ هـ) مدرسة

للفقه لم يردنا عنها أي أثر مكتوب ، لكن سلطتها التي انتشرت اذاك استطاعت ان تسود الاندلس الاموية وتثبت أقدامها فيها . وبعد أبي حنيفة جاء قاضي هرون الرشيد أبو يوسف ومؤلف كتاب الخراج الذي لا نستطيع في مجالنا هذا أن نتطرق الى موضوعه .

لكن التطبيقات الشرعية التي ، كما سنؤكد ذلك مرة أخرى ، كان عليها ان تخضع لحاجات التقاليد المحلية ، شجعت التخصص في الدراسات التي ابتعدت عن الاصول كثيراً ، وضلت في الفروع . لذا كان هناك اتجاه الى رد الكتب القديمة المطولة الى كتب مدرسية موجزة زودت القضاة بمجموعة من القوانين استطاعوا ان ينسجوا على منوال اسلوبهاما تقدموا به من احكام . وكان للمالكية المختصر ل « سيدي » خليل (توفى ١٣٦٥ م = ٧٦٧ هـ) مع شروح كثيرة عليه (الخرشي ، الدسوقي ، الخ ...) . اما كتاب الشافعية فهو منهاج الطالبين للنووي (توفى ١٢٧٨ م = ٦٧٧ هـ) مع شروح عليه كثيرة مثل تحفة ابن حجر ونهاية الرملي ، ومن بين الكتب المنتشرة عند الحنفية يمكننا ان نذكر جامع الرموز للخراساني وكنز الدقائق للنسفي .

هذه الكتب العملية على اية حال لا تعير اهمية للتقاليد المحلية من (عادة وعرف وعمل) ، الا ان هذه اوجدت لها طريقا ليس في الحياة القضائية الاعتيادية التي لا تترك اثاراً مكتوبة فحسب ، بل وكذلك شقت لها طريقا في كثير من الاعمال والاحكام المعتادة للقضاة وقد بدأ جمع وطبع هذه الاثار شيئا فشيئا .

هكذا نجد الشريعة نفسها محتواة في كتلة من الكتب والوثائق تكون معرفتها ما يدعى بالفقه ، والفقه يحتوي على قواعد العبادات

والمعاملات وهي خاصة بالعلاقات العائلية والاجتماعية والعقوبات . وليست كل هذه التنظيمات متساوية في القيمة وهي مقسمة في عدة أحكام شرعية وهي أولا : فرض أو واجب ويثاب على ادائها ويعاقب على تركها ، وقد ميز بين الواجب الفردي او فرض العين كالصلاة مثلا وبين الواجب الجمعي او فرض الكفاية الذي يستطيع الفرد التملص منه اذا انجزه الغير بصورة وافية كالجهاد ، ثانيا : ما هو منصوح به او كما يسمى بالمندوب او المستحب وانجازه يجلب الثواب ولايجلب اهماله العقاب ، ثالثا : ما هو مباح او حلال وهذا لا يثاب ولايعاقب عليه ، واخيراً : ما هو حرام وهو امر معاقب على ارتكابه (١)

المصادر

Joynboll des isl. Gesetzes; Goldziher, loi et dogme; Muhammedanische Studien II. hadith; Buhl, Koran Schacht, Sharia.

(١) يميز الحنفية وحدهم فقط بين الفرض والواجب ويجعلون منهما حكمين . كذلك هناك حكم آخر لم يشر اليه المؤلف وهو المكروه الذي طلب الشارع الكف عنه من دون اشعار بوقوع العقوبة على فاعله .

الفصل السادس

الفرائض

شهادة الايمان . الصلاة : المساجد ، الصلوات الخاصة . الحج : العمرة والحج ، الكعبة والطواف ، السعى ، عرفات ومنى ، المدينة وقبر الرسول . الصيام . الزكاة .

○○

تكلف الشريعة الاسلامية المؤمن بعدد قليل من الشعائر الواجبة تؤلف أركان الدين ، وهي الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة ويحل بعض المؤلفين محل الشهادة إما الطهارة واما الجهاد .

الشهادة هي في الواقع مظهر طبيعي للاسلام أكثر من أن تكون الزاما دينياً ، والشهادة جزء من الايمان كما انها عمل في نفس الوقت وهى أثر يدل على الايمان ويعبر عنها بعبارتين هما : أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله . ومجرد قول هاتين العبارتين معناه الاعتراف بالاسلام . والعقيدة الاسلامية تعلن أن الاسلام يمكن أن يضفى على كل من يؤدي الشهادة ويطالب الذين على وشك الموت أن يؤدوا هذه الشهادة . وكذلك يفترض في المجاهد أن تكون عبارتا الشهادة

على تغربه في لحظات استشهاده . كما ان الشهادة عنصر أساسي في الصلاة « التشهد » .

تعتبر الصلاة اليومية كعنصر أساسي في عبادة المسلم ، وهي مجموعة من الشعائر والحركات والكلمات قررتها الشريعة . وأداء فريضة الصلاة لا يستدعي حضور المصلي في المسجد ما خلا صلاة الظهر في يوم الجمعة . وينصح بهذا الحضور لتقليل احتمال ارتكاب الخطأ في الصلاة المنفردة في حين ان وجود المصلي مع الجماعة يجعل صلاته غير معرضة للخطأ . والصلاة هي الفريضة الرئيسية للمسلم ، وحينما يراد التعبير عن حقيقة ان الشخص غير مسلم أو انه تحول عن الاسلام يقال انه تارك الصلاة .

كانت الصلاة تقام في بداية الدعوة عند شروق الشمس وغروبها فقط ، وتؤكد السنة انه يجب ألا تقام الصلاة عند الشروق والغروب تماما وذلك للقضاء على ذكرى عبادة قديمة للشمس . لكن عدد الصلوات اليومية قد حدد بخمس صلوات : وتقام عند أوقات محصورة بين لحظتين تحددهما وقائع فلكية . فصلاة الصبح تقام بين اللحظة التي ينتشر فيها الضياء لاول مرة بعد الظلام ـ الفجر الحقيقي ـ وبين لحظة شروق الشمس : ولا قيمة لصلاة الصبح اذا أقيمت بعد الشروق مباشرة (١) . أما وقت الظهر فتقام الصلاة عندما يكون ظل الشخص الواقف على أقله وحين يأخذ هذا الظل بالازدياد ويحصل هذا (بعد منتصف النهار تماما) وبين اللحظة التي يكون فيها ظل الشخص الواقف مساويا لطوله الطبيعي مضافا اليه أقل ظل له ، لكن الواقع ان الصلاة

---

(١) يسمح المذهب الجعفري بان تقضى الصلاة ولو كانت بعد اوقاتها باوقات قصيرة عند الحالات الاضطرارية .

تحصل بعد منتصف النهـار مباشرة . اما العصر فتقام بين اللحظة الاخيرة من صلاة الظهر وبين لحظة غروب الشمس ، وفي الواقع بين الثالثة والخامسة بعد الظهر (١) ، وتختلف اقامة الصلاة في هذه الفترة المذكورة بحسب الفصول وبحسب العادات المحلية . بينما تقام صلاة المغرب بين غروب الشمس وبين اختفاء آخر أشعة للشمس تضيء الافق . وأية من هاتين الصلاتين الأخيرتين يجب ألا تقام في لحظة الغروب ذاتها . اما وقت العشاء فيمتد من نهاية المغرب الى بداية وقت الصبح ، وهذا معناه انه يمكن أن تحدث صلاة العشاء في أية ساعة من ساعات الليل : لكن في الواقع تقام عند المساء في بداية اشتداد الظلام :

والعابد باقامته للصلاة يزداد قربا من الله وهذه الواقعة تضفى على شخصه صفة قدسية وقتية : وعليه أن يعد نفسه لهـذا العمل بالخضوع لشروط خاصة تتصل بطهارته الشخصية وطهارة ما يحيط به . وسنقدم بعض الاشارات الخاصة بالمكان الصحيح لاقامة الصلاة فيما بعد . ويلزم العابد أن يمثل فى شخصه الطهارة الشرعية : أي أن يكون بعيداً عن أي حدث [نجاسة] كبير أو صغير . أما التماس الجنسي وهو الحدث الاكبر (الجنابة) فيمكن ازالته بالغسل ؛ بينما الحدث الاصغر الناتج عن تلبية الحوافز الطبيعية من نوم أو اتصال بسيط بالجنس الآخر .. الخ فيمكن ازالته باتباع شعيرة معينة هى الوضوء وهو ما يقوم به المسلمون عادة قبل الصلاة . اما في ساحة المسجد نفسه أو في مرافقه . يغسل المؤمن عند الوضوء وجهه و كفيه ثم

(١) حسب التوقيت الافرنجي .

يديه حتى المرفق بماء طاهر شرعيا ؛ ثم يمر بيمناه المبللة على رأسه ثم يغسل قدميه (١) بنفس الطريقة؛ وبجانب هذا يجب ألا يقترب العابد من الله في لبــاس مدمى أو ملوث بالبراز أو بأية نجاسات أخرى كالبصاق أو المخاط ... الخ ، كما تبطل الصــلاة اذا تلوث المصلى أثناءها بأية نجاسة من النجاسات المذكورة .

وفي حالة الطهارة الشرعية (٢) يمكن المؤمن أن يلبي داعي الأذان ، وهو الذي ينادى به في المدن من أعالي المنائر مؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ، ويعلن ان وقتها قد أزف فيقول :

« الله أكبر » اربع مرات « أشهد ألا اله الا الله » مرتـان وأشهد أن محمداً رسول الله » مرتان « حي على الصلاة » مرتـان « حي على الفلاح » مرتـان « لا اله الا الله » . أما في خارج المدن فيلزم المؤمن أن يكون مؤذن نفسه .

أما اذا لم يذهب المصلي الى المسجد حيث يلزمه أن يتوائم مع نظام المبنى وأوضاع الامام ، فعليه أن يقيم لنفسه محرابه الخـاص فيأخذ محله ويقف موجهاً وجهه شطر مكة حيث الكعبة مركز الانجذاب ، وقبلة العالم الاسلامي . وفي بداية عهد الرسول في المدينة نصح الرسول اتباعه بصورة فطريه أو لحكمة سياسية بتقليـد اليهود والاتجاه في الصلاة نحو بيت المقدس : لكن بعد تغيير سياسته تخذ قبلته بيت الله الذي يقوم في وسط المسجد الموجود في المــدينة

(١) اعتاد الحمفرية أن يمسحوا أقدامهم بأكفهم المبللة حسب احدى قراءتين لنص القرآني الخاص بهذا المجال .

(٢) أي في حالة الوضوء .

الحرام : وهناك مسجد صغير في المدينة يحتفظ بذكرى هذا التحول يدعى بجامع القبلتين . اما اتجاه القبلة فيحدده في المدن موضع المسجد بينما يحدد اتجاهها في الأماكن الأخرى ملاحظات وآراء رجال الدين .

وحينما يقرر المصلي اتجاهه بحسب القبلة يلزمه أن يتأكد من طهارة البقعة حوله ليتيسر له أن يقيم صلاته دون أن يشوبها أي بطلان . ويعين المصلي البقعة المقدسة التي يتخذها للصلاة امابإشارة يخطها برمحه كما تقول بعض المصادر القديمة أو بوضع شيء منظور ليكون موضع جبهته عند السجود . واذا اخترق هذه البقعة انسان أو حيوان أثناء الصلاة عدت باطلة .

وحين يقف المصلي متجهاً نحو مكة يعبد اقامة الصلاة وينوي نية اقامتها صامتا أو بصوت خفيض ذاكراً وقت الصلاة مثلا : نويت أن أصلي صلاة الصبح ، أو الظهر ، وهذه النية ضرورية لكي تكون الصلاة صحيحة ، وهناك توكيد أساسي على خطورة هذا العنصر من الارادة الشاعرة في أية فريضة من فرائض الاسلام .

بعدها يرفع المصلي يديه الى مستوى كتفيه ويلفظ التكبير ، أي صيغة الله اكبر « أي أكبر من كل الكائنات الاخرى » وهذه الصيغة التي تستعمل في كثير من الاحوال تتخذ هنا أهمية خاصة لأنها تشير الى بداية عهد مقدس يخلص فيه المؤمن نفسه بصورة تامة لأداء الصلاة ويصبح ذا صلة بالالوهية . ومن لحظة بدء الصلاة ينقطع المصلي عن أية من الشؤون الارضية ، وكل كلمة أو ايماءة خارج موضوع الصلاة تبطل قيمتها لأن ذلك يقطع اتحاد المصلي

بالله . وقد عرف الفقهاء المسلمون بدقة هذه الصيغة ودعوها بتكبيرة الاحرام « أي تلاوة التكبيرة الخاصة بالتقديس . »

يقرأ المصلي الفاتحة ، أول سور القرآن ، واضعاً كفه اليسرى في اليمنى وهو واقف (١) ثم يركع مكرراً تكبيراً آخر واضعا راحتي كفيه على ركبتيه بخشوع ، ثم يعتدل واقفاً كما كان ، ثم يتخذ وضعا آخر يمثل أعظم استسلام بين يدي الله وهو السجود . هذا أتم مراحل الصلاة ويظهر انه يقابل عند المسيحيين أداء القداس . وبعدئذ يضع المصلي ركبتيه على الارض وبعد يديه ويلمس بجبهته الارض عند أصل الانف . ثم يرفع بدنه لكنه يبقى في وضع الجلوس على الركبتين باسطا ذراعيه على ظاهر فخذيه . وبعدئذ يسجد ثانية كما في المرة الاولى ويسبق كل سجدة ويلحقها تكبير .

كل هذه الاوضاع المتتابعة من تلاوة الفاتحة حتى السجدة الثانية تكون كلا يدعى بالركعة ، وكل صلاة من صلوات اليوم تنتظم عدداً من الركعات المفروضة . وتتكون صلوات الظهر والعصر والعشاء ، وهذه جميعا تطول مدتها ، كل منها من اربع ركعات ، أما صلوات الصبح والمغرب فتختصران بسبب ضرورة تحاشي أي امتزاج مع لحظتي الشروق والغروب ، وللصبح ركعتان وللمغرب ثلاث . ونختم كل ركعتين بالتشهد مراعاة للسنة .

وعند نهاية آخر ركعة بعد السجدة الثانية يتخذ المصلي وضع الجلوس : ثم يعيد فرض الشهادة ثم الصلاة على الرسول . ثم يحول المصلي رأسه جهة كتفه الايمن ، ثم جهة كتفه الايسر ويقول :

---

(١) أو مسبلا يديه الى جانبيه كما عند الشيعة.

صيغة التسليم «السلام عليكم ورحمة الله» . وهذه الصيغة تنهي احرام الصلاة ، وقد بدأت الصلاة كما رأينا بتكبيرة الاحرام ، ولهذا السبب اعطي لصيغة التسليم هذه اسم تسليمة التحليل . واذا كان المصلي في المسجد راغبا في اقامة الواجبات المتممة فهو يستطيع بين حين وآخر أن يتحدث الى الاخرين او يلقي بعض الاوامر .. الخ لأنه في حالة التحليل .

وهذه الشعائر التي اتينا على وصفها يكملها التقاة من الناس بتلاوة آيات ودعوات من القرآن ويكون عددها ونوعها معتمدين على الثقافة الدينية للمصلي والمذهب الذي ينتمي اليه . وقد اوصى الرسول بالاضافة الى ذلك بالنوافل وهي من الصلوات الاختيارية الزائدة .

فالصلاة اذن هي عمل ديني فردي يمكن المؤمن أن ينجزه لوحده وحيثما اراد . الا انه يفضل ان تقام الصلاة « جماعة » أي بإمامة مسلم ورع عالم بالدين يقف وراءه المصلون في خطوط متوازية ، وينسجون على منواله في حركاته . وهذا الامام المصلي ليست له أية صفة دينية كما ينبغي ان نذكر ، ولم يمر من قبل بأي تلقين خاص ، وليس كأمثاله في المسيحية من القسس . فالامام يحترف في حياته الخاصة أية حرفة يشاء وقد تكون في غاية التواضع ، الا انه يقام اماما لاخوانه في الدين بسبب علمه وتقواه . وينصح المؤمن كذلك بأن عليه ان يجتمع مع الاخرين في المسجد الذي صمم بشكل يبعد اي عامل خطير يبطل الصلاة . وصلاة الجمعة هذه واجب جماعي للمسلمين يؤكدون به عن طريق حضور فريق منهم في الجامع احتفالهم بالصلوات اليومية .

يلزم المؤمنين مرة في الاسبوع - كل جمعة - وفي ساعة الظهر أن يشاركوا في شعيرة خاصة هي صلاة الجمعه ، تغلق أثناءها الحوانيت في الاسواق وتعلق الحياة الاقتصادية : وينصح بتطهير عام هو الغسل استعداداً لهذه الشعيرة ، ولبس ملابس نظيفة ، وهذه قاعدة يلاحظها أي مسلم ذي آداب دينية ، وهكذا يندفع المسلمون في المدن الى الحمامات صباح الجمعة .

تعتبر الخطبة العنصر الاساسي في هذه الشعيرة ويلقيها امام خاص يدعى بالإمام الخطيب ، وهذه الخطبة هي في الواقع مؤلفة من جزأين هما خطبة النعت وخطبة الوعظ ؛ وتحتوى الاولى تمجيداً لله ذا صيغة واحدة غالبا ، في حين تحتوي الثانية مواعظ دينية يمكن الخطيب ان يظهر فيها بلاغته اذا لم يفضل ان يعيد احدى الخطب النموذجية التي جمعت منها مجموعات خاصة . وصلاة الظهر ذات الركعات الاربعة لا تقام في هذا اليوم او على الاقل نجد انها مؤلفة من ركعتين واجبتين تأتيان مباشرة بعد الخطبة لكن التقليد المأثور يطالب باداء ركعتين قبل الخطبة .

في الخطبة الاولى يدعو المصلون أن يبارك الله أولي الامر منهم : وهذه العادة القديمة كانت من التطبيقات العملية المهمة لأنها المظهر الجمعي لاعتراف الامة بحاكمها لا بصفته ولياً مباشراً فحسب بل كذلك لاعترافهم معه بسلطة اعلى ولي هو الخليفة . وفي سنة ١٠٨٣م = ٥٧٩ هـ عندما شهد ابن جبير الرحالة الاندلسي صلاة الجمعة في مسجد مكة استمطر الخطيب بركات الله على امير مكة ثم على سيده الاعلى السلطان صلاح الدين ، وأخيراً على الخليفة العباسي الذي اعترف صلاح الدين بسيادته عليه والعمل تحت رايته . وقد ساد اسم الخليفة التركي العالم الاسلامي في الخطب ما عدا البلدان التي كان

فيها الحاكم يدعي لقب امير المؤمنين كشريف مراكش . وقد تباينت هذه الشعائر بتباين البلدان منذ سقوط الخلافة ، فنجد في الجزائر وتونس صيغة موحدة للدعاء تنص على انزال البركة على المجتمع الاسلامي وولاة امره بينما يدعو الوهابيون لـ « الامير الملك » ، وفى مصر هناك صيغة عامة يدعى فيها للملك المصري ، بينما لا يزال يدعى فى صلوات اهل السودان للخلفاء الراشدين الاربعة .

ان شعيرة صلاة الجمعة يجب ان تقام فى حضور ما لا يقل عن اربعين مصليا ! ويحصل ذلك فى المدن الكبيرة نسبيا حيث يسمح العدد باجراء المراسيم المذكورة . ولا تتعدد المساجد التي تقام فيها خطبة الجمعة فى غير المدن الكبيرة التى يمكن السكان فيها الاجتماع فى اي واحد منها . وتدعى المساجد التي تقام فيها صلوات الجمعة بالجوامع .

ان نشأة المسجد معقدة ، وليس هو بمحاكاة لبيت الله الذي يتألف اساسا من الكعبة وزمزم ، والذي احاطه الخلفاء بعد ذلك بصحن واسع اقيمت حواليه اربعة اروقة ، والمسجد كما تقول الاخبار الاسلامية التي يجب الا نقبلها برمتها ، نشأ عن الساحة التى كانت قبالة بيت الرسول فى المدينة ، حيث الف المسلمون الاجتماع للصلاة والاستماع الى الوحي والمواعظ ، وسرعان ما سقف جزء من هذه الساحة لحماية المؤمنين من لفح الشمس وتقلبات الجو . وتأثر المسجد الى حد ما بنماذج الكنائس المسيحية التي اعجب باطرزتها الفاتحون الذين حولوا بعضا منها ليجعلوا منه مساجد لاقامة الصلاة .

والمسجد بناء مستطيل الشكل يتكون من صحن ورواق مسقوف ، كان ذا سقف مستو فى البنايات القديمة يستند مباشرة الى

اعمدة ذات تيجان مزخرفة بزخارف متنوعة . وظهرت اخيراً العقادات فى كثير من اجزاء المسجد . اما بنائة المسجد فحدد اتجاهها بمكة ، لأن الكعبة هي قبلة العالم الاسلامي . وجعل المحراب تجويفا فى وسط الضلع القبلي من ظلة القبلة ، وذلك كى يتخذ المصلون جميعا مواضعهم الصحيحة باتجاه الكعبة . وقد زخرف المحراب كثيراً او قليلا بالرخام والفسيفساء وانواع الزخارف بالقاشاني واعتبر التقاة المؤمنون فى العصر الاموي زخرفة المحاريب بالتماثيل والصور زيغا بوصفه رجوعا وتقليدا لكنائس النصارى .

وتكون الاعمدة فى نفس الوقت صفوفا تمتد من صحن المسجد الى جدار القبلة . وتكون صفوف المصلين عمودية على صفوف الاعمدة وموازية لجدار القبلة . اما ظلة الصلاة فى اغلب المساجد ، فتنفتح على الصحن ومنه تستمد النور والهواء اللذين لا يدخلان بصورة مباشرة ، بل عن طريق كوى ضيقة فى الجدران الثلاثة للمسجد ؛ ومن هذه الكوى تنفذ حزم من اشعة النور تتلألأ على زخارف الاعمدة والسجاجيد التي فرشت بها الارض ؛ وفي البنايات الجميلة تكون الجدران من الخارج عارية فى حين انها من الداخل حيث تطل على رواق الصلاة مزينة بألواح الرخام والفسيفساء وقطع الخزف والقاشاني . والسقوف مستوية ومغطاة بالرصاص او معقودة او مؤلفة من عقادات مفروشة بالرصاص او بالقاشاني الاخضر . ويحاط الصحن باروقة ضيقة حيث يميل المصلون الى الجلوس فيها . وفي الصحن تفتح البوابة الرئيسية عادة تحت المنارة أو بجانبها ، ويتكون المدخل المباشر من الخارج الى ظلة الصلاة من بابين متواجهين .

إن ظلة القبلة التي تمتد من الصحن الى المحراب تكون عادة أعرض من الجنبات الثانوية الاخرى وإن كانت بنفس عرض الظلة المقابلة التى تكون فى الطرف الآخر من المسجد . وتمثل هاتان الظلتان مربعاً أو مستطيلا يكون معقوداً فى الغالب ومزخرفا . أما الارض فمفروشة بأجود الحصر والسجاجيد . بينما الكوى السقفية التى ينفذ منها الضوء تمثل في بعض الاحيان أجمل النماذج التى تقدم بها الصفارون القدماء . ويقف الامام « على رأس » المؤمنين ليؤمهم في الصلاة يحيط به أبرز الشخصيات المقيمة فى الحي وما جاوره من أنحاء المدينة .

يرأس الخليفة بشخصه او عن طريق من ينوب عنه صلاة يوم الجمعة. وقد هجر الخليفة عادة الوقوف وسط المصلين فى صدر الاسلام(١). واتخذ الى جانب حماية الحرس له مقصورة مقفلة من الخشب ابدع الفنانون المسلمون في تصميمها وتزيينها . كما سمح للنساء بالحضور الى المساجد حيث أقيمت مقصورات مشابهة خاصة بهن ، وذلك في حالة عدم وجود أروقة لهن . وأقيمت مقصورة الأمير قبالة المحراب في فضاء يدخل اليه من باب خاص يتصل بقصره إما مباشرة او عن طريق ممر طويل .

ويقع المنبر الى يمين المحراب ، وهو منصة قد تصنع من الخشب يرقى اليها بدرجات كما هو الحال في منبر الكعبة القديم . ومازالت اثار جميلة لمنابر القرون الممتدة بين (١٢ – ١٤ م = ٦ – ٨ هـ) باقية الى اليوم . وهذه المنابر المتحركة كانت تنقل في اثناء الاسبوع الى

---

(١) وذلك منذ العصر الاموي .

جهة جدار الكعبة وتوضع في مكان اقامة صلاة الجمعة . وكانت هناك منابر خشبية ثابتة ايضا ، وقد توجد اخرى من الحجر او الرخام كما نجد اليوم في الشرق . اتخذ الرسول منبرا ذا ثلاث درجات ، اما في العهد الأموى فغـدا المنبر سلما ذا تسع درجات جعلت اوطاها على شكل قوس . ولا يرقى المنبر سوى الامام الذي عين لالقاء الخطبـة إما ايام الجمعة او ايام الصيام . واقيمت في المساجد الهامـة منصة خشبية ثابتة في احـدى الحنايا المجاورة للمحراب . وهناك يتخذ الحزابون مواضعهم لتلاوة القرآن فى المناسبات التي يتلى فيها القرآن كله بسرعة ، فيتلو كل حزاب حزبا معينا منه .

ينفتح المدخل الامامي لظلة الصلاة على صحن المسجد المبلط عادة بالآجر المزخرف . وفي بعض الاحيان تغرس في الصحن اشجار ونباتات اخرى تضفي جمالا آخر على زخرفة البناء . ويقام وسط الصحن حوض وفوارة للمياه . كما يحاط الصحن غالبا من جوانبه الثلاث الخارجة عن ظلة الصلاة برواق او اكثر مفتوح من الداخل ومحاط من الخارج بجدار المسجـد . وتؤلف الابواب الجانبية في كثير من الحالات مدخلا مباشرا الى ظلة الصلاة . لكن المدخل الرئيسي هو الذي يؤدي الى الصحن عادة وتلك الابواب التي تصنـع من الخشب المحفور والمغطاة غالبا بقطع من النحاس المشغول المزخرف تؤدي اليها دهاليز مزينة بالجبس او القاشاني الأخضر . وتحوي المساجد المهمة قرب الابواب ، مرافق ودورات مياه ذات ماء جار وأخرى للوضوء .

يعلو المسجد برج هو المنارة (او المأذنة او الصومعة) يعلوها سطح يقف عليه المؤذن لالقاء الاذان على المدينة في اوقات الصلوات

اليومية الخمسة . بينما نجد في المساجد الكبرى عدة منائر تكون في زوايا البناء عادة . اما شكل المنائر وزخرفتها والمواد التي تصنع منها كالآجر والحجر فتختلف حسب الموارد الطبيعية للبلد وتقاليده . ففي سورية ومصر والمغرب ، كانت المنائر ابراجا مضلعة تحوي غرفا يمكن استعمالها كملاجىء . اما في فارس وتركية ، فالمنائر اسطوانية الشكل لا تحوي سوى السلم الذي يرقى بواسطته الى غرفة المؤذن . وهذان الشكلان بالاضافة الى الشكل الثماني ائتلفت جميعا في بعض المنائر الشرقية ذات القواعد المربعة التي يقوم عليها شكل ثماني ينتهي بشكل اسطواني . وتكون قمة المنارة في الشرق ذات شكول مختلفة في حين يتوجها في المغرب مصباح تعلوه كرة معدنية صفراء .

يلحق بالمسجد غالبا غرفة يوضع فيها الموتى هي بيت الجنائز وتكون قرب المحراب . ان المسجد هو البناية المركزية للحياة الاسلامية . فحين يأزف وقت الصلاة ، يجتمع عدد من المصلين هناك ، لأنهم يجدون فيه الشرائط الملائمة للتطهر الشرعي والارشاد الصحيح والطمأنينة التي تضمن صحة الصلاة . وقد ألقى الاساتذة ومازالوا دروسهم بين جدران المساجد . كما اعتاد القضاة قديما أن يقابلوا فيها قاصديهم . وتكون المساجد بالنسبة للمسافر محل اجتماع ومثابة سكن أحيانا .

لم تكن الدولة تشرف على المساجد كما لم تشرف عليها الهيئات الرسمية . وحينما يؤسس حاكم أو شخص ثري مسجداً نرى انه يصحب هذا العمل دائماً تخصيص أوقاف عليه . ان الاوقاف تدعى في المغرب بالحبس (جمعها حبوس بضم الحاء وينطقها المغاربة بالفتح) ، وهي

موارد لاصلاح وإدارة بناء المسجد والصرف على رواتب القائمين على خدمته وقد بدد نظار المساجد هذه الاوقاف عادة مما دعا الشخصيات البارزة الراغبة في كسب رضى الله والاشتهار بالكرم الى تجديد هذه الاوقاف وإلا فسيحل الخراب بالمسجد . وناظر الوقف بيده تجهيز ما يحتاج اليه المسجد وتعيين صغار موظفيه : كالبوابين والكناسين ومنظفي القناديل .. الخ ، ويعين رئيس الدولة أومن ينوب عنه الامام الخطيب في الجوامع كما يعين بقية الائمة والمؤذنين . وكان الرسول في الحقيقة أول امام وأول خطيب للجماعة الاسلامية ، واحتفظ خلفاؤه من بعده بعادة القيام بالقاء خطبة الجمعة في الجوامع الكبيرة في المدينة ودمشق وبغداد . كما أنابوا عنهم في هذا العمل كما اشرنا من قبل حكام الاقاليم الذى أنابوا عنهم بدورهم الشخصيات البارزة . وقد احتذى هذا المثل الحكام الصغار المستقلون جزئيا او كليا الذين استأثروا بحكم الولايات التي انفصلت عن جسم الدولة شيئا فشيئا . وانتخب أئمة الجوامع الصغرى من جانب الحكام والقضاة أو أئمة الجوامع الكبرى وغيرهم بوصفهم ممثلين لسلطة عامة وقصوى هى سلطة الخليفة أو السلطان . وجرت العادة بأن يكون للمؤذن صوت رخيم وان يكون كفيفا اذا امكن لاسيما وان العمى منتشر كثيراً فى الاقطار الاسلامية المتربة : احتراسا من أن يقع بصر المؤذن على شرفات المنازل حيث تجتمع النساء عادة .

ولما كانت الصلاة من الفرائض الاساسية في الدين الاسلامي وجدناها تقام عادة حين تطلب رعاية الله لدرء خطر واقع أو ينذر بالوقوع .

ان اختفاء القمر أو الشمس كنتيجة للخسوف او الكسوف

يؤدي الى اقامة « صلوات الخسوف او الكسوف » وهذه لاتختلف عن صلاة الجمعة الا من حيث عبارات الخطبة.

ان المطر في كل مكان ضروري لحياة الطبيعة لاسيما في الاراضى التي شهدت مولد الاسلام وانتشاره . وقد نظم الاسلام صلاة الاستسقاء التي لها شبيه في الديانة المسيحية ، وهذه الصلاة حلت محل طقوس قديمة محلية اقيمت لنفس الغرض . لكن المراسيم الاسلامية فى هذا الصدد بعكس المسيحية لم تحتفظ بالصور الشعرية للعادات القديمة ، فهي تتكون من مجرد صلاة تماثل صلاة الجمعة ، لكن يسبقها ثلاثة أيام من الصيام واقامة بعض شعائر دينية معينة ، وينصب على قمة منارة المسجد لوح خشبي سجلت عليه آيات من الذكر تتعلق بمناسبة الاستسقاء . وفى نهاية الخطبة يخلع المصلون ثيابهم ويقلبونها ظهراً لبطن ويرتدونها بعد ان يجعلوا عاليها سافلها . وهذا طقس قديم حشر ضمن الشعائر الرسمية . ويقوم العامة في هذه المناسبة بنوع من حركات السحر الانجذابي أي التى تدعو المطر للنزول بعرض شيء من الماء ، او ترمى بكائنات حية او احجار في مجاري المياه ، وتشترك الابقار في هذا الحفل بصفتها ممثلة على وجه الارض للغيوم الماطرة . ويمارس العامة هذه الطقوس بشكل يخرج عن أي تدخل ديني بالمعنى الصحيح للدين .

أما الحج فنظام يتصف بطرافة خاصة في الدين الاسلامي أولا لأنه احياء لطقوس قديمة ، وتوفيق بينها ، تلك الطقوس التي سادت في ارجاء الشرق السامي ، وثانيا لانه اجتماع عام فى حشد سنوي ضخم يشمل عشرات كثيرة من آلاف المؤمنين من شتى انحاء العالم ، والحج بهذا يعتبر الرابطة الحقة الوحيدة التى توحد

بين مختلف الجماعات الاسلامية ، والفرصة الوحيدة أيضا لايجاد وحدة بين الاقطار الاسلامية في جامعة اسلامية . وقد أدت العوامل الجغرافية الى جعل مكة منعزلة حتى مع تقدم المواصلات في القرن العشرين ، ومناخها لم يتح لها بيسر ان تكون مركزاً حيويا لحياة عقلية . ولكن المدينة التي قدر لها ان تحتوي على بيت الله غدت على الرغم من ذلك مركزاً عظيما يجذب الناس اليه . وسنبين فيما يأتي المراسيم التى تجري في مكة .

ميزت التقاليد المكية بدقة بين نوعين من المراسيم ، تلك التى تجري حول الكعبة وما لاصقها من الامكنة وهي العمرة ، وتلك التى يكون مسرحها اماكن تقرب من مكة هي عرفة ، ومزدلفة ومنى ، وهذا هو الحج ، والعمرة تتصل بقريش وحدها وتنحصر في نطاق مكة فقط ، اما الحج فيتصل بالحجاز بأجمعه . ولا تذكر السور المكية أي شيء عن الحج بالمرة ، لكن حتى اوائل السور المكية هذه تعترف لنا باجلال الرسول للكعبة حامية قريش وقوافلها وثرواتها . وليس هناك من سبب يجعلنا نشك بان محمداً صلى لربه امام الكعبة . ومن الثابت انه خلال آخر فترة من اقامته في مكة ولى وجهه شطر بيت المقدس ؛ ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى ولى وجهه شطر الكعبة ثانية ، وادخلها فى نفس الوقت ضمن المأثورات الابراهيميـــة معتقداً بأن ذلك سيجذب اليهود والنصارى حتما : هكـذا فاضت زمزم لتطفيء ظمأ هاجر واسماعيل الذي الذى ساعد اباه ابراهيم فى بناء الكعبة بيت الله الحق . وخطط الرسول الجديدة بعد البعث اتصلت بذكريات شبابه

الخاصة باعادة مجد مكة القديم اليها كأرض مقدسة ، وبوصف محمد زعيما لجماعة كبرت وتضخمت بانضمام القبائل البدوية اليها بالتدريج نرى ان القرآن لائم بين مراسيم الحج وبين قصة التوراة وادخل في ذلك فداء ابراهيم . وفرضت السور المدنية في القرآن الحج كفريضة على جميع المسلمين ، ولما كان الرسول يشتاق الى ان يدخل بوسائل سلمية الى مسقط رأسه كزعيم ، فانه فاوض القرشيين ذاكراً في مفاوضاته العمرة والحج ليقنعهم بأن يسمحوا له بالدخول بحرية على رأس جماعته المؤمنة ؛ وفى السنة التى عقبت محاولة الحديبية غير المثمرة ، قام الرسول بالعمرة الى مكة الخالية من السكان (١) واخيراً عام ٦٣٠ م (٨ هـ) بعد فتح مكة قام الرسول بعمرة وبحج تقول الاخبار اننا نجد فيها القواعد التي تطور وفقها الحج الاسلامي بشكله النهائي ، وهما مزيج من شعيرتين قديمتين الف بينهما الفقهاء وجعلوا منها اهم فريضة فى الاسلام .

ان العمرة ، اي الشعائر التي تقام في مكة حول الكعبة ، ادخلت اذن ضمن مجموعة الشعائر التي تكون الحج عند المسلمين . لكن في سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) كانت مكة لا تزال تحتفل بجموع سكانها من المكيين فقط بأول شهر رجب و هو عيد العمرة الذي تستقل به مكة وحدها . الا انه على اية حال جاهد العلماء لالغاء هذا العيد بوصفه شعيرة خاصة بمكة واعتبروه مجرد عمل نافلة ، تمكن اقامته في اي وقت خلال العام ، عدا شهري الحج ذي القعدة وذي الحجة او الشهر الذي يزور فيه القادمون الى مكة بيت الله وما جاوره من اماكن مقدسة .

---

(١) لان صلح الحديبية نص على ان يخلي القرشيون مكة مدة زيارة المسلمين لها

ولعل وصفاً موجزاً للاماكن المقدسة يسهل لنا عرض الطقوس الخاصة بهذه الفريضة المزدوجة « الحج والعمرة » التى امتزجت شعائرها فأصبحت بمجموعها الحج لدى المسلمين ، وسنتابع المسلم في حجة منذ ابتداء سفره حتى رجوعه الى عائلته .

في منطقه وعرة لوحتها الشمس يمتد واد بين الجبال الحمر المجردة عن اي شجر او عشب ، وحين تنفجر الرعود التى تذكر بالطوفانات القديمة ، تكتسح الوادي لمدة ساعات سيول من المياه الغاضبة التى تجري وتدمر التربة التي لا تستطيع امتصاصها . لكن هنا وهناك شقوقا على سطح الارض الصلب ، تجد المياه لنفسها منافذ فيها ، وهكذا تتكون آبار تحت الارض تغذي الجداول القليلة الدائمة التي يحويها الوادي . وتعتبر زمزم اغزر هذه الآبار واكثرها غنى على الرغم من تركيبها الكيمياوي الصلب : وحول زمزم وعلى الطريق الممتدة بمحاذاة البحر الاحمر من سورية الى اليمن بنى الناس مكة ، وحاولت الاخبار الاسلامية أن تصل بين ذكرى ابراهيم وبين كل التاريخ الديني للحجاز ، فأظهرت هاجر وقـد نبذت هي واسماعيل في الصحراء ، تعدو من تل الى تل تطلب العون ، وهنا ينبري الملك جبريل فيفجر لها ينبوعا من التربـة المجاورة للطفل الذي غدا الجد الاعلى لسكان بلاد العرب الوسطى ، وذكرت نفس هذه الاخبار ان ابراهيم جاء الى زمزم وأعاد بناء الكعبة بيت الله بمعاونة اسماعيل على نفس الموضع الذي أرادته المشيئة الالهية منـذ الازل ، وبنى آدم على هذا الموضع كذلك الكعبة ، ولكن جاء الطوفان فابتلعها ودمرها .

إن الكعبة بشكل مربع يحيطه جدار صخري سقف منذ زمن

بعيد بسعف النخيل ، ثم احيط بسطح منحدر قاسى كما تقول الاخبار الاسلامية من كفر قريش التي ملأته بأصنامها حتى حطمها الرسول ، وجعل البيت خاليا بملؤه الله غير مرئي وبعيدعن متناول اليد . والكعبة اليوم على شكل مكعب ضخم ، مكون من صخر متآكل لتقادم الزمن وليس له أي اتجاه واضح ، طوله اثنا عشر متراً وعرضه عشرة وارتفاعه ستة والسطح منحدر كي يصرف مياه الامطار عن طريق ميزاب خشبي مغطي بمعدن مذهب تتجه نهايته نحو الجانب الشمالي الغربي للبناء . اما جوانبه الاربع فمغطاة كلية بنسيج قطني ممزوج بالحرير ، أخضر اللون هو الكسوة التي صنعت في القاهرة على حساب الدولة المصرية ، وهذه الكسوة ترسل سنويا في موكب حافل عند اوان الحج ، مع المحمل وهو قبة رمزية يبدو انها تمثل جلالة الملك . وعلى ارتفاع ثلثي الكسوة وضع شريط واسع من قماش اسود طرزت عليه آيات قرآنية تتعلق بالكعبة : هذا هو حزام الكعبة . والكسوة التي تخلعها الكعبة كل عام لا تضيع عبثا : لان بني شيبة وهم عائلة قرشية قديمة اخذت على عاتقها الواجب التقليدي الخاص بحراسة بيت الله ، تهدي بضع قطع جميلة من هذه الكسوة الى كبار الشخصيات التي تدين لها هذه الاسرة بالفضل والحمد على هداياها ، كما تمارس هذه العائلة تجارة رابحة ببيع القطع المتبقية من الكسوة والتي تباع في الحوانيت الصغيرة المحيطة بالمسجد الحرام .

وضع الحجر الاسود في الجدار من الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة ، على ارتفاع متر ونصف من مستوى الارض الحالي : وهو قطعة من الجرانيت الاملس تهشمت اما بسبب القرامطة الذين نقلوا الحجر الى الاحساء ، أو كنتيجة لحادثة محلية . وضمت قطع الاحجار

الى بعضها ، واحيط الجرم كله (وقطره اربعون سنتمترا) باطار فضي عرضه عشرة سنتمترات .

الى يمين الركن الذي وضع فيه الحجر الاسود ، وفي بداية جانب الكعبة الذي ينتهي باتجاهه الشمالي بركن العراق ، يوجد باب للبيت يرتفع مترين عن الارض الخارجية ، ويرقى اليه بسلم خشبي متحرك ذي اربع درجات ، وتفتح الكعبة للمؤمنين في أوقات معينة من السنة ، لكن بنى شيبة يمنحون حق الدخول للاشخاص الاسخياء في أي وقت شاءوا ؛ وتعتبر أيام الدخول العامة الى الكعبة أيضا أيام بركة لهذه الاسرة الضخمة العدد لانهم يبيعون فيها حق اقامة الصلاة على البقعة التي صلى عليها الرسول ، وللمشاركة فى كنس وغسل البيت ، وحمل الماء من زمزم لغرض الغسل وغير ذلك من الاعمال. ويصرف هذا الماء بوساطة مجرى وضع الى يمين الباب خارج الجدار . : وهو محل شغله فى القديم مقام ابراهيم .

وثمة حجر مقدس سحيق في القدم تشير اليه الاخبار الاسلامية على أنه الحجر الذى تسلقه ابراهيم حين وضع الطبقات العليا من الكعبة ، ومنه دعا الاجيال القادمة الى « الحج » ؛ وما زالت آثار أقدامه بادية عليه . « والمقام » هذا يقع اليوم على بعد قليل من جدار الكعبة ، داخل قبة من الحجر والمعدن على شكل خيمة ؛ ويأتي الناس للمس وتقبيل الجدران الخارجية للمقام .

إن كلا من الحجر الاسود والباب المقدسة والمقام تفضي على هذه الواجهة من الكعبة قدسية خاصة . وفي مقابل هذه الواجهة ترتفع قبة زمزم ورواق بني شيبة .

ويمتد بين الركن العراقى والركن الشامي ، بناء ملحق بالكعبة ،

يحيطه جدار شبه دائري يترك ممراً مفتوحا أمام الركنين الآخرين للمسجد . وهذا هو « الحجر » الذى تروي الاخبار انه موضع قبور هاجر واسماعيل وأنبياء عديدين ، وحيث يقال ان ماشية هاجر كانت توضع فيه : وتضيف الاخبار ان الحجر كان فيما مضى جزءاً من الكعبة ، لذلك اعتبرت البقعة التي يحويها مساوية في القدسية التى للبيت الحرام نفسه .

وعلى الواجهة التى بين الركن الشامي والركن اليماني ، يوجد الركن الرابع للكعبة في موضع مناظر لموضع الحجر الاسود وباب المسجد ، وتحتفظ الاخبار بذكرى حجر مقدس ثان وبآثار باب آخر ، بني في نفس الوقت الذي جددفيه بناء الكعبة عبدالله بن الزبير ، وسوره الحجاج ثانية .

أحيطت الكعبة بطريق مقوس مبلط بالحجر وهو المطاف وفيه يقوم الحجيج بالطواف . وهو يمتد تحت مستوى ارضية الكعبة وكذلك تحت مستوى فناء المسجدالواسع ، لانه في هذاالمستوى كانت السيول التي تندفع من الجبال كثيراً ما تحفر لها مجرى عميقاً في التربة .

وتقوم « قبة زمزم » خارج « المطاف » مقابلة للركن الذي فيه الحجر الاسود ، هذه القبة التى تغطي فوهة البئر العريضة التى يجري في اعماقها الينبوع المقدس . وفي أيام الحج المجيدة ، نجد ان جموع الحجاج تحتشد هنامتلهفة أسوة بالرسول الى رفع المياه المقدسة بالدلاء المعلقة بالحبال التى حفرت من جراء الاحتكاك طوال القرون حفراً عميقة في الجدار الصخري . أما أولئك الحجاج السعداء فهم الذين اتيح لهم ان يرفعوا ماء كافيا لبل كل ثيابهم ، فيتغلغل هذا

الماء المقدس الى نفوسهم . ويأتي آخرون ليغمسوا اكفانهم في البئر ثم يجففونها بعدئذ على بلاط الفناء الكبير . ويباع ماء البئر كذلك في جرار من الفخار ، وبيعها عبارة عن مورد اضافي لخدم زمزم ، وهم « الزمزميون » . والحق بالقبة مخزن تخزن فيه الادوات التى تخص المسجد . وهناك سلم يؤدي الى السطح ومنه يعلن مؤذن زمزم قبل غيره اذان الصلاة : وجرت العادة ان يضبط وقت هذا الاذان بملاحظة آلات قديمة استعيض عنها بمقياس الزمن ضبط وقته حسب وقت غرينتش .

يقوم الى جانب قبة زمزم قوس بوابة بني شيبة الذي يبدو كشاهد على السور القديم للمسجد . وعلى بعد قليل وقريبا من قبة مقام ابراهيم وخارج المطاف ، يشاهد « المنبر » الذي يلقي من فوقه الامام خطبة الجمعة . وهذا المنبر الذي أصبح منذ حكم السلطان العثماني سليمان سنة ١٥٦٠ م ثابتاً لأنه صنع من الحجر والرخام ، كان قبل ذلك من الخشب وضع على عجلات ؛ وحين الخطبة يدفع الى الخلف حتى جدار الكعبة . كذلك بنيت خارج المطاف ثلاث قباب صغيرة ليستعملها أئمة المذاهب الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي؛ أما امام المذهب الشافعي فله امتياز خاص اذ يقيم الصلاة خلف المقام.

لقد أحيط المسجد الصغير وملحقاته بصحن واسع ، غطيت تربته بحصى صغيرة تقطعها ممرات مبلطة بالحجارة ؛ وهـذا هو صحن المسجد الذي تحده أروقة مسقوفـة ذات عدة طبقات من الاقواس ، وشكله وحجمه غير اعتياديين . ومساحة الصحن حوالي (١٠٠) متر في (١٦٠) متراً ، وهـو يساوي على وجه التقريب مساحة الفناء الداخلي لمتحف اللوفر . وتحوى الاروقة (٢٢) باباً

يعتبر باب السلام الباب الرئيسي فيها ، وهو في الشمال الشرقي ،وباب الصفا في الجنوب مقابلا لركن الحجر الاسود .

ان هـذا الباب يؤدي الى « الصفا » ، وهو تل صغير يكون هو و « المروة » ، الواقع في شمال شرق المسجد ، حدود « المسعى » وهو الطريق الذي على الحاج ان يخترقه سبع مرات معجلا أكثر بين ركني المسجد ، وهذا تقليد لهاجر أو بالاحرى اتباع لطقس في العدو قديم . واذا صعد الانسان طريقـاً متدرجاً من بضع درجات فانه يصل الى قمم التلال المقـدسة . هذا هو الطريق القديم الذى كان موضع السيل في وقت من الاوقات ، والذي يحاذي المسجد من الجانب الشرقي ، هو اليوم شارع « المسعى » وهو خط طويل تقوم عليه حوانيت الحلاقين ، التي يزحها باستمرار الحجاج الذين يقومون بحج « التمتع » . (١)

هناك كثير من الاماكن المقدسة كقبر خديجة أول زوجات الرسول وقبر علي (٢) وغيرها من القبور ، تجـذب اليها الحجاج الذين يستطيعون اطالة أمد بقائهم في مكة ؛ لكن هذه « الزيارات » ليست ذات شعائر وطقوس خاصة .

يزور الحجاج مقبرة مكة ، كما يفعل أهل المدينة وبغـداد ودمشق والقاهرة ، حيث يعتقدون انهم يجدون فيها قبور الصحابة وقبور الشخصيات الجليلة ، ويحسبون ان الدعوات التى يرفعونها الى الله من أجل الصحابة تجلب للزوار بركة عميمـة عوضا عن

(١) سوف يشرح المؤلف معنى حج التمتع فيما بعد .

(٢) دفن الامام علي فى المكان الذي اغتيل فيه وهو الكوفة (النجف اليوم) .

ذلك . وكانت الزيارات الدينية فيما مضى تؤدي لبيت خديجة زوج الرسول الاولى ، ثم الى البيت الذي ولد فيه الرسول ، والبيت الذي اجتمع فيه مع اتباعه والى سكن علي الخ . غير ان الوهابيين خلال غزوهم لمكة سنة ١٨٠٣ م زعموا انهم قضوا على هذه الاماكن الوثنية؛ أما اليوم فان سادة بلاد العرب الوسطى المسالمين ، يمنعون كل اشارة تدل على اي نوع من التقديس الشخصي للرسول وآله . كما انهم وقفوا ضد بعض العادات المتعلقة بجمع المال وأساليب الحصول عليه

تعتبر المنطقة المحيطة بمكة ارضا حراما ؛ وقد حددت السنة الاسلامية حدودها بالنقاط التي توقفت عندها الشياطين حين رأت النار التي أوقدها ابراهيم على جبل أبي قبيس ، فوق المدينة المقدسة؛ ومن ثم سوّر الفراغ الداخل ضمن محيط الدائرة المستنيرة بنور الكعبة . ووضعت أكوام من الحجارة في تلك النقاط غير انها حل محلها اليوم أعمدة تشير الى بدء حدود « الحرم » . ان فكرة الارض المقدسة ليست من ابتكارات الاسلام : فهي فكرة انتشرت في بلاد العرب القديمة ، حيث أحيطت أماكن الآلهة المقدسة باراضٍ حجزت لترعى عليها بسلام الماشية المخصصة كقرابين للآلهة . ان حرم مكة مصان وله حرمات خاصة . وفي ضمن حدوده يجب عدم التعرض للحيوانات الآهلة ، ماعدا بعض الانواع الضارة ، كما ان الحشائش البرية يجب الا تقطع ؛ وحتى التربة يجب احترامها فلا يحمل منها ذرة واحدة خارج الحرم . هذه المحرمات عامة وعلى الجميع اطاعتها"، وهي مستقلة تماما عن القواعد والتعاليم الخاصة بشعائر الحج . وهذه توضح لماذا يمنع غير المسلمين منعا باتا من الدخول الى منطقة مكة .

ان واجب كل مسلم ان يؤدي الحج الى مكة مرة فى حياته. لكن هناك شروطا : فيجب أن يكون بالغا ومتمتعا بصحة جيدة جسميا وعقليا ، وميسور الحال بحيث يستطيع أن يتكلف مصاريف رحلته فى الوقت الذي يضمن تدبير معيشة عائلته خلال غيبته ؛ وان يكون الطريق الذي يسلكه أمينا وغير ذلك . أما المرأة فتستطيع القيام بالحج باذن من زوجها أو وليها . ويجب أن يصحبها إما زوجها أو تكون تحت حماية شخص آخر . ويستطيع المسلم أن ينوب عنه مسلما آخر فى أداء فريضة الحج ، وتكون الحجة له وليست للشخص الذي انابه ؛ وعلى هذا الاخير فى جميع الاحوال أن يتذكر وينوى بانه يؤدي الحجة وشعائرها باسم الشخص الذي كلفه ، لا باسمه هو . والمسلم الذي يموت دون أن يؤدي الحج من غير عذر شرعي فانه يبقى خاطئا وتوضع خطيئته فى الميزان يوم الحساب ؛ لذلك يصبح من الضروري لسعادته الابدية أن يؤدى عنه الحج بعد موته ؛ ويستطيع ان ينص فى وصيته على تعيين مصاريف لهذا الغرض ، واذا لم يفعل فعلى ورثته أن يقوموا بهذا العمل الذي يعتبر من أعمال التقوى وذلك لرفع الخطيئة عنه .

ويعمل بعض الاشخاص من البارزين على أن يؤدي جثمانهم الحج وأن يدفن بعد ذلك فى مكة أو المدينة ضمن الارض المقدسة . ويعمل الشيعة على أن تكون مراقدهم الى جانب أئمتهم في كربلاء أو فى مشهد طوس .

ان كل مسافر يترك وطنه ويتعرض لاخطار الطريق الغامضة عليه أن يحمى نفسه ضدها بنوع من الشعائر الاستعطافية : وهي بالنسبة للحجاج خاصة ذات أهمية . فحين يتخطى عتبة منزله عليه

ان يفعل ذلك بقدمه اليمنى أولا . ثم يذهب الى المسجد ويصلي ركعتين ؛ ويتبعه أصدقاؤه بدعواتهم ، ويفكر خلال سفرته باستمرار في الواجب المقدس الذي سيجاهد في سبيل تأديته . لكن دوره كحاج لا يبدأ حقيقة الا حين يبلغ حدود الارض المقدسة .

وقبل الوصول الى حدود الارض المقدسة ، يجد الحاج على الطرق التي تنتهي في مكة ، محطات هي « المواقيت » حددت مواضعها الاحاديث التي وضعت بعد الرسول : فهناك حديث يحدد مثلا محل توقف حجاج العراق ، وهي منطقة لم يفتحها المسلمون الا بعد وفاة الرسول . والاسماء الحديثة للمواقيت لا تناظر على اية حال تلك الاسماء التي حددتها السنة من قبل . وفي مثل هذه المواقيت على الحاج أن ينجز الشعائر الخاصة بالاحرام .

سبق أن أشرنا الى ان شعائر الصلاة تؤدى ضمن طقسين هما : الاحرام والتحليل ؛ وفي حالة تجرد روحي يتحد المصلي بالله . لكن الحاج يقترب من بيت الله ، الكعبة ، اقترابا ماديا في الحج أو العمرة : فيتمثل بشخصه أمام الحضرة الالهية . وهكذا نجد ان طقس الاحرام في الحج ينطوي على صورة أكثر تعيناً مما يحصل في الصلاة ، فلا يعود مجرد تلفظ الصيغ الكلامية كافياً . ان على الحاج او يليق به ، مادامت القاعدة تسمح بشيء من التعديل أن يلبس ثيابا قديمة الطراز هي : شريط من القماش حول الفخذين حتى أعلى الركبتين وهو الازار وآخر على الكتفين وهو الرداء ؛ ويلبس في القدمين خفان من الجلد وحده يربطان بخيوط من الجلد أيضا وهذا هو النعل : وهذا يمثل اللباس القديم لابراهيم « ابي الاسلام » ؛ وما زال كذلك لباس كثير من السكان في الاراضي الواقعة على ضفاف البحر الابيض المتوسط وصحاري

بلاد العرب وسورية . يقوم الحاج اولا « بالعمرة » ثم يتحلل منها في مكة ، وفي اليوم السابع من شهر ذي الحجة يجدد « الاحرام » « لغرض الحج » ، دون تخطي الارض المقدسة خلال هذه المدة . وفي الحقيقة يعتبر « القران » حج خاصة الاتقياء المتدينين الذين يصلون الى مكة قبل بدء الحج بوقت قصير ، اما « الافراد » فهو حج المسلمين الذين يصلون في اللحظة الاخيرة ؛ في حين يعتبر « التمتع » حج المسلمين المسافرين أو التجار الذين يقومون بالعمرة عند وصولهم الى مكة قبل زمن الحج بوقت طويل نسبيا .

يقوم الحاج بتقديم الضحية الى الله وهو محرم ، تلك الضحية التي يقودها الى « منى » ؛ ويسم ضحيته بعلامة ظاهرة هي أثر من الآثار القديمة في بلاد العرب . ونجـد البدوي اليوم كأسلافه وككثير من الناس في كل قطر يسم ماشية قطيعه بعلامة خاصة هي « الوسم » . وكان أسلافه يضعون علامات خاصة على جلود أو آذان البهائم المستثناة التي يقدمونها فيما بعد الى الآلهة ، والتي تحرر من ثم من نير الانسان هذا الطقس القديم مازال الحاج يقوم به حين يقطع سنام الجمل الذي ينوي التضحية به الى الاله ، وحين يربط عنق الضحية من الماشية بقلادة صنعت من صندلين ربطا بشريط جلدي أو بخوص النخيل ، وهذا هو « التقليد » كذكرى دون شك لتلك الاوقات التي كان يقدم فيها الجاهلي نفسه عاريا مجرداً امام بيت الله .

من هذا الوقت فصاعداً ، يكون الحاج المحرم عرضة لمختلف المحرمات الشخصية كنتيجة للشعائر التي أنجزها حين قام بالاحرام ، والتي لا علاقة لها بالقوانين المحلية التي تحرم الصيد او غيره ، والتي سبق ان وصفناها ؛ وعليه ان يمتنع كذلك عن الاتصال الجنسي وكل

ما يؤدي اليه او يشجع عليه كالعطور والدهون الزكية الرائحة والحلى وغير ذلك . وعليه الا يحلق أو ينتف أية شعرة من رأسه أو جسده أو يقلم أظافر يديه وقدميه . وهذا التحريم الاخير يعتبر خطوة لتضحية شعر الرأس والاظافر وهذا رمز لتضحية الانسان نفسه ، وليس من الخطل الاعتقاد بأن التحريم الاول كان في الجاهلية خطوة تمهيدية لنوع من التماس المقدس .

يدخل المؤمن الى مكة من طريق سلكه الرسول من قبل . وبمجرد أن يصل الحاج يذهب الى المسجد حيث يقوم بطواف القدوم المفروض على القادمين الجدد . ويدخل الى المسجد من باب السلام ، فيتخطى عتبته بتقديم قدمه اليمنى اولا . ثم يخترق الصحن ويتجه نحو الكعبة والحجر الاسود ؛ وإن لم يمنعه الزحام فانه يقبله ، وهذا عمل يمنحه سروراً إلهياً . وإن لم يستطع القيام بذلك فيلمسه بيده اليمنى أو بطرف عصاه التي يقربها من ثمة الى شفتيه ليقبلها . ثم يقوم الحاج بسبعة أشواط حول الكعبة متحركا من اليسار الى اليمين ، تكون الثلاثة الاولى هرولة تعزوها السنة الى الرسول لأنها تريد أن تمحو ذكرى أكثر الطقوس الجاهلية وضوحا . وفي بداية كل شوط يلمس الحاج الحجر الاسود . كذلك يلمس قرب ركن اليمن البقعة التي يقال انها تعيد ذكرى حجر قديم . ومن الجائز أيضاً أن الحاج كان في القديم يلمس أركان الكعبة : وتميل السنة الى اهمال ركني العراق والشام مادامًا ليسا في نهايات الكعبة الاصلية التي تمتد حتى الحجر (بكسر الحاء) . وبعد انتهاء الحاج من الاشواط السبعة يصلي ركعتين خلف « مقام ابراهيم » .

ويستطيع الحاج أن يعد هذه الاشواط كجزء من مراسيم

العمرة او الحج اللذين ينوي القيام بهما . لأن شعيرة الطواف تسبق كل واحدة من هذين العملين المهمين . كذلك يشملان « السعى » وهو شوط ما بين تلي « الصفا » و « المروة » وهذا ما يفعله الحاج مباشرة بعد الطواف . ويترك الحاج المسجد من « باب الصفا » ذاهبا الى أول المحلين المقدسين ثم الى الآخر ضمن « المسعى » ومتحركا بين العلامتين اللتين تعينان الحدود المجاورتين لاركان المسجد بنوع من الهرولة كتلك التى قام بها في الاشواط الثلاثة من « الطواف » والتى اشتقت من نفس الشعيرة القديمة . بهذا يكون الحاج قدأنجز واحـــدا من سبعة مراحل تؤلف السعى : ثم يكر راجعا على قدميه ويعيد العملية سبع مرات ؛ منتهياً بالمروة آخر الامر ، وتتلى أثناء الطواف والسعي آيات من القرآن والادعية الدينية ، لا نستطيع أن نأتي عليها في هذا الكتاب الموجز .

حين الانتهاء من هاتين الشعيرتين ، « يحلل » الحاج الذي يؤدي العمرة وحدهـــا نفسه ، كما يحلل نفسه الذي يؤدي العمرة وحج « التمتع » وذلك بحلق رأسه . عندها يتحلل من كافة المحرمات التى فرضها عليه الاحرام ، ويستطيع التلذذ فى المـــدينة المقدسة بكل المسرات البسيطه التي هيئت له . ويوصي بزيارة المسجد باستمرار والتأمل في بيت الله ، واكمال أشواط الكعبة النافلة ، كما يوصي الحاج أيضا بزيارة المواضع التاريخيـــة التى تعيد الى الذهن ذكرى الايام الاولى للاسلام . أما حاج « القران » فيبقى في مكة دون تحليل نفسه بعد العمرة .

يبدأ الحج في السابع من ذي الحجة بخطبة تلقى في المسجد من المنبر المسند الى جدار الكعبه ، يلقيها قاض حنفي أو من يعينه نائبا

عنه في ذلك . والخطبه التى تعقب صلاة الظهر مباشرة تعظ الحجاج وتزودهم بخطة معينة للشعائر التى سيشاركون فيها بعد قليل .

أما اليوم التالي وهو الثامن فيدعى بوم التروية ، لانه قيل ان الحاج عليه أن يجهز الماء لنفسه ولدابته . ويجتمع الحجاج المشاة والفرسان وراكبوا الابل والسيارات كل هذا الخليط غير المتجانس تتقدمة المحفات التي يحمل بها العاجزون عن السير وعلى رأسه موكب المحملين الرسميين السوري والمصري فيسير الجميع نحو عرفة الواقعة على بعـد أربع ساعات (بالنسبة لراكبي الجمل) ويمر الجميع بمنى فى طريق طويل يجتاز واديا قاحلا غير ذي زرع وعلى جانبيه أبنية تستعمل أيام الحج فقط . ومحاكاة للنبي يقوم الحاج فى منى بصلاة الظهر ويبقى هناك خلال الساعات الاولى من ليلة اليوم التاسع . إلا ان طول هذه المدة ليس محدداً بأية قاعدة على أية حال .

إن الشعيرة التى تقام في اليوم التاسع فى عرفة هي آخر مراسيم الحج ولحظته الحاسمة ، وإن لم يقف الحاج وقوف عرفة هذا عد حجه باطلا . إلا أن الاجتهادات التى تسعى الى انقاذ الحاج من الخيبة التى قد يمنى بها بسبب عدم حضوره لعراقيل ليس له فيها يد قد تقابله ، سمحت هذه الاجتهادات أن يحضر هذا الحاج الى عرفة فى أية لحظة كانت بين غروب شمس اليوم التاسع وفجر اليوم العاشر ، هكذا يعتبر هذا الحاج قد أكمل وقوف عرفة بصورة رمزية . الا أن هذا التأخير يستدعي أن يقدم الحاج ضحية كفارة عن تأخره .

ان عرفة ، حيث تقام شعائر « الوقوف » امام الله هي سهل ضيق محاط من أحد جوانبه بتلال على شكل نصف دائرة ، في وسطها يرتفع جبل الرحمة المقدس على صخور عارية مركومة على بعضها . وفي زمن

الخلافة العباسية عملت بعض التصاميم لجلب مياه الشرب الى هـذه الناحية الجرداء حيث يجتمع فيها احيانا خلال نهار كامل وتحت شمس محرقة بين ستين الف الى ثمانين ألف شخص ، مع دوابهم وخيامهم وتجهيزات طعامهم وضروراتهم الاخرى فضلا عن الحاجيات التى ينبذها اصحابها المتعبون من سفرتهم الطويلة والذين امتلأوا بفيض من المشاعر الدينية فزهدوا في تلك الحاجيات . الا ان التسيب الاداري الذي يميز الشرق أدى بسرعة الى انهيار قواعد كانت يوما ذات اهمية فائقة . وقد احتج المثقفون من المسلمين على الاهمال الذي يهدد الصحة العامة ، وتجاهد الحكومة الوهابية اليوم لتجد حلا لهذه المشكلة .

وبعد ظهر اليوم التاسع حينما تتجاوز الشمس موضع السمت يبدأ وقوف عرفات وهو الشعيرة الاساسية في الحج ، فيقف الحاج أمام الله وتتلى أدعية دينية تحت ارشاد امام يلقي خطبة مناسبة ، وهـذه الخطبة هي واحدة من أربع خطب هي من شعائر الحج . وحالما تغرب الشمس تبدأ شعيرة طريفة جداً لا نعرف بالضبط منشأهـا ودلالتها (١) .

ثم يذهب الحجيج الى واد آخر يدعي بمزدلفة يقع بين عرفات ومنى يعلوه مرتفع يسمى قزاح (بضم القاف) وهو مرتفع نظر اليه باجلال في الجاهلية ، حيث يجب على الحجاج أن يقضوا ليلة العاشر من الشهر ويؤدوا وقوفا سريعا قبل فجر النهار العاشر . لكن على الرغم من محاولة رجال الدين المسلمين ان يقاوموا هذه العادة

(١) لا جدال في الحج .

نجد ان المسيرة من عرفات الى المزدلفة عند غروب اليوم التاسع تحصل بشكل اندفاعي مضطرب حيث يتدفق سيل عارم بفظاعة ، وهذا ما يدعى بالافضاء ، ذلك الافضاء الذي يؤدى كل عام الى حوادث قتالة حتمية . ويتلو هذا الوقوف في مزدلفة ، الشبيه بوقوف عرفات من حيث وجود الافضاء الذي يرجع بالحجيج الى منى عند شروق الشمس . وعند اليوم العاشر من ذي الحجة فى منى تنتهي شعائر الحج .

حين يصل الحجيج الى سفح عقبة الذي ينحدر الى منى ، يجدون أنفسهم في بداية الطريق الذي يحاذي بنايات المدينة الموقتة ، وعند شاهد حجري بنى امامه ما يشبه الحوض ، وهنا جمرة العقبة التي يرمي فيها الحجيج كواجب ديني سبعة احجار صغار التقطوها من مزدلفة ، ويصحبون ذلك بصيغة التكبير : « باسم الله ، الله أكبر ! » . ان دلالة هذه الشعيرة التى نلاحظها في أشكال متباينة في أنحاء الشرق السامي وشمال افريقية جميعا والتى لها مثيلات فى أماكن أخرى ، ليست واضحة تمام الوضوح بحيث نستطيع شرحها في بضعة أسطر . و التراث الاسلامي لا يحمل نفسه عبء تقديم شروح وافية في هذا الصدد : فابراهيم الذي أغراه الشيطان في هذا المكان ولاحقه نجا بالقائه سبعة أحجار ، وما الشعيرة الحالية سوى تقليد لهذا العمل الدينى الذي قام به سلف المسلمين . ويدعى الشاهد الحجرى المار الذكر فى اللغة الدارجة « الشيطان الكبير » .

وهنا يضحي الحاج ضحيته التى نذرها ، إما عند احرامه ، او خلال الحج . ويوجه رأس الضحية باتجاه الكعبة وينحر رقبتها ، اما صاحبها او أي شخص آخر اذا كانت الضحية مشتركة بين عدد من

الحجاج كما يحصل كثيراً . ويأكل الحجاج جزءاً من اللحم ويوزع الباقي على الفقراء الذين جاءوا من مكة لهذا الغرض ، ويحمل الحجاج بعض قطع اللحم بعد تجفيفها في الشمس ، لكن جزءاً كبيراً من جثة الضحية يترك مطروحا على الارض غير مدفون تماما ، ويؤدي ركام اللحم هذا الى انتشار الاوبئة الخطرة رغم جفاف المناخ . ومع ذلك يستمر الناس عدة أيام أخرى في منى . ومن المحتمل أن التضحية كانت تجري قبل الاسلام في مكان معين في الوادي ؛ لكن السنة ثارت ضد هذه العادات القديمة مصرحة ان التضحية يمكن أن تكون في أي جزء من منطقة منى . ومن هذه الاضاحي اشتق اسم اليوم العاشر من ذي الحجة « يوم النحر » .

ومع ان التضحية ليست بأهم جزء من الحج ، وان وقوف عرفة هو العمل الرئيسي نظريا ، فان يوم منى هذا هو الذي يحتفل به في ارجاء العالم الاسلامي . ونرى ان كل رب عائلة يضحي بحيوان يكون رأسا من الغنم في العادة في العاشر من ذي الحجة ؛ ويذبحه موجها رأسه نحو مكة ، ويوزع لحمه على الفقراء . ان عيد الاضحى او « عيد القربان » يدعى كذلك بالعيد الكبير .

بعد اتمام النحر يسلم الحاج نفسه الى احد الحلاقين الكثيرين المحترفين او الموقتين ، الذين تزخر بهم منى في هذا اليوم ، فيحلق شعره ويقلم أظافره ، وتدفن الفضلات في الارض بعناية . من هذه اللحظة يكون الحاج قد تحلل جزئياً . وهذا هو التحلل الصغير ، لكن التحريم الجنسي يظل قائماً هو وملحقاته من تحريم للعطور وغيرها . يظل الحاج محرما ولا يتحلل كليا كما لو كان لهـذا التحريم علاقة ما بالكعبة ، وهكذا لا يتمتع بالتحلل الكبير الا بعد ان يكمل

، طواف الافضاء في بيت الله ، وقد سمي بهذا الاسم لان الطواف ينجز بعد انصراف سريع من منى الى مكة . ويتلو طواف الافضاء سعي بين الصفا والمروة ، ان لم يكن الحاج قد فعل ذلك في بداية الحج أي حين يكون قد أدى العمرة وحج القران .

تعترف العادات الحديثة بأن الحاج قد أكمل لحد الآن مناسك الحج ، ويستطيع اما الرجوع الى وطنه أو البقاء في مكة حيث يكون له الخيار في اللهو البريء والقيام باعمال تقية او الاشتغال بالتجارة . لكن هذه ليست هي القاعدة التي يسندها اجماع جميع علماء المسلمين . ويقرر الشرع ان على الحاج أن يعود الى منى ويقضي ثلاثة أيام هناك هي الـ : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، من ذي الحجة ، وهذه الفترة يدعوها التراث الاسلامي بأيام التشريق ، اشارة دون شك ، كما يقال ، الى قطع لحم الاضاحي التي يجففها الحجيج في الشمس . ويلزم الحاج كل يوم بالذهاب الى الجمرة الوسطى والجمرة الاولى ويرمي على كل منها سبعة احجار بنفس الطريقة التي اتبعها في اليوم الاول .

ان الحاج قد أكمل الآن كل المناسك الواجبة : وتنصح الاحاديث ان يطوف الكعبة عدة مرات للوداع « طواف الوداع » وان يشرب ويحمل معه شيئاً من ماء زمزم الخ . وينصرف مجموع الحجيج بعد مكوث بضعة أيام في مكة .

لقد حضر بعض الاوربيين مناسك الحج ووصفوها ، كما ان لدينا تقارير كتبها مسلمون ، ومن اليسير بحث هذه المناسك مع الذين ساهموا فيها . اذن من الممكن تكوين فكرة دقيقة واضحة عن الانطباع النفسي الذي يخلفه الحج في نفوس الحجاج . يحتفظ

وقوف عرفة بالمكان الاول في حياة الحج الحقيقي ، ذلك المكان الذي اضفاه عليه الشرع الاسلامي . ويتفق جميع الذين شهدوا هذا الوقوف في التعبير عن ذلك بغبطة كبيرة أو صغيرة ، مبينين الانطباع العميق الذي تركته في قلوبهم وحواسهم تلك الحشود المؤلفة التي تبلغ عشرات الآلاف (ويقدرهم قائد بن شريف بست مئة الف !) كل منهم وقد توجهت روحه مع عينيه نحو جبل الرحمة ، مصغياً بانتباه وجداني الى الخطيب الذي يتخذ محل الرسول ويتقمص شخصيته موقتا . وتنتشي هذه الحشود بالصيحات المتواليـة : « لبيك يارب ، لبيك ! » ويبلغ الناس اقصى درجات الانهيار العصبي بسبب الجوع والتعب والانفعال والوهج الساطع والشمس المحرقة . ان بعض شعائر الكعبة كصلاة الظهر او صلاة العشاء في مسجد مكة يبدو انها تترك في نفس الحاج انطباعات حية لكنها سريعة الزوال وقليلة الوضوح ، وهناك تدافع فظ مزعج حول الكعبة ، كما يساعد أهل مكة على افساد الجو كذلك . ان الرحلة من عرفة الى منى في طواف الافضاء تذكر الحاج بالمشقة التي لاقاها وهو يسلك سبيله بين الحشود المتدافعة التي يسحق بعضها بعضا ، والمعرضة باستمرار للخطر على أيدي الناس والطبيعة . ولا يزال هناك لصوص سفاحون من البدو كما كان الحال في الجاهلية . ولا نعرف الى أي مدى استطاعت الحكومة الوهابية أن تزيل خطر المرض الناتج من اضاحي منى . كما ان رمي الاحجار يحدث وسط تزاحم بدائي خطر .

ان روعة الحياة الدينية في مكة يفسدها الاهالي الذين يكون

همهم الأساسي استغلال الاماكن المقدسة . وحين تقرأ (برخاردت) و (برتن) . وسنوك والبتنوني وقائد بن شريف يظهر لك ان ما يبقى فى ذاكرة الحجاج هو خشونة أهل مكة وابتساماتهم ومجاملاتهم المصطنعة التي يمارسونها اكثر مما يجب في محاولتهم جمع المال فى حفنة من الايام ليعيشوا منه مدة عام باكمله. ان الطوافين ومؤجرى الدواب والمنازل والغرف، وبائعي ماء زمزم وقطع الكسوة ، والنساء المتهاونات ، والحلاقين ، والقائمين على البيوت التاريخية ، وتجار مختلف البضائع ، كل هؤلاء يفرغون جيوب الحجاج بسرعة . وبالاضافة الى ما تقدم يجب أن نلاحظ بأنه من الجهل الى حد كبير بطباع الناس الذين يعيشون في ظل المعابد الكبرى فى ارجاء العالم ، لوم اهل مكة على عاداتهم في جمع المال وجعل ذلك قاصراً على الاسلام وحده دون غيره من الاديان . وعسى أن يكون الوهابيون فعلوا شيئا في مقاومة هذه العادات ، لكنهم لو قضوا عليها نهائيا لكان ذلك معجزة .

يرجع الحاج الى وطنه ممتلئا بسرور عظيم لانجازه اكبر فريضة دينية وفخوراً لتميزه بلقب الحاج عن بقية المسلمين الذين ليس لهم هذا اللقب ، ومن هنا يناله تشريف ما ، كذلك يكون قد اختبر احساسا داخليا غامضا بقوة الاسلام التي توحد كل عام هذا العدد العديد من الناس من مختلف الشعوب ومتباين اللغات ، ولكنه فى نفس الوقت يعود الى وطنه ، وقد تكشف له فى اعماق وجدانه بوضوح ما تتميز به الارض التي اختارها الله لاقامة بيته من جدب واقفار وشمس لافحة وتجرد عن الظلال والمياه والحياة وبصورة خاصة يحمل انطباعا سيئا عن اهل مكة المتملقين الجشعين.

ان فشل الحاج في القيام باية شعيرة من شعائر الحج ذو نتائج تتباين في الاهمية حسب كل منها . لقد سبق ان قلنا ان الحاج الذي لم يساهم في منسك وقوف عرفة أو الذي لم يظهر في عرفة رغم كل التسهيلات ، لا في مساء اليوم التاسع ولا في ليلة اليوم العاشر حتى الفجر ، يكون قد « أضاع » الحج : وعليه أن يبدأ من جديد . أن خرق المحرمات الجنسية سبب لبطلان الحج كذلك . بالاضافة الى ذلك ، فان في هاتين الحالتين وفي جميع صور خرق المحرمات الاخرى التي لا تكون في حد ذاتها سببا لبطلان الحج ، على الحاج أن يقدم كفارة إما بتقديم ضحية اضافية أو توزيع صدقات على الفقراء أو صيام بضعة أيام . وحسبنا هنا أن نشير الى مبدأ الكفارات في الحج دون التعرض للتفاصيل .

هكذا ينهي المؤمن حجه : لقد كسب على مرأى من الله ثواباً سيكون لصالحه يوم الحساب . الا انه لم يؤد بعد زيارة الى ذلك المكان الذي كثيراً ما يجذب اليه مشاعره ويحركها بعمق بالغ ، وهو قبر النبي في المدينة . وتنظيم القوافل التي تصل بعد الحج الى المدينة في ثلاثة أو أربعة أو عشرة أيام ، هو واحد من الاعمال الرئيسية لاهل مكة ؛ كما تكسب القبائل المجاورة ربحا من هـذا العمل ايضا .

حين الدخول الى المدينة يقترب المؤمن لا من الله بل من النبي : والمؤمن هنا وان كان في غير حاجة الى ان يفتدي نفسه (١) ، الا انه يقدس الرسول الى درجة تقرب من العبادة . وقد أوجدت العادة منذ القدم حول المدينة مركزاً مقدسا حراما ، نجد ضمنه نفس

(١) بتقديم ضحية كما فعل في مكة .

المحرمات التي وجدناها في بيت الله ، كحماية الحيوان والنبات والارض نفسها .

يقع مسجد الرسول في أقدم حي من المدينة . وقد أحرق عدة مرات ، واكتسحته السيول ، واعتدى المعماريون الترك على طرز بنائه بتجديداتهم ، ويبدو على الرغم من ثراء زخارفه ، أقل فخامة وجمالا من مسجد مكة . ومع ذلك يتخطى الزائر عتبته باجلال عميق مخترقا الاقسام الرئيسية ، ويدخل الى الروضة التي تؤدي ، كما تقول السنة ، الى ضريح الرسول والى قبري ابي بكر وعمر بقربه مباشرة . ان بيت عائشة الذي توفى فيه الرسول ودفن يبدو انه كان صغيراً جداً ، ويقع الى جانب المسجد الاصلي تماما ؛ والمسجد الذي توسع على مر العصور ، وامتد حول القبر المقدس ، ضم اليه بيوت عائشة وأبي بكر وعمر وغيرهم حتى أصبح من السعة بحيث يتسع اليوم لآلاف المصلين .

وفي روضة النبي وبجنب محرابه ، حيث آثار منبره والاعمدة التي اتكأ عليها ، والف ذكرى مقدسة اخرى ، يدعو الحاج دعاءً تحول بعض الاعتبارات الخاصة دون تحويله الى صلاة لان في ذلك نيلا من كرامة الله . وترتيب جوانب الضريح جعل بشكل لا يمكن الحاج معه ان يدور حول الضريح . الا انه ليس هناك مانع يحول دون تطور تقديس الرسول كما هو الامر بالنسبة لتقديس الاولياء . والحاج الذي لم يقبل شباك الضريح لا يكون في وجدان العامة قد أنجز حجه . وهناك ألف ذكرى مقدسة ، تستبقى الزائر في المدينة ، كما كان الحال من قبل في مكة ؛ وعند

مقابر المدينة يزور الحاج قبور الشخصيات البارزة في أيام الاسلام الاولى : كعائشة وفاطمة وعثمان وغيرهم .

ان الحجيج المخلصين والمستطلعين في نفس الوقت ، قد ينهون حجهم بسفرة الى بيت المقدس ، وهي مدينة قدسها الاسلام لوجود كثير من الانبياء فيها ، لا سيما المسيح ، ومن هذه المدينة عرج النبي كما تقول العقيدة الى السماء ذات ليلة يرشده جبريل وهذا هو المعراج . لكن هذه الزيارة ليست واجبة بأية حال وليست شائعة كزيارة المدينة . ان الغرض الرئيسي من هذه الزيارة مشاهدة جامع عمر وقبة الصخرة .

تتميز عودة الحاج الى وطنه بمراسيم مشابهة لتلك التي جرت حين غادره الى مكة . فيأتي اصدقاؤه لتهنئته ويتمتعون بجو القدسية الذي يحيط به . ويوزع عليهم هداياه الدينية كماء زمزم وقطع الكسوة .. الخ .

الحج هو الشعيرة الكبرى في الحياة الاسلامية . إذ يؤدي الى اجتماع مختلف الجماعات يمثلون جميع الاقطار الاسلامية سنويا . فهو إذن اجتماع عام وحفل اسلامي ، لكن الطريق اليه غالبا ما يكون طويلا وحافلا بالخطر ، وقد تعود الصوفية ، دون شك ، على تجواب الطرق والتعرض لاخطارها ، مما دفعهم الى أن يقوموا بسفراتهم الى مكة زرافات ووحدانا مستغرقين وقتاً طويلا . لكن معظم الحجاج اعتادوا مدفوعين بضيق وقتهم وخوفهم من الخطر ، ان يجتمعوا في مواعيد معينة في مراكز تسير منها القوافل المنظمة رسمياً مجهزة بالسلاح والمؤن والدواب والمال ، وفي أثناء سير هذه القوافل يتضخم عددها باستمرار كلما تقدمت نحو البيت الحرام . ان القافلة التي تنظم

في القاهرة لارسال الكسوة الى الكعبة ، يصحبها هودج رمزي للملك هو المحمل ، كانت مركزاً جامعا لحجاج افريقية القادم بعضهم عن طريق هضاب المغرب وواحات الصحراء ، وبعضهم الآخر قادم من الطرقات الطويلة لنيجريا وبحيرة شاد وتيبستي والواحات المصرية : وكان بعض هؤلاء الاخيرين يحاذي النيل عند الخرطوم ومنها يسلك سبيله الى جدة ميناء مكة ، بعد أن يقطع البحر الاحمر . اما قافلة دمشق التي جذبت منذ القرن (١٦ م) المسافرين من القسطنطينية وكانت مصحوبة بعد تلك الفترة بمحمل السلطان ، فقد سلكت الطريق التقليدي شرقي البحر الاحمر مخترقة بلاد بطرة القديمة . ان قافلتي القاهرة ودمشق هاتين طالما ترأسها شخص ذو حيثية هو أمير الحج الذي ينتسب عادة الى العائلة المالكة ويعينه الملك نفسه .

لقد غيرت الملاحة البخاريه والقطارات منذ النصف الثاني من القرن الماضي نظام السفر كليا . فالسكة الحديدية من دمشق الى المدينة والتي كان ينوي مدها الى مكة لتحل محل القوافل القديمة ، دمرت خلال الحرب العظمى الاولى . ولم يعد صالحا منها للعمل سوى جزء صغير : واني لا اعلم شيئا عن وضعها الحالي .

أما القافلة العراقية التي تجمع الحجيج من أواسط آسية وايران واولئك القادمين من الهند بطريق البر ، فقد كانت الموكب الرسمي منذ القرن (٨ — ١٣ م = ٢ — ٧ هـ) ويرأسها الخليفة نفسه في كثير من الاحيان . لكن العادة جرت أن ينيب الخليفة عنه هذا الواجب الى شخصية عظيمة في كل عام هو امير الحج . وقد قام الاخير بدور كبير او صغير في مناسك الحج ، بحسب ما كان لسيده

من سلطة في العالم الاسلامي . وحين اخذت الخلافة العباسية بالهبوط أخذ أمير احج القافلتين الاخريين ينافسان امير الحج العراقي . واكثر من هذا كان الموضع الذى تتخذه كل جماعة من المسلمين في مناسك الحج كعرفة مثلا ، والمركز الذى يجب أن تتخذه في المراسيم الدينية كالافضاء ؛ كل هذا أدى الى منازعات بين الحين والآخر والى حروب ، استغلها اهل مكة والبدو كفرصة لجمع الغنائم ، وخلال ذلك كانت تزهق أرواح كثيرة . واعتاد جانب من حجيج الهند وجزر الهند الشرقية المجيء عن طريق البحر والرسو في جدة .

تستمر القافلة المصرية في السير براً حاملة محمل الملك ؛ لكن الحجيج الذين اعتادوا مصاحبته يذهبون عن طريق البحر ، بعضهم عن طريق السويس وجدة ، والآخرون عن طريق الاسكندرية وحيفا ومنها يأخذون السكة الحديدية المرتبطة بالمدينة . بينما حجيج الهند وجزر الهند الشرقية يصلون كحجيج المغرب الى جدة في بواخر تتمتع بحماية دولهم . اما الطرق القديمة للحج فغدت اليوم مجرد ذكريات تاريخية لا اكثر .

ان حالة المواصلات الحديثة تسهل اتخاذ الاجراءات الصحية التي تبنتها الاتفاقيات الدولية في هذا القرن ، عاملة على منع انتشار الاوبئة عن طريق الحجيج الاتين من مكة : وقد ازدادت الوسائل الطبية بالتدريج الخاصة بالفحص قبل السفر وبعده والحجر لمدد معينة ، الا أن هذه الاجراءات كلها ليست محكمة بدرجة كافية . اذن فالاجتماع في الاماكن المقدسة ، في مكة والمدينة ومنى ، الذي تحتشد فيه شعوب من شتى اقطار العالم ، يحملون معهم جراثيم الامراض التي يزداد خطرها كلما كانت أبعد عن البلد الذي تحمل اليه ، مثل هذا الاجتماع من شأنه

ان يكون ذا خطر يهدد صحة البشرية كل عام .. وقد كان الحجاز حتى الان مركز كثير من الاوبئة الخطرة المعدية كالكوليرا . وتحاول الاقطار الاوربية ان تضمن المواصلات ورجوع افراد العالم الاسلامي الى بلادهم تحت شروط صحية ملائمة . وتعمل دور الضيافة الرسمية في مكة على أن تحل محل احياء السكن القديمة التى هيأها الحكام في القديم من الاوقاف التى أخذت تبدد فيما بعد ، كما هو طبيعي . ومنذ سنة ١٩١٩ تحتفظ افريقية الفرنسية فى مكة بدار ضيافة تديرها جمعية الاوقاف للبلاد المقدسة .

لا زال الحج يحتفظ بأهميته الدينية ومن الصعب أن نتنبأ عن الدور الذي سيلعبه في تكوين الوحدة الاسلامية التي امتلكت أذهان البعض ، وعلى اية حال فان الحج قد فقد جانبا من قيمته الاقتصادية وهذا أمر لم يقدره المؤرخون حق قدره فيما يبدو . ان سهولة المواصلات قللت من أهمية العلاقات التجاريـــة التى كانت مكة فيما مضى مركزاً لها الى حد بعيد . لكن التجارة ما زالت تحتل مكانا في الاجتماع الدولي الذي يعقد كل عام جالبا اليه المسلمين من جميع الأقطـار .

ان الحرمين الاسلاميين مكة والمدينة ، لم تنعم عليهما الطبيعـــة بالوسائل المادية الضرورية لضمان حياة اجتماعية واقتصاديه نشيطة ، تلك الحياة التى يجب أن تتوفر لمدينة كبيرة وما حولها . فعزلتهـما حمتهـما من تأثير الغزوات العظيمـة : لكن عادات البدو في النهب جعلت أهاليها فى خوف مستمر من القحط . ان ذرية آل علي الذين كانوا أبناء عمومـة متخاصمين والذين شغلوا مراكز الحكم هناك احتاطوا من ناحية واحدة هي ضمان توفير الغذاء للسكان ، ولا سيما

للحجاج الذين يكونون وجودهم هناك العمل الرئيسي للحرمين الشريفين ولهذا الغرض اتفقوا مع زعماء البدو وحكام العراق وسورية ومصر كذلك . وكل من هؤلاء الاخيرين كان حريصا على أن يتلقب « بخادم الحرمين » مقلداً بذلك الخليفة . ومقابل هباتهم الكريمة المتكررة طمع هؤلاء الحكام بان ينالوا الطاعة ، وان تعلن أسماؤهم في الخطبة بالدرجة الاولى من منبر الكعبة ومنبر مسجد المدينة ، وان يحصلوا على المركز الاول لامير الحج الذي ينوب عنهم في زعامة حجاجهم . أما السلطان العثماني ، وهو الوارث غير الشرعي للخلفاء العباسيين فقد جعل نفسه حامياً حريصا للحرمين . وعندما أعلنت الحرب على الوهابيين في بداية القرن (١٩) أتيح لمصر أن تستعيد جزءاً من سلطتها التي كانت لها على الحجاز بسبب تجهيزها له بالمؤن، تلك السلطة التي كانت لها أيام الفاطميين في القرن (١٠م = ٤هـ) وفي القرن (١٢م = ٦هـ) أيام الايوبيين ثم في عهد المماليك . ان هدية الكسوة للكعبة أمر ذو أهمية سياسية خطيرة . وقد كان لمسلمي الهند وجزر الهند الشرقية مكان بارز في حياة الحج نظراً لعددهم وثرائهم . ان سقوط خلافة القسطنطينية وقيام سلطة موفورة النشاط محلها وقفت على أية حال على هامش « الجماعة الاسلامية » أدى الى قيام وحدة اسلامية مركزها مكة . إلا أنه يبدو ان طبيعة الحجاز ، رغم ان المواصلات الحديثة قربت المسافات لاتساعد على جعله مكاناً مناسبا لهذا الغرض : فجفاف القطر وقسوة المناخ يجعلانه موضعا تصعب فيه الحياة . ومهما يكن فان الغزو الوهابي في سنة ١٩٣٠ الذي يختلف كثيراً في احداثه ونتائجه عن غزوهم الذي حدث في سنة ١٨٠٣ ، قد استهل عهداً جديداً لبلاد العرب والحج ، حيث رفع هؤلاء السادة

الجدد لسلكة مستوى البلاد من الناحيتين المادية والدينية

* * *

لم يكن لبلاد العرب قبل الاسلام دين منظم بما فيه الكفاية يدعو الى أي نوع من الصيام الدوري ، ولم تعرف هذه البلاد إلا الامتناع عن الطعام والخمر ، وهو امتناع فرضته محرماتها الدينية ، أو تبنته نتيجة لصور اليمين الفردي . وفي بداية حياة الرسول في المدينة أي في الفترة التي عمل فيها على تغيير عقيدة اليهود ، نراه فرض صيام عاشوراء ، وهو شبيه بصوم (تشري) عند اليهود . وعند مخاصمته اليهود في المدينة نرى ان الصوم الاسلامي قد تحول ، تحت تأثير الصوم الكبير عند النصارى ، الى امتناع عن الطعام لمدة شهر قمري بأكمله ، هو شهر رمضان الذي صادف في التقويم العربي بتصحيحاته الشمسية في فصل الصيف ، لكنه أخذ يقترب من الشتاء في الوقت الذي شرع فيه الصوم ونظم امره بين المسلمين . ان التقويم الاسلامي القمري لم يراع ان رمضان سينتقل في خلال أشهر العام كلها ، إذ ان الفرض الشديد لصيام يوم بأكمله سيقع في دورة ثلاثين عاما ، في أطول أيام السنة . ومنذ شروق الشمس حتى الغروب ، أو بتعبير أدق منذ اللحظة التي يمكن فيها تمييز الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، أو بحسب أحد التفاسير عندما يمتد خط من النور على الافق في حين تكون أجزاء السماء الاخرى حالكة الظلام ، منذ هذه اللحظة يلزم المؤمن بأن يعف كلية عن الطعام والشراب والدخان والعطور .. الخ وكذلك عن العلاقات الجنسية . لكن في أثناء الليل تسقط كل هذه المحرمات ، والمؤمن الذي أنهكه الصوم الطويل ، يستطيع أن يعوض ليلا الى

أكبر جد ممكن ما حرم عليه أثناء النهار . ولسنا في حاجة الى التوكيد على نتائج مثل هذا النظام الذي ينهك قوى الصائم لا سيما حين يفرض على الرجال الذين يعملون في أثناء النهار (١) . ويعرف جميع الاوربيين الذين تربطهم بالعالم الاسلامي علاقات منظمة، النتائج البدنية والنفسية لصوم رمضان .

يحدد بدء شهر رمضان كما هو الحال في الاشهر الاخرى ، رؤية الهلال : فبداية الصيام ونهايته يعتمدان إذن على الملاحظة الفلكية التي لا يمكن أن يحل محلها أي تنبؤ سابق . وقد تحول حالة الجو في بعض الاحيان دون رؤية الهلال كليا أو جزئيا ، بغض النظر عن أية تأخيرات فلكية يمكن التنبؤ بها من قبل . لكننا نجد في المدن ان السلطة الدينية الممثلة عادة بالقاضي هي التي تعلن نتيجة ملاحظاتها في هذا الصدد . وقد تؤدي الظروف المحلية الى قيام خلافات في هذا الموضوع بين الشخصيات المتكافئة السلطة . هكذا قد تكون فترة الصيام ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ يوما على الاكثر .

تعلن في المدن اللحظات المضبوطة لبداية ونهاية الصيام كل صباح ومساء بظهور علم أخضر على منائر المساجد ، وبطلقة مدفع. وبعد اشارة المساء ، اعتاد الصائمون « انهاء صيامهم » بوجبة خفيفة تدعى الفطور ، وانهاء الليل بآخر وجبه هي السحور ؛ وهناك موقت خاص يدعى « المسحر » يعلن — في المدن — الساعة الاخيرة التي يمكن تناول السحور فيها .

---

(١) نعلم ان من حكم تشريع الصيام منفعة البدن عن طريق اراحة المعدة وتنظيمها .

الصوم واجب فرض على البالغين المالكين تماما لقوام الجسمية والعقلية . ومن ثم أعفي المرضى والشيوخ العاجزون والنساء فى النفاس كما أعفي المسافرون من الصيام لأسباب أخرى . لكن هذا الاعفاء ليس نهائيا ، وبمجرد أن تسمح الظروف المادية ، على المؤمن أن يؤدي صومه خلال أي شهر من السنة ، أو يعطي فدية وهي نوع من الزكاة الكفارة . ان خرق المحرمات الجنسية عن عمد يكفر عنه بفك رقبة ، أو بصوم شهرين ، أواطعام ستين مسكينا .

يخضع أداء الصوم ، كما هو الحال في جميع الفرائض الدينية الاسلامية الاخرى للنية . وتزدحم المساجد خلال شهر رمضان بصورة خاصة . ففي المساء وبعد صلاة العشاء ، يجتمع المؤمنون في جماعات ويؤمهم امام ، ويؤدون صلاة من عشرين ركعة على الاقل ، كل أربع ركعات تفصلها فترة عن الاخرى : ومن هنا سميت بصلاة التراويح . وتصحبها تلاوات من القرآن واحاديث دينية قد تستمر حتى الفجر . وقد وصف بعض الكتاب كابن جبير هـذه الشعائر التى تتخللها وجبات ، يعود المؤمنون الى بيوتهم لتناولها ، أو يجلبونها معهم الى المساجد .

تبين السنة ان الصيام شرع فى رمضان ، لانه خلال هـذا الشهر كان تنزيل الوحي الى الارض (ق س ٢، ١٨١) ، أى في ليلة القدر (ق س ٩٧ ، ١-٣) ، والاعتقادالعام انه في هذه الليلة تقرر مصائرالناس للسنة التالية كلها . ان تاريخ ليلة القدر ليس مضبوطا لذا نجد ان ليالي الايام ذات الارقام الفردية من ٢١ — ٢٧ من رمضان واليوم الأخير هذا خاصة ، تمجد بتلاوة الأدعية وآيات من الذكر الحكيم .

يمثل افطار رمضان الذي يحصل عند أول شوال مناسبة لعيد يسمى عيد الفطر ، ويدعى في المغرب باسم العيد الصغير . وكما في العيد الكبير الواقع في العاشر من ذي الحجة ينتظم العيد الصغير صلاة هي صلاة العيد ، مؤلفة من ركعتين ، يتلوها عدد من التكبيرات ، وخطبتان .

وفي هذا اليوم يجب أن تعطى زكاة الفطر ، وهذه غير الزكاة الحقيقية التي سنتحدث عنها فيما بعد . وعلى رب كل عائلة أن يعطي عن كل فرد من الذين يعيلهم الى الفقراء صاعا أو اربعة امداد من الطعام السائد في البلد (١)

إن العيد مناسبة لافراح وطنية تستمر لمدة ثلاثة أيام : تلبس فيها الملابس الجديدة ، ويهنىء الناس بعضهم ويتعانقون . وعيد رمضان نظام من أكثر النظم الاسلامية حياة : وتراعيه المدن الاسلامية بدقة ، ويحاكم الرأي العام بشدة أي فرد يحاول أن يتحاشى هذا العيد سراً .

* * *

ينظر كل من العرب واليهود الى ثروات الدنيا أو خيرات هذا العالم على انها منحة من الارواح الشريرة وانها تؤدي الى عذاب مقيم

---

(١) الصاع هو كيل تدور عليه احكام المسلمين ويؤلف من اربعة امداد كل مد هو رطل وثلث ، والرطل معياره اربع حفنات بكفي الرجل المتوسط « المحيط للفيروزآبادي »

في الحياة الاخرى ؛ لكن هناك طريقة لتجنب هذا الخطر ؛ وذلك بأن يرجع الانسان باختياره الى الله جانبا مما أفاض عليه ، وبهذا العمل « يزكي » ما عليك . ومن هنا جاءت كلمة الزكاة والصدقة في العربية ، وبصورة خاصة الزكاة الشرعية التي قررها القرآن ونظمها الرسول وخلفاؤه .

الزكاة ضريبة دينية تجبى من عدة انواع من الممتلكات حسب قواعد معينة ، ووارداها يخصص لاغراض من الصرف مختلفة . وهي تشمل منتوجات الارض والماشية والمعادن الثمينة : (الذهب والفضة) وبضائع التجار . هذه المواد جميعا لا تعرض للضريبة إلا اذا بلغت النصاب المعين ، أي الحد الادنى الذي قررته الشريعة والذي يختلف من بضاعة الى اخرى . وتدفع الضريبة عيناً . وعلى المؤمن أن يدفع عن المواد التي تزيد عن النصاب من الزروع (الاثمار والحبوب) عشر المحصول السنوي ، لكنه يدفع واحداً من عشرين اذا كانت الارض تروى بطريقة صناعية تكلف نفقات باهضة .

أما الماشية فان عدد ونوع الحيوانات الواجب اعطاؤها منها يختلفان حسب نوع وعدد الحيوانات المؤلفة للقطعان . ومن المهم أن نلاحظ بأن الضريبة المأخوذة على الحيوانات يجب ان تكون في حالة مرور حول كامل على وجودها سائمة في المرعى وغير مسخرة . وتتزايد هذه الضريبة في الواقع بزيادة رأس المال الناتج عن تكاثر القطيع غير المسخر أو العاطل عن العمل .

ولا تجبى الزكاة عن المعادن الثمينة وبضائع التجار الا اذا مر عليها حول كامل في حوزة نفس المالك ، ولم تستخدم كوسيلة للمبادلة

التجارية . من هذا نفهم ان الجزء الاكبر من الثروات والادوات الذهبية والفضية معفو من الزكاة لمجرد انه غير مخزون ولانه عرضة للمبادلة . وعلينا ان نتذكر هنا أيضا بان الشريعة الاسلامية تمنع من ناحية اخرى التسليف بالفائض ، أي ايجار راس المال النقدي لكنه باعفاء الثروات التي لم يمر عليها حول كامل في حيازة نفس المالك من الزكاة ، فتحت الشريعة باباً للاحتيال مارسه الكثيرون : فهناك قاض مشهور في بغداد خلال العصر العباسي هو القاضي يوسف (توفي عام ٩١٠ م = ٢٩٨ هـ) ، بمجرد ان تقترب السنة من نهايتها ، كان يحول ملكية ثروته الى ابنه ، الذي يعيدها اليه بدوره قبل نهاية السنة التالية ، وهكذا : بهذا تجنب دفع أية زكاة . واية حكايات لم تؤثر عن القضاة !

يجمع الضريبة عيناً عامل يحددها ويجمعها بنفسه او عن طريق وكلائه ، فيما يتعلق بالزروع ، والذي يجمعها في الحالات الاخرى على قاعدة اعلان اسماء دافعي الضرائب . ان المشرفين على ادارة الصدقة كان عليهم ان يضمنوا ليس فقط جباية الكمية الصحيحة من الضريبة ، بل وكذلك تنظيم نقلها الى المخازن حيث يكونون مسؤلين عن حمايتها وحفظها . وهناك مخازن رسمية احتفظت باسمائها القديمة وهي (الحمى) تحفظ فيها ابل الصدقة التي كانت تباع للافراد . اما الحبوب فكانت تخزن في مخازن الزكاة . وحين يجري التوزيع على مختلف الطبقات المستحقة للزكاة ، يكون هذا التوزيع عينا بصورة جزئية ، ويحول القسم الآخر الى نقد .

وزعت الزكاة على الطبقات الآتية :

أولها : الفقراء والمساكين ؛ ثم للعاملين عليها : وهم جباة

الضريبة ؛ ثم للمؤلفة قلوبهم : وهم طبقة اختفت فيما بعد ، وإن كانت ذات خطر في بدء الاسلام ، حين كان الرسول بحاجة الى مبلغ يضحي به ليدفع عنه عداء قريش . ويخصص قسم رابع لفك رقاب العبيد ، أي ابتياع حريتهم من اسيادهم ، بينما جعل الخامس للغارمين ، اي الذين ترتبت عليهم ديون بسبب قيامهم بنصرة الدين ؛ وخصص القسم السادس للصرف على المتطوعة للجهاد والمصاريف الناجمة عن حرب الكفار ؛ وجعل جزء سابع للصرف على جميع المؤسسات النافعة للجماعة الاسلامية وصيانتها ، والتي اسست في سبيل الله . وأخيراً كان هناك جزء لابناء السبيل اي المسافرين الفقراء .

إن ضريبة فردية كهذه يدفع سبعها فقط لمصاريف الدولة ، هي بشكل ما نوع قديم من الضرائب ، لذا وجب تغييرها منذ بداية الاسلام ؛ لكن الزكاة استمرت تحت اسماء عدة وصور متباينة : وهي عمود ثابت في بناء الاسلام ، ولا يمكن ان تزول مادامت الشريعة نافذة في بلاد الاسلام .

وعلينا ان لانخلط بين الزكاة التي اوجزنا مبادءها العامة ، وبين زكاة الفطر التي يدفعها المسلمون عند انتهائهم من رمضان والتي تحدثنا عنها قبل قليل .

* * *

رقد الفكر الاسلامي رقاداً عميقا لمدة قرون ، لكن الاعمال الدينية استمرت مرعية بدقة . فالصوم الذي ادى الى نوع من الرقابة المتبادلة بين الناس ، روعي بشدة في المدن على وجه العموم . والحج الذي نظمته وأشرفت عليه الحكومات لاسباب صحية وسياسية ما زال يجذب جميع الذي يستطيعون اليه سبيلا . ويتهاون أهل المدن

نوعا ما في واجب الصلاة ، إلا أنهم يهرعون الى صلاة الجمعة مزدحمين عليها . أما في البادية فان الناس أقل التفاتا الى الدين . والبدو اليوم بعيدون عن أداء واجباتهم الدينية ، واذا استثنينا مناسبة مرور قافلة يؤلفها سكان المدن فى الصحراء ، فليس أغرب فى هذا المجال من أداء واجب الصلاة الخاشعة فيها .

المصادر

Juynboll Handbuch ; Gaudefroy - Demombynes - Pelerinage; Wensinck : Salat E. I. 4 ; Pedersen masdjid, E. I. ; Berg : Sawm, E. I Schacht : Zakat, E. I.

الفصل السابع

الخلافة

الخليفة . الإدارة المركزية والولايات . الجهاد . الجيش . الضرائب . الزكاة . الخراج . المكوس . أهل الذمة . الاجانب .



إن الوظيفة الاساسية لرأس الجماعة الاسلامية ، هو أن يكون أمامها ، أي الذى يؤمها فى الصلاة ، وهى الفريضة اليومية . ولم يتأخر الرسول عن اشغال هـذه الوظيفة إلا فى حالات الضرورة القصوى . وحيث انه جامع للسلطة كلها في شخصه بوصفه ناقلا للكلمة الالهية ، نراه قد أناب عن نفسه فى حالات الضرورة أحد اتباعه ومنحه حق امامة الصلاة ، ورآسة الحج أو العمرة ورفع لوائه وقيادة جيش المسلمين . وعند وفاته ، كما أشرنا الى ذلك من

قبل ، لم يحدث ما يؤكد على وراثة الامامة من بعده : وكانت هذه الامامة كنتاج لانتخاب طاريء. أصبح بحسبه أبو بكر امام الجماعة الاسلامية بلقب خليفة النبي ، أو خليفة رسول الله ، واحتفظ بهذا اللقب الامام الاعلى وهو الخليفة ، إلا انه سرعان ما تحول الى « خليفة الله » (١) .

كان الخلفاء الاوائل صحابة للرسول جاءوا الى الحكم دون أية قاعدة . أما معاوية فقد جمع في نفسه بين التقليد البدوي الخاص بانتخاب الرئيس عن طريق زعماء القبائل وبين التراث البيزنطي الخاص بالنظام الوراثي . إلا انه استطاع بعد معارضة أن يعلن ابنه يزيد ولياً لعهده باجتماع عقده بين رؤساء القبائل والشخصيات البارزة للجماعة الاسلامية . وباعتلائه العرش أصبح معاوية يتمتع بنوع من الاحترام هو أن يلمس يده من حوله ؛ وتطورت هذه العادة في زمن العباسيين فأصبح الناس يقبلون يد الخليفة . وأدى تعيين ولي العهد وتجزئة الامبراطورية في الخلافة كما في غيرها الى فوضى واضطراب خطيرين . وقد بينا فيما سبق - في الفصل الثاني - ان الافكار المختلفة التي انبعثت في الجماعة الاسلامية الخاصة ، أدت الى انقسام هذه الجماعة الى سنة وشيعة وخوارج .

إن قوة الخليفة محددة تماما : فهي الوراثة التي انتقلت من النبي الذى كانت له هذه القوة بسبب سلطته الشخصية وبسبب مكانته كمرسل من الله ؛ الى جانب هذا استطاع النبي أن يحتفظ بشيء من صفات الشيخ في بلاد العرب القديمة ، وصفات الحكم وحامي التقاليد

---

(١) زمن العباسيين .

المأثورة ، ومع ذلك لم يكن قائد الحرب الذي يقود جيوش الله ضد الكافرين ؛ انه لا يعمل أكثر من منح جنوده بركة هي نوع من قوة علوية خارقة للطبيعة . وكمحاكاة الرسول عقد الخلفاء الاوائل اللواء لامير الجيوش ؛ ولم يقم أبو بكر وعمر وعثمان بأية مشاركة فعلية في الحرب . لقد كانوا الامناء على حماية شريعة القرآن والسنة كما كان خلفاؤهم أمناء على نفس الشريعة كما نظمها الفقهاء والقضاة .

ولئن لم يكن الخليفة الاموي الملك الذي يبالي بالشريعة الالهية أو الذي لا يزدري السنة النبوية المأثورة كما صور ذلك الكتاب العباسيون ، فانه على أية حال كان السلطان القوي الاهتمام بالمحافظة على المنافع الدنيوية للجماعة الاسلامية ، وبتنظيم الدولة بالتعاون مع الشعوب المفتوحة . لقد كان عند هذا الخليفة الاموي احساس بالخير العام « المصلحة » . أما الخليفة العباسى فقد ادعى بأنه محي السنة النبوية الخالصة ، وانه سيعيد الى الامامة قيمتها الدينية بتمامها ، إلا انه كان فى نفس الوقت وارث ملك الملوك الساساني [شاهنشاه] واعتبر نفسه عاهلا كفؤاً للامبراطور البيزنطي ؛ لذا أسبغت عليه رعيته أبهة كادت تكون إلهية ، تعارض بصورة غريبة البساطة التي اشتهر بها عمر بصورة مستفيضة . ولم يعد الخليفة العباسي مجرد امام يقود الجماعة الاسلامية الى الصراط المستقيم ؛ بل لقد أصبح سلطانا يشرف على حكم رعية خاضعة له . اما سلطته فكانت مطلقة مادام قادراً على ممارستها . ومن الطريف أن نقتبس صوراً من المؤرخين فنقابل بين معاوية كزعيم قبلي جاهلي يستقبل زواره

بساطة مألوفة ويحكمهم بمجرد معرفته لاخلاق الناس وبابتسامته الساخرة لاعتداده بنفسه ، وبين هارون الرشيد كنصف إله يستوي على عرشه بعظمة يحيطه حرسه ورجال بلاطه كملك يسجد الناس بين يديه ، ويلبون طلباته كما لو كانت تعبيراً عن إرادتهم الخاصة ، مادام السياف شاهراً سيفه طول الوقت وراء الخليفة ، الذي يلبس البردة وخاتم النبي ، ويعلن للملأ بكل جلاء أمجاد التراث الديني وأبهة الوراثة المقدسة .

ينيب الخليفة عنه في ممارسة جزء من هذه السلطة غير المحدودة عمالا كانوا يمارسونها بأنفسهم أو يحولونها الى نواب عنهم : فاقامة صلاة الجمعة والخطابة تحولان الى الامام في حين ان الحكم بالشريعة القرآنية تسلم الى قاض وجباية الضرائب الى عامل ، وامارة الجيش والادارة العامة الى أمير . واعتاد الخلفاء العباسيون العظام دائما شأنهم شأن لويس الرابع عشر أن يمارسوا سلطاتهم الملكية سواء كانت في مصلحة الشعب او في غير مصلحته فيترأسون مجالس الدولة بصورة منظمة ، ويعقدون مجالس استشارية ، ويوقعون بانفسهم على أكثر القرارات أهمية أو يطلعون عليها . أما كتاب السر أو سكرتيرو الدولة الذين ازداد عددهم بصورة مطردة فهم الذين يعدون وينجزون إرادات الخليفة ، وقد تركزت فيهم إدارة الاقاليم وضبطها والاشراف على واردات الامبراطورية . لقد كون هؤلاء الكتاب طبقة كان اكثرها أول الامر من اهل الذمة ، وبعدها اختير افرادها من المؤمنين الجدد الذين تيسر تعليمهم لتوفر المؤلفات التثقيفية المهمة والذين عاشوا عيشة بذخ داخل قصورهم ، في حين كانوا يحذرون في الظاهر من العامة الشديدة الحسد لهم . وخلال

حكم الخلفاء العباسيين الاوائل لم تكن للوزير أية سلطة معينة ، فهو مساعد لسيده ومشاوره ويده اليمنى ومرافقه في كل حين ، وهكذا كان الوزير في الحقيقة بنفس الصورة التي اظهرته بها « الف ليلة وليلة » وهو يعمل على توفير المتعة لمولاه الخليفة في سهراته . وكان الوزراء الذين طبقت شهرتهم الآفاق في الايام الذهبية للعصر العباسي أي البرامكة من الفرس . وفي بعض العصور منح لقب « حاجب » الى الشخص المكلف بـ « حجب » الامير عن رعاياه احيانا ، أو التوسط بينه وبينهم احيانا أخرى ، وقد اتخذ الحاجب مظهر وزير مطلق السلطة .

ومنذ القرن « ١٠ م = ٤ هـ » تدخلت شخصية غريبة بين الخليفة وبين حقه في استعمال سلطاته فاقتصر امره على اللقب فقط وكان لهذه الشخصية لقب امير الامراء ثم سمي بعد ذلك بالسلطان .

في هذه الامبراطورية التي نظمت بهذه الصورة لم يحتفظ بوحدة التوجيه إلا نظريا في حين اعطي للحكام في نفس الوقت كل حرية في انجاز الاعمال . وعلى الرغم من وجود ديوان البريد الذي أسسه أو اعاد تنظيمه الامويون ، نرى ان الاقاليم قد بعدت جدا عن دمشق وبغداد بحيث ان حرية الحكم التي منحت لولاة الخليفة مالت شيئا فشيئا الى الاستقلال . ونشاهد ان الخلافة في ايام عزها قد امتدت كثيرا وعاشت فيها شعوب مختلفة كثيرا عن بعضها في نزعاتها ولغاتها بحيث لا يمكن ان تنسجم وتتوحد تحت امرة حكومة لم يكن لها اتصال وثيق بشعوبها ، هكذا اصبح حكام الاقاليم الواحد بعد الاخر ملكا او سلطانا مستقلا يدير بحرية جانبا من العالم الاسلامي ، وينقل سلطاته بحسب القواعد لنظرية السالفة

الذكر . الا ان هؤلاء السلاطين لم يبعدوا انفسهم عن الجماعة الاسلامية . واتخذوا لقب امير المسلمين كذلك ، ومع انهم ذكروا اسم الخليفة في خطبة الجمعة بعد اسمائهم إلا انهم رفعوا من الخليفة اكثر مما فعلوا باسمائهم . هكذا لم تنفصم العرى التي توحد مختلف اجزاء الجماعة الاسلامية ، تلك العرى التى يجب ان نفهم جيدا انها ليست دينية فقط ؛ ذلك لان الحكام الجدد استمروا نظريا على اتحاد قام مع بقية اجزاء امبراطورية الخلافة . اما السلطان المحلي فاستمر ممثلا صوريا لامير المؤمنين .

يقدم لنا التاريخ الاسلامي بعض امثلة طريفة عن استمرار صورية الخلافة هذه ، من ذلك سلطنة المماليك في مصر . اذ صادر هؤلاء السلاطين لمصلحتهم الخليفة العباسي الذي استقر في القاهرة دون أن تكون له أية سلطة فعلية ، واكثر من هذا كان تحت رحمة المماليك في الواقع ؛ إلا انه احيط مع هذا بكل مظاهر التبجيل التي تمتع بها اسلافه في بغداد . وقد اعطى وجوده المماليك امتيازا تحلوا به ازاء بقية حكام المسلمين والملوك الاجانب . واننا لنعرف جيدا سياسة المماليك وديلوماسيتهم حينما نشاهدهم اثناء ممارستهم الحكم فيتبين لنا انهم يعملون على الاحتفاظ بالصورة المزخرفة لوحدة الجماعة الاسلامية موجهين ذلك لمصلحة أنفسهم عن طريق الخلفاء .

لقد استرجعت الخلافة سلطتها التامة على يد السلطان العثماني في اسطنبول ، فكسب السلطان طاعة جميع الولايات . لكن مصر تقف مثلا للجهود التى رمت الى الاستقلال الذاتي والتي بذلتها المقاطعات ذات الشخصية الجغرافية والتاريخية ، والتى ادت فى هذه الحالة ، منذ القرن الماضي الى ما يشبه الاستقلال . وقد ورث السلطان

العثماني فوق ذلك جزءا صغيرا فقط من الامبراطورية الاسلامية القديمة ، التى تجزأت منذ ان دخل الترك الى العالم الاسلامي . ولم تكن فارس الشيعية وحدها قد حكمها حكام لم يعترفوا بالخليفة العثماني ، ولم يمنحوه حق ظلا من السيادة ، بل وكذلك نجد هذا في عمان الخارجية ومراكش الشريفية والهند وغيرها .

ولم يبق من الوحدة العظيمة تحت حكم الخلفاء التي تبعثرت بسرعة والتي لم يحيها العثمانيون الا جزئيا ، لم يبق سوى الذكرى ، وشعور غامض بوحدة الدين الذي حدده وطغى عليه الشعور القومي حديثا . واذا نظرنا الى العالم الاسلامي وجدناه كله تقريبا تحت ظل من النفوذ الغربي اما مباشرة أو عن طريق التحالف ، وستحصل مصر في نهاية صراعها الحالي على استقلالها التام ، ان أستطاعت الذود عنه ، ولم يتأت استقلال بلاد العرب الا نتيجة فقرها الاقتصادي ؛ اما ايران فتعيش في ظل وضع متأرجح قلق ، وليس غير تركية التي ستثبت كيانها كدولة حديثة وتلعب دورها بين خصوم متساوين في مقدار اهتمامهم بالتحالف معها والعمل على حمايتها جزاء ذلك ، حماية لن تجد تركية مناصا عنها .

ان دواليب هذه الماكنة العظيمة كانت بسيطة ومتنوعة في نفس الوقت : فلكل اقليم عاداته ، وتعرض كل قرن لانواع من التأثير الخارجي . واذا حاولنا هنا ان نصف ما يوجد بين جميع أفراد الامبراطورية لا ما يفرق بينهم ، ولو أردنا ان نتبين ما هو اسلامي لا ما يمثل التراث المحلي ، فاننا لا نستطيع ان نتحاشى الرجوع الى الانظمة الاجتماعية الاولى لبلاد العرب حيث ظهر القرآن ونشأت السنة النبوية .

السنة النبوية .

خلال القرنين الاولين من الاسلام ، كما هو الحال قبل محمد كانت القبيلة هي الوحـدة الاجتماعية الطبيعيـة السوية . وبقى الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلي سواء كان ذلك فى أجناد سورية أو في المدن الجديدة فى العراق ومصر ، واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض وصور الثأر الماضية ، كل هذا كان له آثار سيئة على حياة الجماعة الاسلامية لا سيا في سورية والاندلس .

ان القبائل هي مجموعات مؤلفة من عدد كبير أو صغير من الاسر وأصولها غامضة ، أما الاخبار التي تصف القبائل فهي فى الغالب قصصية وغير واقعية . وقد حطم الاطار القبلي الاصلي : فتجزأت القبائل الكبيرة ولا نجد أسماءها اليوم سوى عناوين ظاهرية تطلق على مجموعات ضعيفة . وهناك تشكيلات أخرى اتحدت معاً مكونة أحياناً من عناصر مختلفة جداً ، وقد انبثقت قبائل جديدة من جراء ذلك لتحتل لوقت قصير « مسرح العالم » .

للقبيلة العربية زعيم ، سمي قديماً بالسيد أو الشيخ ، أما اليوم فيسمى بالشيخ أو القائد . ومن ناحية تاريخية ، نجد رئيس القبيلة هو رب احدى العائلات استطاع بشجاعته فى الحرب وبحلمـه وفصاحته فى الاجتماعات وكرمه أن يفرض نفسه على الجماعـة من أفراد قبيلته . وما على الفرد الا ان يعيد قراءة أيام العرب قبل الاسلام ليقف على مكانة رئيس القبيلة في هـذا العصر : ولسنا في حاجة الى تغيير الملامح كثيراً لنلتقي بالقبيلة البربرية أو التركيـة .

هكذا نجد في بداية الخلافة بين الحضر كما بين البـدو ، في

المدن العسكرية الجديدة ، البصرة والكوفة والفسطاط ، كما في الصحراء ، نجد ان الخليفة أو ممثله يتصل بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل . وهو يؤكد ويؤيد تعيين الرئيس ، ويزوده بسلطة عسكرية وادارية ومالية يمارسها هذا باستقلال ولا ينقص من شأنه الا اذا عزل أو اغتيل . وبالنسبة لبعض الحكام العرب نجد ان الثمن الغالي للقب الشيخ هو عزلهم بعد بضعة سنوات دسمة وسجنهم ومصادرة أملاكهم ، ويبدو ان مثل هذا الثمن هو حادث اعتيادي وتدبير حكيم . لكن في بعض الاحيان نجـــد ان تعيين الخليفة لرئيس القبيلة هو مجرد عمل لا أهمية له : اذ لا يكون للشيخ من سلطة غير ما لديه من نفوذ شخصي ورضا انداده عنه .

ان تحول الشعوب المفتوحة عن دينها ، أدخلها ضمن التنظيم القبلي ، لكن هذا جرى في وقت كان هذا التنظيم في بعض أجزاء الامبراطورية قد بدأ يفقد شيئا من قيمته الاجتماعية ، وحين كان بناؤه أثناء ازاحة السكان واختلاطهم ، قد بدأ يصبح مصطنعاً اكثر فأكثر . ان جماعات المدن ، والاقطاعيات الكبيرة التي ظلت في ايران بيد الطبقة الارستقراطية القديمة (الدهاقين) ، والاقطاعيات الجديدة التي أوجدت لمصلحة المقربين الى الخليفة ، واندماج الافراد الذين تقاربوا بفضل اعتقاداتهم أو مصالحهم في جماعات ، كل هذه حلت في كثير من الاماكن محل التنظيمات القبلية القديمة . وفي خضم المنافسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، كان على الخلفاء ادارة المساحات الاقليمية الشاسعة التي رسمتها على خارطة الامبراطوريـــة الضرورات الجغرافية والسياسية .

في كل من تلك المقاطعات يعمل الحاكم بمساعدة هيأة من الموظفين

ودواوين فرعية مصغرة لبلاط بغداد . وكان واجبها الرئيسي حفظ النظام وجمع الواردات الكافية لارضاء الخليفة ، في حين يسمح للحكام بالاستيلاء على جزء يرضي مطاليبهم .

خلال هذه الادارة الواسعة ، لا نجد شيئا مخصصا للصرف على المشاريع الانتاجية والاعمال العامة (كالطرق والجسور والقنوات والري الخ) كما في الامبراطورية الرومانية رغم تنظيمها الدقيق وكما في الدول الغربية في العصور الوسيطة ، نجد ان الجمعيات المحلية الثابتة والموقتة ، هي التي تشرف على بناء او تعمير المشاريع الضرورية لحياة الجماعة ؛ ومع هذا كان بعض الحكام احتذوا حذو الحجاج واشرفوا بانفسهم على الاعمال العامة وغذوها بالمال ؛ وحتى الخليفة قد يهتم أحياناً بمشروع يمس عن قرب مصالحه الخاصة .

مع هذا فقد كان الامل في الثواب في العالم الآخر يدفع الحكام والشخصيات العظيمة بحماس شديد الى ارجاع جزء من الممتلكات التي حصلوا عليها بطرق مشروعة نظريا الى الشعب في صورة مشروعات نافعة : لان الاسلام يعترف باعمال التقوى ويدعو اليها . هؤلاء الافراد شادوا المساجد وعملوا على فتح قنوات ومخازن للمياه لينتفع بها حجاج الحرمين ، كما اقاموا جسوراً ومحطات للاستراحة ومدارس وزوايا للصوفية ومستشفيات ، وعملوا في نفس الوقت على ضمان استمرارها عن طريق خيرات الوقف .

يشرف الخليفة على عماله ويجعل نفسه محيطا تمام الاحاطة بدقائق الأمور صغيرها وكبيرها ، دون ان يهمل الفضائح الاجتماعية بفضل دوائر جاسوسية دقيقة العمل . ان ديوان البريد التابع للخلافة الذي يحمل بسرعة عبر الامبراطورية تقارير الخليفة وأوامره ، نظمه

الخليفة الاموي عبد الملك مقلداً ولا شك النموذج البزنطي . وتخترق الامبراطورية طرق عديدة أقيمت على طولها محطات دعيت بالمنازل فيها خيول يعتني بها في الاسطبلات سواس مهرة ، وبعد ان يغادر حامل الرسالة العاصمة أو دائرة أحد الولاة ، يجد في كل محطة حصانا جاهزاً مستريحا يبدله بحصانه المتعب ، بل يجد رسولا آخر اذا كان هو غير قادر على ان يستمر في سفره . هذه المحطات يستفاد منها لسفرات الخليفة وموظفيه الكبار . ويصف لنا ابن خرداذبة وكتابه من أقدم الوثائق الجغرافية العربية طرق البريد وهو خير مرشد لدراسة هذا الموضوع . ان ادارة مصالح البريد ، التي لعب عمالها دوراً كبيراً في ضبط وتنظيم الامبراطورية كان يسند الى أحد الموظفين الذين يثق بهم الخليفة .

ومنذ وقت غير محدد ، استعار العرب من الفرس فكرة البريد بوساطة الحمام الزاجل : وقد استكمل هذا النوع من البريد أيام المماليك. وتقام البروج في مواضع يختارها ويعتني بها عمال خاصون ، وتكون محطات لمغادرة ووصول الحمام الزاجل التي يحملها فرسان البريد على خيولهم .

يقود الخليفة الجهاد اي الحرب المقدسة ضد الكفار ، لحملهم على اعتناق الدين الاسلامي ، او استرقاقهم ، أو قتلهم ، أو اجبارهم آخر الأمر على دفع الجزيه . ومع ان العلماء المسلمين يعتبرون الجهاد فرضا واجبا على جميع المسلمين الا انهم غير متفقين على قيمته الدينية ولا يجعلونه جميعا ركناً من أركان الدين الخمسة . وأصول الجهاد توضح هذا التردد . فقد كان الرسول في بداية دعوته في مكة ضعيفا جداً ولم يزوده القرآن بسلاح سوى الصبر والثقة بالله .

لكن بعد الهجرة الى المدينـة هبط الوحى يحث المسلمين على ان يقاوموا بقوة السلاح اولئك الذين طـردوهم من ديارهم وأرادوا بهم الشر (ق : س ٢٢ ، ٣٩ - ٤٢) . وبمناسبة غارة قام بها المسلمون تخرق الهدنـة الجاهلية فى الأشهر الحرم ، أمرهم القرآن (س ٢ . ٢١٢) ان يقاتلوا . ومنذ فتح مكة (٦٣٠ م = ٨ هـ) أخـذ القرآن يكرر دعواته الى حرب اعداء الدين . وقد قام الحديث بتنظيم الحرب المقدسة وثبتها في صورة الفتح . وفي علم كل محارب مسلم ان الملائكة تحارب الى جانبه كما فعلت في بدر .

ليس الجهاد فرض عين بل هو فرض كفاية ، لا يطبـق على الفرد ما دام هناك عدد كاف من المحاربين يأخذونه على عاتقهم. ان طبيعة البدوي الاستقلاليه وجدت فى هذه الخدمة الاختيارية تلبية قلبية لرغباتها . وفوق ذلك كانت القاعـدة ان كل محارب يجهز نفسه بأسلحته الخاصة ودابته ، والا فيحصل على الدابة من مخازن الصدقة . وهو موعود بثواب عظيم فى الدنيا والآخرة . ويستطيع ان يترقب موتا مجيداً يجعله شهيداً في سبيل عقيدتـه ويضمن له الى جانب مسرات الفردوس مسرة عاجلة يجدها على أبواب الجنة الخالدة التى أوحى له الاعتقاد الشائع ان يراها في صورة طير يطعم من فاكهة ناضجة أبداً من شجرة خضراء أبداً . كما انه ينتظر غنائم كانت فى فترات الفتح الاولى هائلة . وتقسم أربعـة أخماس الغنائم بين المحاربين ويحصل الفارس على ثلاثة أسهم . وفى عهـد المدينة كان الخمس الباقي لله (ق : س ٨ . ٤٢) ، وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وهذه طريقة من الكرم تتلاءم مع ما اثر عن شيوخ القبائل في بلاد العرب القديمة

وبعد عهد المدينة قسمت العقيدة الخمس هذا الى خمسة أجزاء توزع على الفئات الخمسة التى حل فيها الخليفة محل الرسول .

ولم يقتصر الامر على مجرد غارات عقيمة بل أصبح الهدف فتوحا متوالية ، تؤدي الى اخضاع الناس والاستيلاء على الاراضى المزروعة (١) كما ان الروح التى اتضحت فيها معرفة الحقائق والتي امتلأت بشعور طبيعي عن قيمة الحياة الانسانية ، جعلت الفاتحين يحترمون حياة المفتوحين بل ودفعتهم الى عدم استرقاقهم لا سيما وانه لم يكن المسلمون بحاجة اليهم . وقد كان المهم عندهم مفاوضة السكان الاصليين للتعاهد معهم وأخذ ضريبة منهم تكون فدية ثابتة عن أرواحهم وممتلكاتهم ، هذه الضريبة كانت تدفع عينا (من التمور والأنسجة والأسلحة والعطور والرقيق . الخ) أو من الذهب والفضة ، وقد حددت بعدئذ بشكل ضريبة أرض هي الخراج وأخرى شخصية هى الجزية . وبدا من الاحكم معاملة الناس معاملة الوالد البار وأخذهم بالعمل لصالح الجماعة . وأدخل فتح سورية كذلك تحت حكم الاسلام شعوبا كانت فى الاغلب نصرانية أو يهودية استفادت بالتالي من الاعفاء الذي وضع لمصلحة اهل الكتاب ، وقد أدخل مع هؤلاء المجوس والصابئة ايضا . وأخيراً اكتشفت صيغة أبسط للتفريق بين الكفار الذين استسلموا واصلحوا والذين قطع لهم المسلمون عهداً بحمايتهم ، وبين اولئك الذين فتحوا عنوة وعوملوا بالسيف واسترقوا . ومرة أخرى نجد عاطفة جمعت بين الاحساس

(١) ان دارس تاريخ الفتوحات الاسلامية يلاحظ ان الهدف الرئيسي للمسلمين كان نشر العقيدة بالدرجة الاولى ، كما اثبت الفاتحون المسلمون انهم كانوا اكثر تسامحا من غيرهم من الفاتحين .

العملي وبين الرحمة التى قررها الحديث وأمر بها المسلمين ان يحترموا الغلات والاشجار ومشاريع الري ؛ هذا الاهتمام بالمحافظة على الاشياء والذى هو كريم وحكيم معا مشوق جداً اذا قارناه بعادات الشعوب البدائية التي تفكر قبل كل شيء « بالتهام » عدوها .

على امام الجماعة الاسلامية واجب القيام بالجهاد ضد شعوب « دار الحرب » المجاورة تماما « لدار الاسلام » . وعلى قادة الجيش ان يتأكدوا ان تلك الشعوب على علم بمبادىء الاسلام وهم يرفضون اتباعها ؛ فاذا كان ذلك كذلك ، فمن الضروري محاربتهم. فالحرب المقدسة اذن دائمة على حدود الاسلام . ان الخليفة العباسي الذي عرف جيداً كيف يجيد الدور الذي عليه تمثيله ، قام كل عام بغارة ببيزنطية : وقد شجع المتطوعة الذين أطاعوا الشريعة بخشوع على ان يقيموا في الربط في الاقاليم البعيدة حيث يحيون هناك حياة رهبان محاربين : وفي فترة معينة حين امتلأت صفوف جيش الخلافة بالمرتزقة قام المتطوعة بالحرب المقدسة في الحقيقة بدورهم القديم كمدافعين عن العقيدة .

ان الصلح الحقيقي بين المسلمين والكفار أمر مستحيل ؛ وهذه فكرة نظرية ومطلقة لا تستطيع ان تقف في وجه الحقائق، لذلك كان يجب ايجاد « الحيلة » الشرعية لعقـــد اتفاق غير ملزم للمسلمين يمكنهم نقضه متى ارادوا . لقد جوّز الدين لامراء المسلمين عقـد هدنة او مهادنة مع الكفار مدتها القصوى عشر سنوات ، في حالة ضعف الدولة الاسلامية ضعفاً شديدا ، وبشرط أن تكون الهدنة لمصلحتهم . والمسلمون احرار في خرق هذه الهدنة اذا شاءوا على أن يكفروا عن نقضهم ميثاقهم .

الجهاد « جهد » و « غيرة » على الدين ، مما دعا السنة الى أن تعتبر الحج جهاداً يعني مجاهدة إمام الجماعة الاسلامية ضد المسلمين الذين ينبذون أصول الدين الحنيف . قام الفاطميون بحرب في سورية باسم الجهاد ضد الخلفاء العباسيين وضد الحمدانيين ؛ والجهاد هو الذي برر شرعا مطاردة المراطقة .

ان جيش المتطوعة وهم جمهرة المجاهدين الذين امتلأوا حماساً للفتح ، سرعان ما أصبحوا بالنسبة للخلفاء الامويين عوناً خطراً مشكوكا فيه ، لذلك حاولوا أن يقووهم بقوات نظامية دائمة ، هكذا اقتبسوا أنظمة البيزنطيين العسكرية وهي الاجناد ، وكان على العرب أصحاب الاراضي أن يزودوا الدولة بعدد من الجند . وقد سجل هؤلاء في سجلات دواوين الجند برواتب معينة اضافة الى حصتهم من الغنائم . في هذه الجيوش « الشامية » المؤيدة المطيعة للأمويين كان نظام القتال قد جعل على غرار تنظيم الاعداء ؛ لقد هجرت عادة تنظيم الجنود في صفوف تجري في مقدمتها المبارزات الفردية التى وجد العرب القدماء فيها مجالا للمفاخرة ؛ وحل محلها نظام الكراديس التي لكل منها فرديته الخاصة . وقد أدخل الموالي إلى الجيش . ومنذ العهد الاموي كانت هناك قوات مرتزقة .

وجد الامويون في طاعة أهل الشام — أي العرب المقيمين في سورية قوتهم الرئيسية . في حين كان عماد العباسيين في حماية أنفسهم تلك القوات التي جاءت بهم الى الخلافة ، وهم العرب الموجودون في الولايات الشرقية والذين أصبحوا تحت النفوذ الفارسي ، وكذلك الموالي الفرس أو الذين دعوا بالخراسانيين . وهؤلاء كأهل الشام انصار الامويين من قبلهم ، سرعان ما استنزفوا كل قابلياتهم الحربية ،

مما اضطر الخلفاء الى الاعتماد على المرتزقة الاجانب الذين أصبحوا بعد وقت من الزمن سادة الامبراطورية . بهذا الشكل الف الترك ارستقراطية عسكرية قسم أفرادها الولايات فيما بينهم ، حتى جاء العثمانيون فأعادوا بناء الدولة الاسلامية بالشكل الذي اتفق ومصلحتهم الخاصة كما نظم المماليك في مصر جيشاذا نموذج أصيل ، حوى مجموعات من الرقيق اشتروا من الاسواق ، ومرتزقة من عبيد محررين غدوا أصحاب اراض واضيف اليهم أيضاً جماعات غير متجانسة من السكان الاصليين .

وإننا لنجد الجنود القدماء المجاهدين بين المتطوعة الذين حاربوا على الحدود . وفي القوات التي نظمها هارون الرشيد نجدهم على استعداد للقيام بغارات أو المساهمة بالحملات السنوية ضد البيزنطيين . وفي جميع مراكز الضعف على اطراف البلاد الاسلامية نراهم يملأون الربط ، وهي المعسكرات التي تربط فيها الخيل دائما على استعداد لكي تسرج للمعركة . وبعد حين أصبح الرباط نوعا من حصون العبادة يعيش فيه رجال قد نجد بينهم زهاداً محاربين ساهموا في الحروب الصليبية بعدئذ . اما المرابط فهو الرجل الذي يعيش في الرباط .

ومنذ بدء تنظيم الجيش بشكل ثابت قسم الجنود الى جماعات على الطريقة الرومانية في عشرات ومئات والوف وعشرات الالوف وقد استرجع الاتراك هذا التقسيم كما فعل المماليك أيضا وسلاطين مراكش وغيرهم . واستعملت الالفاظ القديمة لتلقيب ضباط مختلف الوحدات بادئة باصغر رتبة ، عريف ، نقيب أو خليفة ، قائد ، أمير .

هكذا نجد الجيش الاسلامي يتكون في العصور القديمة ابتداءاً

من أواخر القرن (٩٠٠م = ٣٥٣هـ) من فئات مرتزقة وقوات موقتة تجند من السكان الوطنيين حسب قواعد مختلفة .

هذا هو التنظيم الذي يكون في كل مكان ضروريا واجباً في ظروف مماثلة ، ففي مراكش الحديثة قبل الحماية الفرنسية مباشرة ، كان السلطان يقوم بغارتي الربيع والخريف اللتين منحتاه شيئا من السلطة وزودتاه ببعض الموارد المادية ، ولهذه الغارات كان يجمع فرسانا موقتين حول جماعة من القوات الدائمة . لكن جيش السلطان هذا لم يكن ذا تكوين موحد ثابت ، اذ عند بدء تشكيل أية أسرة حاكمة كانت قبيلة السلطان نفسه والشخصيات الرئيسية من القبائل المحالفة هي التى تكون نواة جيشه . والمصلحة الشخصية لهذه العناصر هي التى تضمن طاعتهم ، لكن تآمرهم يكون خطراً دائما على طمأنينة حاكمهم الذي لا يلبث أن يكتشف ذلك . ومن ثمة يوجد حرساً مرتزقا يخلص نفسه له مادام يجد انه معزول عن الحياة الاجتماعية المحيطة به . وهو يؤلف هذا الحرس من الاحباش والترك والزنوج وحتى من غير المسلمين كالنصارى .

في دولة اسلامية فترفيها الحماس الذي تميزت به الفتوحات الاولى يتكون العنصر الاساسى في الجيش من المرتزقة الذين تفرقهم أية همسة بالتآمر او أية اشارة الى الاستسلام .

وقد استولى أولئك الجنود الاجانب على السلطة في فترة اضطراب معينة فى التاريخ الاسلامي ، كالبريتوريين في روما ، واضطر الحكام الاقوياء الى اللجوء الى الاعدام بالجملة لينقذوا أنفسهم منهم . وما مجزرة الانكشارية في عام ١٨٢٦ سوى مثل قريب لهذا الاسلوب.

هكذا صار تجهيز رواتب الجيش منذ أيام العباسيين أحـد

الضرورات الملحة في الميزانية الاسلامية . وقد بين بعض المؤرخين كاشارة هامة تدل على الادقاع والفقر ان الخليفة في القرن (١٠م = ٤ هـ) كان عليه ان يقلص مصروفات مائدته ليلبي مطاليب جنده .

* * *

ما زال نظام الضرائب فى الاسلام غير مدروس بصورة وافية وسنكتفي هنا بوصف موجز ، ربما لايكون دقيقا فى كل أجزائه . خضعت الجماعة الاسلامية من حيث المبدأ لضريبة واحدة هى الزكاة ، لكن مورد هذه الضريبة لم يكف لملء بيت المال وذلك لان جزءاً كبيراً من منتوج الزكاة كان يبقى لعلة شرعية أو غير شرعية فى أيدي موظفي بيت المال . ومنذ بدايات الفتح الاسلامي وجدت موارد جديدة هي الغنائم والفيء . وهي الغنائم المنقولة ومخلفات ميدان الحرب واسلاب المعسكرات والبيوت وغيرها ، ومنها يأخذ الخليفة الخمس . ثم أدى احتلال البلاد الخارجيـة الى ان يحصل المنتصرون مقدارا هائلا من الغنائم غير المنقولة وهي أراضي المغلوبين . وقد ميز فقهاء المسلمين بعدئذ بين الاراضى المأخوذة عنوة وبين التي أخذت صلحا . لكن لم يتقيد الذين فتحوا بيزنطية وفارس بهذه المبادىء المحددة ولم تعقهم هذه التشريعات غير القابلة للتغيير . فقد وجدوا أمامهم نوعين من الثروات : الثروات الخاصة وثروات العائلة الحاكمة واعتنق بعض الملاك الاسلام حالا وأصبحوا هم وأملاكهم خاضعين لنظام الزكاة الاسلامي ؛ لكن فى أغلب الحالات احتفظوا بدينهم وعاداتهم وبالتمتع القلق باراضيهم ، التى فرضت عليها الجماعة الاسلامية بحق الفتح ، نوعا من السيادة العليا ، وقد جبيت من هذه الاراضي غير الثابتة ضريبة هي الخراج .

اما النوع الثاني من الثروات فهي مقاطعات الاباطرة البيزنطيين وملوك الساسانيين ، وقد شملت كذلك الاراضي التي كانت منذ مدة طويلة ليس لها مالك او التي هجرت حديثا بسبب فرار أصحابها أمام الفاتحين . وأدى بعد نظر حكام الاقاليم ورغبتهم في حماية مصالح بيت المال الى أن يخلقوا من تلك الاراضى أملاكا قسمت لافراد من الخاصة فرضت عليها ضريبة تشبه الخراج وتعرف بنفس الاسم : هكذا ضمنت زراعة تلك الاراضي كما تأكد في نفس الوقت وارد المجتمع . وكان على القادرين من سكان المدن غير المسلمين أن يدفعوا جزية هي التي يعوض عنها في الريف الخراج .

استمرت هذه الاوضاع في المناطق البيزنطية على شاكلة الانظمة المحلية السائدة ، واتبعت في حالات أخرى تقاليد قريبة منها ، لكن هذه الاوضاع اضطربت منذ القرن (٨ م = ٢ هـ) بفعل تحول سكان البلاد المفتوحة الى الاسلام . من هنا أدى زوال « الكفر » الى زوال الخراج والجزية ، ولما كانت خزينة الخليفة لا يسعها الاكتفاء بالدخل الضئيل وغير المضمون من الزكاة ، لذا نرى انه تقرر ان تستمر الاراضي المفتوحة على دفع الخراج ، مهما كان دين أصحابها ، ولم يفرض قانون كهذا بسهولة .

كان الخليفة هو الذي يقرر مقـدار الخراج بحسب العادات الجارية قبل الفتح . ويقال : إن عمر وجد ان نظام الضرائب الذي فرضه الساسانيون على أراضي السواد قد حصل بمعدل واطىء جداً وان من الضروري زيادة المعدل . ولقد سهل جباية الضرائب الى حد كبير وجود الاملاك الواسـعة ، وأوجدت الادارة شخصية مسؤولة عن ذلك . وجامع الضرائب هذا أي العامل كان مستقلا عن

الامير ويعينه الخليفة مباشرة . واحيانا كان يعطي تعهداً مكتوبا بان يدفع مبلغاً معينا لبيت المال ، في حين يأخذ على عاتقه واجب جباية الضرائب . ومنذ عهدهارون الرشيد أمكن الوصول الى مرحلة توزيع الضرائب ، وفي مصر وضعت بالمزايدة . وهناك كما في أي مكان اتبعت هذه الطريقة لمحاولة ملء الخزينة الفقيرة رغم وجود نظام اقتصادي ركيك منهار . كما لم يعد هناك تمييز بين العشر ، أو الزكاة وبين الخراج ، فان نفس العامل كان يجبي الضريبتين .

ولم تكن الضريبة الشخصية ، وضريبة الارض ، هما الشيء الوحيد الذي اقتبسه الاداريون الاول للجماعة الاسلامية من الانظمة المالية الناضجة للامبراطورية البيزنطية. فقد فرضوا ضرائب على المسافرين والداخلين والمغادرين أو على المرور في مقاطعاتهم ؛ وعلى الاسواق والاوزان والمكاييل والطواحين والري وهكذا ، وهذه رسوم وصمها الخلفاء بأنها غير شرعية (مكوس) ، لكنهم أخذوا يجبونها نظراً لحاجتهم اليها . وقد أبدى كل حاكم حين مجيئه الى الحكم ميلا الى إلغاء المكوس ، لكنه لم يأنف من أن يتركها الى خلفه بعد زياد كميتها . وقد حصل الحكام على مورد اضافي من الهدايا الاختيارية التى تهدى اليهم في مناسبات الاعياد أو غيرها .

يبدو أن حصة الخليفة بوصفه ممثلا للجماعة الاسلامية كانت تحدد مقدما من جانب القانون والعرف : وحصته الخمس من جميع غنائم الحرب وانتاج المناجم وسيب البحر والعبيد الفارين والاملاك التى ليس لها وارث .

***

تحدثنا عن رعايا الخليفة كما لو كانوا متجانسين مع بعضهم . فمن

الضروري أن نوضح بأن هؤلاء ، ينقسمون الى أقسام متميزة .. فالجماعة الاسلامية مكونة من مؤمنين أو مسلمين هم الاحرار الذين الذين يظل العبيد المحررون بينهم على ارتباط مع عائلة مالكهم الاصلي وعبيد أوصى القرآن والسنة بتحريرهم . وبين غير المسلمين يعتبر الوثنيون من حيث المبدأ خارج دار الاسلام ، وتجب حربهم على اراضيهم وهي دار الحرب ، لكن الواقع العملي جعل هذه القاعدة مطاطة الى حد ما . عومل غير المسلمين من أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، والمجوس وبعض الوثنيين ، فى أوطان المسلمين معاملة استضعاف اذ فرضت عليهم الجزية .

في بداية الفتح فى البلاد البيزنطية والفارسية ، احترم الوضع الاجتماعي والديني لاهل الكتاب . وكان الجاثليق ورأس الجالوت (١) أو شخصية مهمة اخرى من هذه الجماعة ، يتولى الاشراف عليها ويحكمها وفقاً لعاداتها الخاصة القديمة . وعلاوة على ذلك كان الذمي يستطيع المثول أمام القاضي الاسلامي مع ان شهادته تعتبر غير ذات قوة شرعية . وكانت دية الذمي نصف دية المسلم . أما أهل الذمة الذين يتهمون بالتآمر مع اعداء الاسلام فيعاقبون بقسوة ولم تسر عليهم العقوبات المتعلقة بتحريم شرب الخمرة .

هكذا نرى ان وضع اهل الذمة أدنى فى المرتبة من المسلمين . وقد قاسوا كثيراً تحت حكم الخليفة العباسى المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م = ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) وتحت حكم الخليفة الفاطمي الحاكم : (٩٩٦ — ١٠٢٠ م = ٣٨٦-٤١١ هـ) إذ وجهت اليهم اهانات مختلفة ، نسبت الى الخليفة عمر الذي لم يكن قد فكر فيها البتة : كان عليهم

---

(١) الاول رئيس ديني للنصارى والآخر لليهود .

أن يفسحوا المجال للمسلمين في الطرقات واماكن الاجتماع ، ومنعوا من الركوب ، وحتم عليهم أن يحملوا شعاراً معينا على اكتافهم ، يكون لونه ازرق للمسيحيين وأصفر لليهود واسود أو أحمر للمجوس ويجب ان تكون بيوتهم اقل ارتفاعا من بيوت المسلمين . وبعدئذ كانت كنائسهم وبيعهم التي سمح لهم بالاحتفاظ بها موضوعا لنزاع حاد ، وقد ازيل بعضها وحرم اصلاح البعض الآخر . بحيث أصبحت خرائب . وقد تسامح المسلمون معهم في أداء شعائرهم الدينية الى الحد الذي لا يعكر حياة الجماعة الاسلامية ، وهو قرار معقول لكنه أدى الى سوء الاستعمال من جانب البعض .

ومع ان غالبية أهل الذمة اعتنقوا الاسلام ، فقد بقيت جماعات هامة في المدن الرئيسية للامبراطورية من اليهود والنصارى الذين ظلوا يدفعون الجزية لكنهم مع هذا احتلوا مكانة بارزة في حياة الدولة الاسلامية . فقد كان طبيب الخليفة يهوديا أو نصرانيا ؛ كما ان أهل الذمة ملأوا الدواوين والوزارات ؛ ومارس آخرون الصيرفة او التجارة ؛ لذلك شعر العامة بالغيظ الشديد القابل للانفجار فى اية لحظة على هؤلاء الاشخاص الذين تظاهروا بالتواضع التام لكنهم كانوا منعمين في حياتهم الخاصة ومتمتعين بالنفوذ في الدولة ؛ وبمجرد أن يدعو الفقهاء يهب العامة منفجرين ضد اليهود والنصارى

ان وجود الاجانب غير المسلمين في الوطن الاسلامى أمر لا يمكن تحاشيه . فعلاوة على السفراء الموفدين من جانب الامراء الاجانب والذين تمتعوا بحماية خاصة فكانوا بذلك حالات استثنائية ، نجد تجاراً أجانب من جميع الجنسيات والاديان وقد كانوا من بعد القرن (٨ م — ٢ هـ) كثيرين في داخل الامبراطوريه . وقد وجد

الدين في عادة الجوار العربية القديمة حيلة [وسيلة] شرعية لضمان سلامة التجار الكفار في الوطن الاسلامي ، دون تجريدهم من صبغة الكفر في آن واحد ؛ وقد يعطي الخليفـة أو الوالي للاجنبي أمانا بمنح طريد القانون الذي يحل دمه وماله للمسلمين ، نوعا من الحماية موازيا لتلك التي يتمتع بها الذمي . حاول الدين ان يجعل الناس يعتقدون بان الامان تكون صلاحيته لاربعة أشهر فقط ، أو لسنة على الاكثر ، لكن هناك أدلة على ان اقامات أطول من هذه كانت شائعة .

يسافر المستأمن ، أي الكافر الذى بحوزته الامان ، ويتاجر في ارجاء الاقاليم التي يحكمها الخليفـة الذي ضمن له السلامة . وظل المسلمون المتمسكون بمبادئهم بشدة يعتقدون بان الاتصال بالكافر غير طاهر ، وانه يستدعي غسلا تاماً . وسنذكر في الفصل الثالث عشر أهمية التجارة الاجنبية في المجتمع الاسلامي .

منذ القرن (١١ م = ٥ هـ) وضعت الظروف بعض الجماعات الاسلامية في وضع مشابه لوضع الذميين تحت الحماية الاسلامية ، وذلك في سورية في المناطق التي احتلها الصليبيون ، وفي الاندلس في المقاطعات التي استرجعها الاسبان . وفي عام (١١٨٤ م = ٥٨٠ هـ) نجد ابن جبير الاندلسي بعد ان تحدث عن نظام التسامح الذى عاش في ظله المسلمون السوريون تحت حكم امراء الفرنجة ، يقارن هذا بما شاهده بصقلية حيث بلاط الملوك النورمانديين يمتلىء بمتحولين عن دينهم غير مخلصين وحيث يعيش عامة المسلمين بامان ، لكن حيث يقاسي رجال الفكر المهانة والذل .

وفي هذا القرن نجد عدد المسلمين الذين يعيشون ضمن الدول

« الكافرة »، كبيراً وهم ليسوا مستعمرين. محتقرين كما أصبحوا تحت حكم الاسبان حين احتلوا الاندلس فصار المسلمون كالذميين الى حد كبير. ومع هذا فهؤلاء المسلمون المحدثون يعوزهم جانب كبير من حقوقهم المدنية والسياسية .

وهناك فتاوى خولت المسلمين السكن في « دار الحرب » ، على شرط أن يستطيعوا انجاز كل فرائضهم الدينية بحرية .

ليس من الممكن أن نتتبع تطور النظم المذكورة في هذا الفصل خلال القرن والنصف الأخيرين . وفيما يتعلق بالعلاقات الدولية يرجع تاريخ المعاهدات التي عقدها الامراء المسلمون مع الحكام النصارى الى ألف سنة ، وهي معاهدات خرقت كثيراً من قبل الحكام المتعاقبين من الجانبين ، لكنها مع ذلك أقامت نظاما سياسياً واقتصاديا نافعــاً للفريقين . ان الاتفاقات التي عقــدت خاصة بتنظيم وضع الاجانب غير المسلمين فى دار الاسلام والمعروفة باسم الامتيازات الاجنبية خلقت جماعات من الاشخاص المحميين حول قناصل الدول الاوربية . وقد أثرت تأثيراً بالغا في الحياة الدولية في تركية ومصر وفارس ودول المغرب . وقد أزيلت حديثاً كنتيجة منطقية للتطور السياسى فى العالم الاسلامى. والمعاهدات المعقودة أخيراً منعت دخول الكفار الى المدن المقدسة مكة والمدينة وماجاورهما ماعدا مينائي جدة والحديدة .

أما الاوربيون غير المسلمين ممن دخلوا فعلا الى المدن المقدسة ووصفوها أمثال (برتون) و (سنوك ـ هيرجرونيه) و (وافل) وغيرهم ، فقد فعلوا ذلك مغامرين بحياتهم . إن تقدم الدراسات

التاريخية بين المسلمين يدعونا الى أن نأمل بأن يأخذ هؤلاء على عاتقهم الدراسات الاثرية المطلوبة .

إن الزكاة لم تختف كلية من قائمة الضرائب المفروضة في البلاد الاسلامية ، شأنها شأن الجزية على اهل الذمة . لكن كليهما في اغلب الاقطار الاسلامية قد دمجت في نظام مالي موحد على الطراز الاوربي . ويعتبر تطور تركية تاما في هذا المجال كما هو في المجالات الاخرى .

« المصادر »

E. J. Arnold, khalifa, Mez, renaiss ance ance, Ibn Hodeil, Traite de djihad; Heffening, islam.

الفصل الثامن

العائلة

الزواج . مراسيمه . الطلاق . الرق . فك الرقبة .

*

يجدر بنا عند الدخول فى دراسة تجلى تتصل بالشروط التي تحكم كلاً من الحيـاة الفقهيـة والتراث الدينى للمسلمين ، أن نكرر ثانية ان الشرع الاسلامى مادام مشتقا من القرآن والسنة ، ولا يستطيع أن يفصل الحياة الروحية عن الحياة الدنيوية ، فهو إذن شرع ديني ، كما لا بأس أن نكرر ان هذا الشرع الديني هو النافذ في كل العالم الاسلامى ، وانه بين حين وآخر تكمله العادات المحلية أو قد تناقضه احيانا . تلك العادات التي لا تزال تحتل مكانا مرموقا فى الحياة الفعلية للشعوب ، إلا اننا لا نستطيع أن نأتي على وصفها هنـا . وعلينا أيضا ان نتذكر ان الروح العربية المسلمة لاتعرف شيئا عن عادة تجسيد المبادىء فى صيغ قانونية بعكس ماكان الامر فى القانون الروماني القديم : وقد دعى القرآن والسنة الى

اتخاذ قرار في بعض الحالات الخاصة ، كما استطاع التراث الاسلامي بالقياس أن يفيد من حلول القرآن والسنة لهذه الحالات ، ويجعلها تشمل حالات أخرى مشابهة . هكذا نجد الفقه الاسلامي مجموعة من حالات نموذجية .

لم تكن العائلة المسلمة من صنع عقل الرسول ، ذلك انها هي نفس العائلة العربية الاصلية ، لكنها وضعت في اطار دين علوي . ان العائلة البدوية التي هي نواة القبيلة ، اعتبرت أبناءها الذكور العنصر الاساسي لحياتها الزراعية ولكفاحها المستمر من أجل بقائها . وقد أكد هذا العنصر خصب الانسال ونظام تعدد الزوجات ، الذي زود العائلة بكثير من الاعمال النسوية . أما عدد الابناء لدى هذه العائلة أو تلك فقد كان بالتالي امراً من الاهمية بمكان كبير ، وكان هذا الامر يحصل بطريقتين : إما ان المرأة وأطفالها يصبحون جميعاً اعضاءاً في عشيرة زوجها ، أو تبقى المرأة في عشيرتها الخاصة وتنسب أولادها اليها . وآثار هذه الطريقة الثانية من الزواج وجدت احيانا في القصص التي تصف العادات القديمة بين البدو ، ويمثلها اليوم المركز الخطير الذي يحتله الخال . لكن في حياة الرسول كان النوع الاول من الارتباط الزوجي اكثر شيوعا في بلاد العرب ، كما كان طبيعيا مألوفا في الاقطار الشرقية التي أدخلتها الغزوات والفتوح ضمن الامبراطورية الاسلامية ، والتي اتبعت إما قانونا رومانيا بيزنطيا أو قانونيا ساميا : وهذا النوع من الارتباط هو السائد اليوم في العائلة الاسلامية .

من الصعب أن نتتبع المقدمات التاريخية لهذه العادة . فهناك بعض الوقائع المعينة تظهر ان عادات أو تقاليد حياة الزوجية

كانت تختلف في مكة عنها في المدينة ، وهذه الاخيرة متأثرة دون شك باليهود ، وتباطأت أول الامر في قبول العلاقات مع المهاجرين أو تنازعت في ذلك ؛ لكن هنا أيضا افلح الرسول في التوفيق بين عادات ومصالح الطرفين .

لا زالت العائلة الاسلامية أبوية يحتفظ رئيسها بسلطته على زوجاته ، وابنائه حتى الكبار منهم وعلى احفاده أيضا ، وعلى رقيقه الى آخر يوم من حياته . وطفل المرأة المتزوجة يرجع الى زوجها ما عدا الحالات التي يعترض فيها الاخير أو التي يظهر فيها الاخير بالحجة والدليل ان للطفل اصلا آخر .

اعتبر الزواج قبل الاسلام نوعا من البيع ، يقدم فيه الزوج بعد اتفاقه مع شريكته المقبلة ، الى أبي زوجته كمية من المال دعيت بالمهر . وقد صان الزواج الاسلامي هذه الانماط القديمة ، إلا ان المهر يلزم تقديمه الى الزوجة ، بوصفه تعويضا عن تنازلها عن شخصها .

تحصل الخطبة في الزواج بعد مباحثات ومداولات دقيقة يلذ للنساء ان يشاركن فيها : وغالبا ما يكون الزواج بين ابناء العم ومتفقا عليه منذ مدة طويلة ، وللجانبة الرفض يستعين طالب الزواج بشخص ذي منزلة يستطيع ، اعتمده من جاهه ان يحقق مطلبه بنجاح. وعند تدبير الشؤن المالية بين العائلتين ، يعين تاريخ عقد النكاح وهذا يفضي الى الزواج ، الذي معناه اعلان موافقة الجانبين ودفع الزوج ما عليه من مهر .

إن موافقة الجانبين هي الشرط الاساسي الملزم لصحة الزواج. فيعطي الرجل الموافقة بنفسه ، إلا في الحالات التي لم يبلغ فيها

الحلم ، أو يكون فاقداً فيها للاهلية : فى هذه الحالة يتدخل ولي الخاطب ويعطي الموافقة بالنيابة . أما المرأة فهي دائمـــا فاقدة للاهلية : ويختلف العلماء فيما اذا كان لها أو عليها ان تعطي الموافقة لكن الشريعة تتطلب من ولي نكاحها ان يعلن الموافقة : في حين تظل هى صامتة . ان هذا الولي اما ان يكون والد الزوجة أوجدها أو في حالة عدم وجود هذين أي واحد من افراد العائلة الادنين ، أو أخيراً شخص يعينه القاضي . ان للاب والجد سلطات خاصة ، ولهذه السلطات آثار حاسمة توجهت التشريعات الحديثة الى معارضتها بقوة : ولما كان من حق الاب أو الجد فى بلاد العرب القديمة جبر البنت على الزواج ، وجدنا أباً منهما يسمى : الولي المجبر . هذه السلطة المجبرة تتلاشى حينما تكون المرأة عزباء جاوزت سن الشباب.

إن المهر أو الصداق ، الذي يدفعه الزوج ، هو أمر يقرره القرآن للزوجة ، وليس لوالدها فيه حق ، لكن ترتيبات متنوعة ، استطاعت أن تضعه فى النهاية بين يديها ، ومن المعتاد أن يدفع نصف المهر أو ثلثاه عند العقد ؛ ولا تحصل الزوجة على بقية صداقها إلا بعد الدخول بها ، ومن الممكن دفعه بعد فسخ الزواج ؛ واذا فسخ الزوج العقد قبل الدخول ، فعليه أن يترك نصف المهر بيد زوجته . اما كمية المهر فيعينها الطرفان ، وقـــد يكون في غاية الضآلة : والحديث غني بالروايات في هذا الشأن . أما اذا لم تعين كمية المهر فى العقد ، فيتم ذلك بالرجوع الى مهر المثل وتقدر قيمته على أساس المركز الاجتماعي للمرأة .

ليس لعقد الزواج صفة دينية معينة ، فى الوسط الاجتماعي الذي يخلط بين الاخروي والدنيوي ، وقد يحتفل بالزواج في المسجد

أو في بيت احد الطرفين . ويبدأ الاحتفال بتلاوة الفاتحة ، أول سور القرآن ؛ وهي على أية حال مقدمة لأي عمل في حياة المسلم. والخطبة يلقيها غالباً ولي العروس ، أو شخص عالم ورع . وحين تكون أسرتا الطرفين المتعاقدين غير متفقتين لزم ان يؤكد شخص مثقف مراعاتهما للقواعد ، وان صيغا معينة قد تليت . ومن الضروري أيضا ان كلمات العقد الذي سيكون له نتائج أخلاقيــة ومادية خطيرة تكون معروفة لشخصين يسعهما في المستقبل ان يشهدا بذلك ؛ وهما شاهدا عدل يحملان اسما وصفات تزكيهما امام القاضي للقيام باعمال من هذا النوع .

ويمكن أن يتم عقد الزواج بين شخصين دون سن الرشد بوكالة من وليهما . وتعين سن الرشد بصورة تقريبية بين الخامسة عشرة والثانية عشرة أو اقل من ذلك ؛ ومن رأي الفقهاء علاوة على ذلك ان سن السابعة يمكن الصبي ان يعطي فيها موافقة صائبة. ان الولي يحكم حالات غير محددة كهذه كما يرتأي ويحدد موعد الدخول لمجرد ان يعترف للخطيبين ببلوغهما سن الرشد . ويستطيع المجنون ان يتزوج مادام وليه يساعده بحضوره .

تمسكت الشريعة الاسلاميــة بالقوانين التي تمنع الزواج بين الاقارب الادنين ويشمل هذا المنع حق الاعمام والاخوال وبنات الاخ او الاخت . وقد جرت العادة بتحبيذ الزواج بين ابناء العم ولا يسمح بأكثر من اربع زوجات في آن واحد ، وكذلك لا يجمع بين الاختين في بيت الزوجية . لكن بعد انفصام عقد الزواج ، أو بصورة خاصة بسبب موت الزوجة نشاهد من المألوف الزواج

بأختها وإن لم يكن لذلك قوة القانون ، ونفس هـذه الحال عند اليهود ، ويبدو ان ذلك كان متبعا في بلاد العرب القديمة .

يمنع الزواج بالام المرضعة وقد قرر هذا الشرع الاسلامي كما كان متبعا في بلاد العرب قبل الاسلام ؛ وقد مد الفقهاء التحريم الى عدد كبير من اقارب الام المرضعة او الطفل الرضيع .

أما الزواج من غير المسلمين فهو ممنوع ، وقد استثنى القرآن من ذلك نساء أهل الكتاب اللاتي سمح للمسلمين بالتزوج منهن ، لكن العقيدة الاسلامية والمذهب الشافعي خاصة جعلت زواجا كهذا غير ممكن من الناحية العملية . وعلى نفس هذا النمط من التحسس لم يسمح القرآن للمرأة ان تتزوج برجل دون طبقتها الا في ظروف استثنائية ؛ ان حالة الزوج تقررها مرتبته الاجتماعية وثروته التي يجب ان تكون كافية ليعيل زوجته ويستمر معها في حياة مادية تماثل ما ألفته من قبل . ويسمح للزوج أن يتزوج الامة ، وقد سار الامراء غالبا على التزوج من رعاياهم .

هذه هي القواعد الرئيسية التي تحكم الزواج ، المربوط بعقد والذي يتمم مراسيمه الدخول . لكن في الحياة الاجتماعية نرى ان هذه القواعد تضيع في احتفالات وطقوس معقدة متشابكة غريبة عن الاسلام ، وهي عادات سحرية قديمة توجد لدى جميع الشعوب مع التباين حسب معتقدات كل منها . وخطوة خطيرة كهذه لدى الطرفين المتزوجين او الطائفة الاجتماعية التي ينتميان اليها هي مسألة مشوقة لكل فرد ، حتى أن طائفة الجن نفسها تعنى بها على الرغم من انها غير منظورة ، وذلك لانها ذات روابط وثيقة بعالم الناس . ويجتاز كل من المخطوبين جماعة العزاب ، ويدخل في جماعة المتزوجين ؛

وهناك طقوس معينة يلزم ان نلاحظ في مثل هذا الانتقال من الجماعة الاولى الى الاخرى .

يلزمنا ان نميز في العالم الاسلامي بين عادات البدو والزراع المستقرين وسكان المدن كل على حدة ، وقبل الدخول في تفاصيل لانهاية لها سنعمل على ملاحظة التطبيقات الرئيسية الموجودة في كل مكان. يطلق اسم العرس على مجموعة احتفالات الزواج وبالتالي يطلق على الرجل والمرأة اسم العريس والعروس ، ابتداء من عقد الزواج الذي تعقبه الوليمة المدعو اليها افراد العائلتين الذين يجتمعون على وئام ، ويدعون معهم البارزين من طبقتهم الاجتماعية ، وتعتبر العقيدة مثل هذه الوليمة مظهراً إلزاميا يراد به إشاعة امر الزواج واعلانه على الملأ . ويعتبر الامتناع عن قبول الدعوة الى هـذه الوليمة سبة ،الا ان القاضي مع هذا يستطيع أن يرفض الدعوة .

وتدور أهم المراسيم حول الدخلة . فنجد بين سكنة الريف آثار عادة الخطف وهروب الزوجة باقية ملحوظة . بينما في المدن يعتبر حمام المتزوجة فرصة ابتهاج كبرى للنساء اللائي يجتمعن في حمام مؤجر لهذا الغرض طيلة النهار . وتكون زينة الزوجة ليلة الحنا وفيها تصبغ اطرافها بالحناء ويزين مظهرها ، وهذا عيد آخر يحتفل به في بيت العروس . وفي النهار التالي تزف العروس الى بيت العريس حيث الزينات فتأخذ العروس مكانها على « الكرسي » وتحاط بعرض الهدايا والتحف وهذا عيد ثالث كبير للنساء . وفي هـذه الاثناء يكون الزوج قد ذهب هو الآخر مع اصدقائه الى الحمام ، ويقوم بزيارة الى المسجد او في كثير من الاحيان الى قبة احد الاولياء ثم يعود إلى منزله يحف به موكب الناس مع الموسيقى والرقص والغناء . ثم

يدخل به الى زوجته .

في اثناء هذه المراسيم والاحتفالات يعرض العروسان بصورة خاصة الى اصابات الجن واخطار العين الحاسدة . ولذا يكون دور الوقافين وهم وزراء سلطان هذا اليوم ان يحفظوا العريس من عين السوء ، قبل ساعة الدخول بزوجته ، وتحدث طقوس معينة يلعب فيها دوره حبات الشعير والرز والرمان واللوز والسمك والبيض ، كل هذا الحماية العروس من العقم وتهيئة السهيل امامها لتكون كثيرة الولد . والمظاهر العامة لعذرية المرأة ذات أهمية ، لأن ذلك يتغلب على امكانية انفصام عاجل لعرى الزواج ، وقد ادت جفوة هذا العمل وفظاظته الى اضعافه او الى محاولة الغائه وابطاله . ويعقب ليلة الدخول وليمة ، تحل عادة في بعض البلدان محل العقد . ومدة الايام السبعة التى تخلف هذه الليلة تقرر على العروسين بعض النواهي التى تجب مراعاتها بدقة بالغة .

يرتبط زواج الارملة او المطلقة ، بعقد زواج ايضا ، كما يحصل في حالة العذراء تماما ، إلا ان هذا العقد لن يعني القوى غير المنظورة ، ولذا يكتفي زواج كهذا ببعض الولائم التقليدية وشيء من مظاهر الافراح المتزنة .

تمنح الشريعة والعرف الرجل سلطة مطلقة على زوجه واطفاله إلا ان قانون القرآن الذي يقف بجانب المرأة الى حد كبير قد منح المرأة نظريا على الاقل ، ميزة يمكن القول عنها انها اكثر فائدة من قوانين اوربا الحديثة ، فيسع المرأة المسلمة ان تدير شؤنها المالية بنفسها ، وهي سيدة الصداق الذي تحصل عليه من زوجها ، كما هي أيضا سيدة اي مال يأتيها عن طريق الميراث او الهبة او عن

ما تكسبه يداها . الا انه في واقع الامر يكون من الصعب على المرأة الاستفادة من كل هذه الحقوق واستعمالها ، وان ضمن للمرأة مع ذلك معاشها وسكنها وخدمتها حسب مركزها الاجتماعي .

إن الرجل ارفع من زوجته : « وللرجال عليهن درجة (ق : س ٢ ، ٢٢٨) » ؛ وللمرأة نصف ما للرجل من حقوق في فدية القتل والارث والشهادة . ويعترف القرآن للزوج بحق الاصلاح في صورة الضرب والهجر . إلا ان القرآن من ناحية اخرى ينصح بالاعتدال. ويعتمد مركز المرأة في الحياة الزوجية ، كما هو في غير مكان ، على مواهبها الفردية في ان يسمع صوتها وارشاداتها وان يكون لها اثر باق . وهناك عدد كبير من الامهات في بعض العوائل لهن على افراد منزلهن سلطة قد تساوي سلطة ازواجهن .

إلا أن الشرع الاسلامي يضع المرأة المتزوجة ، كما سنشرح ذلك فيما بعد ، تحت أثر وعيد دائم من الطلاق دون أن تكون هناك أية حاجة لمثل هذا الطلاق أو تحت اثر التزوج بزوجة اخرى ، يمكن ان يكون حضورها عاملا على تغيير ظروف الحياة العائلية . من هنا يستحسن المذهب الحنفي ويتابعه في هذا بعض الفقهاء المحدثين «تعليق الطلاق » اي ادخال عبارات في عقد الزواج تمنع الزوج من تطليق زوجته ، وبالتالي يكون للمرأة حريتها ورغبتها في التعبير عن نفسها كما تشاء حين تطرأ على حياتها العائلية اية طوارىء جديدة كأن يتزوج زوجها بامرأة اخرى ، او يبتعد لفترة طويلة عن الحياة الزوجية ، او لا يسمح لزوجته بزيارة اسرتها بين الفينة والفينة او يمنعها من ان تقيم عند اهلها لفترات معينة .. الخ . كل هذه الشروط الممتازة في ذاتها هي مصدر من مصادر الشحناء والخداع .

هكذا نجد العقيدة تتوقع مقدما غياب الزوج لمدة طويلة ، بسبب الحج او التجارة ، وهناك عادة قديمة تسمح للرجل الذى يقيم بعيداً عن سكنه ، ان يعقد زواجا موقتا هو « المتعة » ويبدو ان القرآن يأذن بذلك ، وان الرسول قد سمح به وحلله للمحاربين في عهده . لكن عمراً اعلن بطلان المتعة . إلا ان الشيعة لا تزال تعده شرعيا ، وبالتالي يمكن السنه بشيء من الحذق في التفسير ان يثبتوا العادة ويؤكدوها من الوجهة الشرعية . وظلت العادة لمدة طويلة مقبولة في مكة على انها مناسبة للحجيج ، الذين يمكنهم ان يتخذوا منها شعيرة من الشعائر ، وفي ذلك عوض عن فترة الاحرام التى حرم فيها على الحاج الاتصال الجنسي .

احتفظ المجتمع الاسلامي ما خلا بعض الطوائف منه في خلال الفترة الاخيرة ، بالفكرة القديمة التى تفصل عشيرة النساء عن عشيرة ازواجهن . ويجب على المرأة المتزوجة ان لاتسفر عن وجهها لغير الرجال الذين لايحل لهم التزوج بها أي الذين حرموا عليها وهذه فكرة قد امكن اظهارها من الناحية الخارجية بصورة دقيقة عن طريق الحجاب .

كانت العادة ان تحل عقدة الزواج فى بلاد العرب القديمة لمجرد ان يرغب الزوج في ذلك دون ان يستشير زوجته في الامر ، ويتم الامر اما بتلفظ الزوج صيغة خاصة بالطلاق او بذهاب الزوجة الى منزل اهلها وبقائها فيه . ولم يترك لهذا الشكل الاخير من الطلاق في الحياة الاسلامية مكان فسيح فى نظمها . هكذا يستطيع الزوج ان يساير اوهامه فى تطليق زوجته وتحريرها منه شرط ان يقدم لها بقية مهرها اذا كان باقيا عليه شيء منه بعد العقد ، وحسب الزوج

ان يتلفظ في اي مكان او زمان ، صيغة معينة تعني الطلاق ليكون نافذاً ، واذا كان الزوج فاقد الاهليـة فان ولي امره يتدخل في الامر . وارتأى بعض الفقهاء ان السكر لا يبطل الطلاق . لذا كان من الخطر الكبير اعطاء مثل هذا المفعول غير القابل للنقض لالفاظ يمكن التفوه بها في أي وقت اراده الانسان وحسبما تيسر له (١). والوحي الذي كان على استعداد دائم لحل المشاكل تدخل فى كثير من آيات القرآن فى شؤن الطلاق . فأوجب قبل كل شيء ، أن تكون المطلقة تحت رعاية زوجها لعدد من الاسابيع حتى اذا ظهر انها حامل لزم اثبات ابوة الزوج للجنين وتخصيص نفقة للزوجة حتى تضع حملها . هكذا قرر الشرع وقتا للانتظار هو العدة التى تتكون من ثلاثة قروء تكون فيها تحت حماية الزوج ، وعنـد تمام العدة والتأكد من عدم الحمل يكون الطلاق ناجزاً مقرراً . وقد استعملت فترة العدة هذه لابطال امر طلاق جاء على عجل ، وما دامت مـدة القروء الثلاثة لم تنته بعد ففي وسع الزوج ان يعيد زوجته من دون أية مراسيم شكلية ، ويمكن ابطال الطلاق الثاني بنفس الصورة لكن الثالث يكون امراً نافذاً ثابتا .

ورأت العقيدة الاسلامية بعد مناقشات كثيرة ان في وسع الزوج اذا تلفظ صيغة كهذه « انت طالق ثلاثا » فان الطلاق يكون تاما لا يقبل الرد . اما اذا لم يذكر الزوج صيغة الطلاق اكثر من مرة

---

(١) يتم الطلاق عند الشيعة الاثنى عشرية بالحضور امام القاضى الذي يحاول اصلاح ذات البين ، فان لم يفلح بعد زمن ، قضى بالطلاق .

وبالتالي امكن له طلاق ثان وثالث فيسعه ان يعقد مع زوجته زواجا آخر ، بعد تصفية الحساب مع الزواج الاول . لكن بعد الطلاق الثالث تحرم عليه زوجته . ويقرر القرآن ان الزوجة اذا عقدت على شخص آخر ثم طلقت منه حلت لزوجها الاول . من هنا اصبح مثل هذا الزواج الوقتي وسيلة لابطال الطلاق الذي حصل لثالث مرة ؛ ويمكن في هذه الحال اللجوء الى رجل طيب القلب والاتفاق معه على اجر شريف وزواج بريء ، سرعان ما يعقبه طلاق يهيء للزوجة ان تعود الى زوجها الاصلي ويتطلب الفقهاء المتصلبون ان يكون هذا المحلل زوجا اصيلا ، والمرء في قضية كهذه خاصة بالوسائل الشرعية يخضع للروايات المختلفة التي بلغتنا عن كتب الآداب الاسلامية . وسفر التثنية في التوراة (٢٤ - ٣و٤) لم يقبل بمثل هذا العمل كما لم يعترف به الانجيل (متى ٥ - ٣٠ و١٩ ، ٩).

ان الرجل الذي يطلق زوجته ملزم بأن يدفع اليها كامل مهرها . ومن هنا يلجيء البعض من الرجال زوجاتهم الى نوع من الحياة التي لاتطاق يجعلهن معه يشترين طلاقهن برفض مالهن في ذمة الازواج من صداق او حتى بدفع اية اضرار اخرى يطلبها الزوج . الا ان هناك حالة هيأت للمرأة التغلب فيها على زوجها يسمح الشرع بها للزوجة ان تسعى الى سلطة القاضى ليأمر الزوج بتطليق زوجته ودفع ما لها من حق صداقها عليه .

إن الاوضاع التي أتينا على ذكرها وكل المواقف الاخرى الناتجة عنها ضبطت في قواعد وسيطر عليها فقه المذاهب السنية الاربعة مع ما بينها من اختلافات مهمة ، وهي جميعا متكافئة مع بعضها ومقبولة : مثال ذلك يستطيع المالكي ان يقرر في عقد زواجه بأنه

سيتبع كليا او جزئيا في شؤونه الزوجية قواعد الفقه الحنفي اذا ظهر له ان هذه القواعد في صالحه . وفي الدول الاسلامية الحديثة ، تميل قواعد الاخلاق عند المسلمين وتطور الحياة الاقتصادية الى تكوين نظم جديدة تزيل الآثار السيئة للطلاق ، من ذلك نجد هناك ميلا في هذه الدول اليوم الى ازالة عامل « الجبر » والرغبة في عدم تزويج الاولاد الذين لم يبلغوا الحلم بعد . وهناك اتجاه عام عند المسلمين المحدثين الى الاخذ بقواعد التشريع الاوربي . هكذا تبنت تركية عام ١٩٢٦ مجموعة من القوانين المدنية السويسرية فابطلت الطلاق .

وإنه لعمل صبياني ان نبحث عن تقدير لمركز المرأة العربية في عبارة عامة . فالفقيرات والقرويات تمتلىء حياتهن بالعمل المضني الذي يزيد من ثقله عليهن غالبا قلة اهتمام ازواجهن بهن ، اما العوائل المقتدرة فغالبا ما تنشغل نساؤها بالزينة ورعاية الاطفال ؛ ولعل حياتهن الرخية لا يغير من رتوبها غير زيارة قبور الاولياء والاعياد والحفلات المختلفة ، والزيارات واجتماعات ايام الجمعة في المقابر . ولم تنشغل المراة العربية في غير السنوات الاخيرة بشئون الزينة والاقوال المكرورة المملة الخاصة بامور عالمنا المزمنة ، هذه الأقوال وتلك الزينة التي يبدو في الظاهر ان كثيراً من النساء الغربيات ملأن حياتهن بها خيراً مما فعلت المراة العربية . فاذا تقدمت المراة العربية في السن ، احسنت رعاية منزلها . ولما كان الكثير منهن اميات ، فلم يعد في امكانهن اجابة المطالب الاجتماعية للجيل الناشيء من الشباب الذين تطورت ثقافتهم تطوراً كبيراً . وهناك بعض العائلات الاسلامية قدمت لبناتها تعليما حول عقليتهن بصورة عميقة وخلق جيلا من الامهات بين الطبقات المتوسطه والراقيه

يختلف اختلاف بالغا عن الجيل السابق .

اقر القرآن نظام تعدد الزوجات ، وقد ساد هذا النظام بين قبائل العرب قبل الاسلام ، إلا انه حــدد عدد النساء اللاتي يسمح الرجل التزوج بهن في آن واحد بأربع ، مهما كان عدد المطلقات من قبل ، ولم يتحدث القرآن هنا عن النساء غير الشرعيات ولا عن البغاء . إلا ان القرآن يعترف بأن من الخير الاحتفاظ بزوجة واحدة ، وهكذا نجد ان الحياة الاقتصادية وشكول العادات السائدة اليوم تهيء الى نظام الزوجة الواحدة لدى السكان المستقرين من المسلمين وسكان المدن منهم بصورة خاصة . وليس هناك إذن اية عراقيل جدية للتقرب من البلدان التي تسمح قوانينها بالطلاق .

ولقد ثار لغط كثير حول ذلك الاستثناء الذي سمح به القرآن لمحمد فيما يخص عدد زوجاته . إلا من ان الحق ان نعترف بأن تاريخ زوجات الرسول واولاده ليس ثابتا وواضحا بحيث نستطيع الحكم عليه بدقة . وفي امكاننا على الاقل ان نلاحظ بأنه كان مألوفا آنذاك لطباع الناس ان تكون لزعيم القبيلة من النساء اكثر مما يكون لأي واحد آخر من افراد القبيله ، بالاضافة الى هذا فقد كانت زيجات الرسول اكثرها من اجل المحالفات السياسية ؛ فحفصه هي بنت عمر ، وام حبيبه بنت ابي سفيان . وعائشة بنت ابي بكر اما صفية اليهودية فهي ابنة زعيم مقهور ، ولذا كانت نوعا من الغنيمة التي تحق للغالب .

إن الاطفال الذين تنجبهم زوجات الرجل يؤلفون جزءاً من عائلته ، سواء كانت ولادتهم لستة اشهر بعد الزواج او لاربعة

سنوات (١) بعد انفصام عقدته . وللولد الذي تنجبه امرأة غير شرعية نفس الحقوق ايضاً . بقي الولد الذي يأتي بالصدفة والذي يعمل القانون على تجاهله . يستطيع الزوج ان يحتج باتباع اجراءات معينة تسمى اللعان يرفض فيها ابوته لطفل زوجته ، وهناك وسيلة قانونية عكسية هي الاقرار ، تسمح بمنح الطفل أباً غير الزوج الفعلي هكذا نجد وسيلة دوران يمكن أن تؤدي الى الاعتراف بولد غير شرعي وتسمح بتطبيق عملية التبني التي أبطلها القرآن .

ان العائلة العربية ، بالمعنى الواسع لكلمة العائلة ، كانت تضم رقيقا من البيض أو السود . وتمسك القرآن بنظام الرقيق الا انه مع هذا نصح بحسن معاملتهم وبالعمل على تحريرهم . ويجدر بنا هنا ان نمعن النظر في أوضاعهم التي عاشوا فيها قبل أن نقدر القيمة الاخلاقية لنظام الرق .

ان العبد (مؤنثه أمة ، جارية) ؛ ليس انسانا كاملا ، بل هو جزء من ثروة سيدة ، اكتسبه كما اكتسب أية ثروة أخرى ، بالابتياع او العطية أو الارث ، وفي وسع هذا السيد نقل هذه الثروة الى غيره بنفس الوسائل القانونية التي اكتسبها بها ، الا انه لا يمكن فصل طفل عن أمه قبل أن يبلغ السابعة . وان لم يكن العبد قاصراً بل كان بالغا ومستطيعا ، أمكنه ان يتقلد منصبا عاملا في ذلك على مشاركة سيده في جانب من جوانب شخصيته لاجل القيام بمهمته بالاستفادة من اسم سيده ، ومع ان المبدأ في هذا الامر ان يكون كل ما يحصل عليه العبد لسيده ، فانه ومع هذا يستطيع ان يحتفظ بشيء من كسبه يوفره لنفسه . ويسع العبد أن يتزوج بامة ،

---

(١) لعله يريد أربعة أشهر .

كما ان في وسع الامة أو الجارية ان تخطب الى رجل حر أو عبد ويكون أولادها عبيداً لسيدها . أما الصداق فيدفعه العبد من المال الذي وفره من عمله وخدمته أو يدفعه عنه سيده ، وفي وسع العبد أن يطلق زوجته ويكون الطلاق نافذاً تماما بعد المرة الثانية . وعدة الامة الارملة أو المطلقة أو الحامل هي نصف عدة المرأة الحرة وقد لا يتزوج السيد جاريته قبل أن يحررها ، والا اعتبرت سرية ، ووضع السراري تعترف به الشريعة الاسلامية ؛ كل هذه العلاقات يجب أن تسبقها فترة من التحرير أو « الاستبراء » ، والأمة التي تقدم لسيدها طفلا تدعى « أم ولد » ؛ ويحرر الولد ويعتبر شرعيا كما تحرر أمه عند وفاة السيد .

ينظر القرآن والسنة الى تحرير العبد ، كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المرء فى الحياة الاخرى ، والسيد وهـــو حر فى أعماله يستطيع أن يعلن فك الرقبة باية صيغة يشاء على شرط الا تكون غامضة . وقد يصحب هذه الصيغة شرط كأن لا يكون تنفيذ التحرير الا عند وفاة السيد وانه يمكن فسخ هذا التحرير قبل حدوث الوفاة؛ اما اذا باع هذا السيد عبده فان عمله نوع من الابطال المضمر الذي يسمح به له . ويمكن ان يكون العبد مكاتباً ، وهى حالة معروفـــة جيداً في القانون الروماني ؛ وذلك عند اعلان السيد رغبته في تحرير عبده حين يدفع هذا مبلغا من المال لسيده ، وهذا يفترض ممارسة العبد لمهنة وتوفيره بذلك مبلغا من المال . وينصح السيد بالا يطلب كل المبلغ الذي عينه من قبل ، وقد ارتأى القرآن ان يحفظ جزء من الزكاة ليتيسر للرقيق اشتراء حريتهم به .

ويظل العبد المحرر (المولى) مرتبطا بسيده (مولاه) ، لا بروابط عاطفيـة واجتماعية فحسب تحفظ العبد فى نطاق عشيرة مولاه ؛ وانما هناك التزامات قانونية : من ذلك ان يأخذ السيد ما تركه عبده المحرر من ثروة في حالة عدم وجود وارث آخر ، وهذا ما يتكرر في العادة بين حين وآخر . والسيد هو الوصي الطبيعي على عبده المحرر وعلى ذريته .

لقد شغل الرق مكانا هاما في حياة العالم الاسلامى . ونقابل في جميع نقاط تاريخه عبيداً وآخرين محررين . وكيما نحكم حكما صائباً على القيمة الاخلاقية لنظام الرق ، علينا ان نميز بين الرقيق العائلي وبين كتل الرقيق الكبيرة . ويعيـد هنا تاريخ المجتمع الاسلامي تاريخ المجتمع الروماني . ولم يكن الرق الاسلامي بغيضا الا في حالات معـدودة . فتجارة الرقيق التي انتشرت في اسواق الشرق ، واسواق بغداد خاصة ، وصناعة الخصيان من الافريقيين او صقالبة الحبشة او اوربا في الايام الذهبية من العصر العباسى ، كل هذا من الاعمال التى تخالف المعايير الحضارية جميعـا . ولعل حالة الرقيق البائسة التى سادت الاقطاعيات الكبيرة في القسم الجنوبي من العراق في القرن (٩ م = ٣ هـ) هى التي أدت الى ثورة الزنج المرعبة . ان الآثار الادبية الغزيرة لذلك العصر ادت الى اهتمام عام بما قاساه العبيد المسيحيين فى سجون بلاد البربر وسفنها . لـكن يجب الا ننسى ان اوربا في ذلك العصر كان لها سجونها وسفنها ،

حيث لم تكن الحياة بأية حال يحسد عليها . ان تاريخ تجارة الرقيق في المستعمرات الامريكية لطخة في جبين أوربا المسيحية . ويجب ان ينظر الى الرق دون استنكار كنظام بائد وامتهان لكرامة الانسان .

المصادر

Juynboll : Handbuck - Schacht : Nikah, E. I., Urs, E. I., talaq E. I., W. Marcais : takruna (avec bibiliographie) a completer par Reich : villages arameens de l' antiliban.

الفصل التاسع

الاملاك

الاملاك غير الموصى بها . الوصايا . الاوقاف .

❋❖❋

ان قوانين الارث تفوق أحكام الزواج في اعاقة تطور الشريعة الاسلامية . لقد ثبت القرآن قانون الارث ، الذي يؤلف فصلا هاما في الفقه الاسلامى ، ذلك الفقه الذي يمتزج فيه ما هو زمني بما هو ديني امتزاجا تاما . وقد ادت التطبيقات الفقهية في الواقع الى ظهور العادات المحلية ، وان كانت هذه التطبيقات لم تستطع ان تتجاهل بالكلية تعاليم القرآن .

وكما حفظ القرآن القواعد الاساسية للزواج في بلاد العرب القديمة كذلك حفظ قواعد الميراث نفسها ؛ لكنه في الحالتين عمل على رفع مركز المرأة . ان النظام الابوي لبلاد العرب القديمة الذى لاءم التنظيمات القبلية التي كانت فيها كل جماعة تنظر الى جيرانها بعين الشك او في حرب فعلية معها ، والتي لا يثرى في ظلها الا من ساد أكبر عدد من المحاربين ، هـذا النظام الابوي تبنته بلاد

العرب القديمة في الميراث وجعلته في مصلحة الذكور ، وقد ابعد من هذا القانون القبلي كل ما يمس ابناء الام والمرأة . وعلى العكس نجد ان القرآن اعطى المرأة حصتها الشرعية .

نجد ان الارث في الفقه الاسلامي يزداد تجزؤاً من حيث المبدأ وعلى وفاق مع القانون العربي القديم ، يكون التجزؤ متناسبا مع الخط الابوي اي العصبة التي شبهت بمثيلتها « الاجناتي agnati » في القانون الروماني . ويسير توزيع الاملاك المخلفة بين ذرية الاب بحسب النظام الذي يتبع في ولاية المرأة اي بصورة تقريبية على الترتيب التالي : الذرية ، الاباء ، بقية الاقارب . والاناث اللائي ينحدرن من الخط الابوي هن كالذكور يدخلن ضمن العصبة ، وان كان حظهن من الميراث نصف حظ الذكر . ان هـذا المبدأ السهل التطبيق عقدته آيات القرآن التي اوجدت ورثة ذوي امتياز لهم على اية حال فريضة معينة يأخذونها من الارث . وادت منافستهم للورثة الاسوياء الى تعقيدات خلقت « علم الفرائض » وهو في قمة الدراسات الشرعية ؛ وبمطالبة هؤلاء بفرائضهم المعينة يخرقون نظام العصبة التي ينتسبون اليها غالبا . فهؤلاء بعد الابناء هم (١) للبنت أو البنات نصف او ثلثا الارث وبالامتداد ينطبق الامر على بنت أو بنات الابن؛ (٢) للاب أو الام السدس وبالامتداد يحصل نفس الشيء للجد او الجدة (٣) للاخت او أبنائها نصف أو ثلثان وبالامتداد يشمل هذا الاخوات من الاب؛ (٤) الاخوة او الاخوات من الام لكل منهم السدس أو النصف للجميع بحسب عددهم ؛ (٥) للارمل النصف او الربع (٦) والارملة نصف حظ الارمل . هذه القواعد القرآنية يبدو انها نزلت مباشرة بعد موقعة احد الدامية سنة (٦٢٤ = ٣ هـ) من

اجل تنظيم بعض حالات خاصة ليس لدينا تفاصيل كافية عنها .
وفي سبيل الاقتناع بعض الشيء سنورد بعض الامثلة الناتجة عما سبق

الابن هو الوارث الاول ، ولا يمكن البنت ان تقصيه عن ذلك وتقتصر حصتها على نصف ما يأخذ الابن . وان وجد ابن واحد يكون لها عند ذلك ثلث الميراث . في حين اذا كان هناك ولدان كان لها الخمس وهكذا . والابناء والبنات يحرمون من الميراث الاخت او ذريتها ، كما يحرم هؤلاء ايضا كل من ابناء وبنات الابن وكل من الاب والام ؛ ولا تنال الاخت فريضتها الا عند غياب احد ممن ذكرنا ، او تتقاسم مع اخوتها نصيبها من الارث وللارمل نصف ما تركت زوجته او الربع ان كان لها ولد .. الخ .

وعند توزيع الفرائض على الورثة المطالبين بحصصهم يمكن ان تقوم حالتان :

١ — قد يمتص الارث كله ، وفي هذه الحالة غالبا ما يحدث ان يكون توزيع الفرائض مستحيلا من الناحية الحسابية كما يحصل في هذا المثال المأثور :

ابنتان لكل منهما	$\frac{1}{3}$	ومجموع ذلك	$\frac{2}{3}$ =	$\frac{16}{24}$
الاب اوالام لكل	$\frac{1}{6}$	ومجموع ذلك	$\frac{2}{6}$ =	$\frac{8}{24}$
الارملة لها	$\frac{1}{8}$			$\frac{3}{24}$
المجموع			=	$\frac{27}{24}$

وتحل مثل هذه القضية بتقسيم الارث بين (٢٧) نصيبا .

٢ — وعند عدم حضور الذرية او الورثة اصحاب الفرائض او بعد ان يأخذ اي من هؤلاء نصيبه يتم ميزان التوزيع بين اقارب الخط الابوي بالترتيب التالي :

(أ) الاباء اذا كان هناك أي منهم بعد الجد ؛ (ب) للاقارب من أية درجة ؛ (جـ) للسيد اذا كان الميت عبداً محرراً ؛ (د) ان لم يكن هناك أي ممن ذكرنا أو اذا لم يتقدم أحد يعود الميراث كلياً أو جزئيا الى بيت المال اذا كان خاضعا للشريعة الاسلامية. وغياب الورثة هـذا يحصل بشكل اكثر مما نتوقعه : مثلا حينما تكون للابناء أفضلية على جميع الطبقات الاخرى ، نراهم يمتصون الارث كلـه أو يشاطرون به معهم اخواتهم ؛ اذا استطاع الاب والام مع الجد أو الجدة أن يدعوا لانفسهم بجانب انصبتهم الشرعية بالبقية من الارث بوصفهم عصبة ، فلا يكون في هذه الحال للورثة من أصحاب الفرائض أي حق ، وليس هناك مدع شرعي بما يتبقى من الثروة في حالة عدم وجود العصبة . وعلى أية حال اتفق على انه إذا لم يكن لبيت المال كيان واضح فالورثة الذين لهم فرائض أياً كانوا يقتسمون الثروة فيما بينهم . ومرة أخرى اذا لم يكن أي من هؤلاء موجوداً يسمح لسلالة الأم بالارث أو يسمح بذلك لأي مسلم يمكنه أن يضع يده على الثروة .

للمذاهب الاربعة حلول مختلفة لكثير من الحالات التي وصفناها فهي لاتتفق عندما يكون الامر متصلا بأملاك المشركين التي - بحسب رأي كثير من علماء الدين - لا يمكن لأي مسلم المشاركة فيها ، والتي لا يمكن أي مشرك كذلك ادعاءها لنفسه . وهي تختلف على موضوع وراثة المرتد الذي توزع ثروته حسب رأي واسع الانتشـار بين ورثته من المسلمين ، أوتعود الى بيت المال . وقلما يختلف فقه الخوارج عن المذهب السني ، إلا من حيث انه لايسمح للسيد أن يتسلم أملاك عبده المحرر ، ويقرر اعطاء الارث الذي ليس له وارث كزكاة .

اما الفقه الشيعي فمختلف جداً ، إذ يعتمد على تكافؤ الحقوق عند سلالتي كل من الام والاب ؛ وعلينا أن نتذكر إن فاطمة نقلت الى العلويين ميراث الرسول . هكذا قسم المذهب الشيعي الوراث الطبيعيين الى طوائف ، تندرج في درجات من حيث الاسبقية ، يضاف اليها صنف « الوراث لاسباب خاصة » الزوج أو الزوجة ، المولى أي السيد الذى حرر العبد أو الذى أسلم على يده مشرك وأخيراً إمام الشيعة كممثل لبيت المال . وبالاضافة الى ذلك اعترفت الشيعة بحق وراثة المشركين والمرتدين والقتلة ، وحق العبد المكاتب في أن يبتاع حريته من ارث سيده .

ليس للورثة حق فى الاستيلاء على أي جانب من الميراث مادام لا يؤلف جزءً من ثروتهم الخاصة كما في القانون الفرنسي . ولا يمكن أن يكون ادعاؤهم مشروعا إلا بعد أن تدفع الديون المترتبة على الميراث وليس هناك إذن في الشريعة الاسلامية ما يشابه الوراثة في النظام الروماني الذي يجعل حصة للقائم بعملية حساب الميراث . والديون التي تستخرج حالا لا تشمل الديون الناتجة عن المصاريف الجنائزية ، وديون الميت فحسب ، بل وكذلك الديون التى تمثل واجبات دينية لم يتم إنجازها كالزكاة والصيام والحج ؛ أما المصاريف المتطلبة للقيام بالحج نيابة عن الميت فتحسم من الميراث .

لقد فصلت الشريعة إذن قواعد الارث . كما سمحت أيضاً بالوراثة عن طريق وصية الميت ، في حين انها تحدد مجال الموصي بشروط معينة .

لم يؤكد القرآن الاهمية التى منحت في بلاد العرب القديمة لرغبات الشخص الاخيرة والتي يبدو ان بعض الآيات جعلتها مجرد

توصيات دينية وأخلاقية . بينما نجد ان آيات أخرى وافقت على الرغبة في استعمال الوصية الاخيرة كوسيلة لاصلاح مواد معينة في العادات التى تنظم الارث غير الموصى به وتراها تنصح بمنح الافضلية للاب والام وبقية الاقارب ، فضلا عن الارملة ، وبالاضافة الى اولئك الذين يعترف لهم بالفرائض . لكن العقيدة وهي تقيم قراراتها على وجود هـذه الحصص ، تصرح انه لا يمكن اتخاذ اي اتجاه في الوصية لمصلحة أي وارث خاص . وقد اصرت الشريعة كذلك على تحصيل الورثة الشرعيين على القسط الاكبر من الارث ، وقررت ان الوصية لا يمكن أن تستنزف أكثر من ثلث الارث . كما حمت الارث من أية اجراءات شفوية قد يتخذها الموصي خلال مرضه أو حين تكون حياته معرضة للخطر في مناطق حرب أو وباء منتشر . وبالنتيجة تعتبر الهبات وتسديد الديون وتحرير الارقاء التى اتخذت في هـذه الحالة المرضية أو الحرجة من حياة الموصي باطلة وعبثا .

ويتطلب الشرع أن يكون الموصى له عاقلا كالموصي وحياً عند موت الاخير ، إلا في حالة الاطفال المولودين في خلال ستة أشهر بعد حادثة الوفاة .

هذه القواعد التي تحدد حرية الموصي لم تنل رضا الرأي العام لهذا لجأ الناس في هذا المجال الى الحيل الشرعية للحصول على أوفر قسط تسمح به الشريعة . فالهبة والوقف كثيراً ما يلجأ اليهما في هذا المجال .

إن اسم الوصية مشتق من تسمية « الوصى » الذى عليه أن يشرف على تقسيم الميراث ، ويطلق على الوصى اسم ولي المال الذي ينظم الارث بالنسبة للأطفال الصغار ، وجرت العادة ان تقوم الام بهذا

الواجب الاخير تحت اشراف القاضي . واذا لم يعين الميت الولي فالقاضي هو الذي يعينه أو يقوم هو نفسه بهذه الواجبات . ان رغبات الميت الاخيرة يعبر عنها عادة شفوياً امام شاهدي عدل يمكنهما أن يشهدا بذلك فيما بعد امام القاضي .

إن وجود عدد كبير من الاجانب وهم تجار في الغالب قد أثار مسألة ارثهم . وأخذت العقيدة ترفض كل حقوق للميراث بين الاجانب وتستولي بذلك على عدد كبير من الاملاك غير المدعى بها لمصلحة بيت المال . وبعدئذ فى القرن ١٢ م ، مع ان العقيدة ظلت تنكر الاعتراف بالوراثة بين الاجانب والمسلمين او اهل الذمة ، فانها سمحت بأن تنقل لورثة الاجنبي أي ثروة تركها داخل الحدود الاسلامية بعد دفع جميع الديون ، كما انها ذهبت بعيداً في السماح بشرعية الارث الذى يخلفه الاجنبي لمسلم أو ذمي .

لقد لعبت الاوقاف ومازالت دوراً مهماً في اقتصاد الاقطار الاسلامية . والاسم الذي يطلق عليها وهو الحبوس (المفرد حبس ، الجمع أحباس أو حبوس) اقتبسته اللغة الفرنسيه ولفظته حبوس . والحبوس فى المغرب مرادف للاوقاف في المشرق .

إن المظهر المشترك لجميع انواع الاوقاف هو ان الوقف لا يمكن تبديده ، ويخصص دخله لمؤسسة دينية أو لذرية مؤسس الوقف ، أما الملك فينتقل حسب الاتجاهات المتعددة فى المذاهب الاسلامية اما الى ورثة المؤسس او توهب لله ، أي انها تصبح غير ذات مالك . ان أصل الاوقاف غامض ، وقد نما كثير من الحكايات حولها . ويبدو ان اقدمها قد أسسه الخلفاء واستخرجوه من الممتلكات الواسعة التي تركت دون مالك كنتيجة للفتوحات ، والتى كان من الواجب

زرعها لو أمكن لبيت المال أن يتنازل عن حصته من ضرائب هذه الارض . ولا ندري ما اذا كان الخراج آنذاك ضريبة فعلية ، أو كان مبلغا يجبى من أهل المقاطعة بصورة مجتمعة . ومهما كان الاصل فان تاريخ الوقف كبقية النظم الاسلامية الاخرى يرجع الى العهد الاموى الذى لا نعلم عنه كثيراً ، وقد انتشرت عادة الوقف بسرعة بتأثير عاملين مختلفين عن بعضهما جداً وفى صورتين منفصلتين .

أول العاملين يرجع الى التقوى . لقد لاحظنا فيما سبق إن ميزانية الخلافة لم تكن تزود المشاريع العامة : كالمساجد والقنوات ، والمشاريع الخاصة بتجهيز الماء والمدارس ، والمستشفيات ، كل هذه كانت من منشئات الحكام المحليين الطامحين الى كسب الشهرة في هذه الدنيا والثواب في الآخرة . ولم يكن هناك أي ضمان لصيانة أمثال هذه المشاريع أو البنايات ، كما لم يكن هناك ضمان لاستمرار تمويلها لتحفظ بقدرتها على القيام بالاغراض المطلوبة منها . لذلك حاول المؤسسون أن يصونوا مشاريعهم من الفناء بايجاد أملاك تخصص وارداتها لاستمرار تدبير المؤسسة ، وهذه الاملاك هي جانب من الثروات الموهوبة لله ، أو للجماعة حسب ما اشترطت المذاهب المختلفة . هذه الاملاك تكونت من ثروات المدينة ، ودور السكن التى يمكن إيجارها وحوانيت السوق والحمامات التى تدر دخلا منتظما ، بشرط أن تكون مصروفات هذه الاملاك مدفوعة من وارداتها . أو قد تكون الاملاك ريفية ؛ أو اذا كان الواقف أميراً فانه يعمل على أخذ ضريبه اضافية يحملها قرية أو مدينة للصرف على الوقف . ويدير هذه الثروات ناظر أو اكثر يختار الواقف أولهم ، وهذا يعين الثاني وهكذا ، وإلا فالقاضى هو الذي يعين الناظر ، الذي يمارس عادة الاشراف العام على الاوقاف .

أما النوع الثاني من الاوقاف فيقوم على أساس اشباع حاجة اقتصادية . لقد رأينا ان الشريعة أقامت قاعدة في الارث يسرت تجزئة الميراث بصورة شاملة ومعقدة ، دون ان يكون لارادة المورث أو وصيته ، أي أثر معارض على التجزئة اللا نهائية لثروته . فالبناء أو المنزل أو أية املاك من الارض ، بعد عدة اجيال تنتهي بالانقسام الى أجزاء غاية في الضآلة بحيث لا يمكن استغلالها بصورة نافعة . ولذا قام نظام الاوقاف من حيث انه علاج لمثل هذا الشر . إذ يجعل المالك ثروته وقفاً لصالح ذريته ، ويمكن توزيع دخل الوقف بينهم الى أجزاء لا متناهية في الصغر . اما الملك أو الثروة نفسها فتبقى سليمة ويمكن استغلالها على الدوام ، وبعض ذوي المكانة والمراكز الرفيعة صانوا أرباحهم المشينة المصدر عن طريق الوقف وجعلوها في حرز حريز خوفا على املاكهم من المصادرة . وعن طريق هذه الاساليب أو الحيل الشرعية في تحوير القانون أمكن الخروج على صلابة النصوص ووضعها في متناول الاستعمال العام . وادارة الاوقاف التي هي من هذا النوع وضعت كذلك مثل النوع الآخر من الاوقاف تحت اشراف القاضي .

ولا يظهر من هذين النوعين من الاوقاف في التاريخ الاسلامي إلا النوع الديني الذى تمتلىء به صفحاته ، على انه عمل من أعمال كرم المؤسسين . ويعبر ابن جبير في سنة ١١٨٣ و ١١٨٤م عن اعجابه لرؤية الاوقاف الخيرية في كل مكان في الشرق . والاعمال الخاصة بجهاز الاوقاف تشغل مكانا كبيراً في مجموعات النقوش الاسلامية .
والوقف العائلي ، وان كان اكثر تواضعا إلا انه هو الآخر له دوره

واهميته ، ومن المؤسف ان النظام في الحالتين قد استغل أسوأ استغلال بسبب الاهمال وسوء النية عند أولئك المكلفين بواجب الاشراف على الوقف ، وكانت الاوقاف الخيرية الدينية في حاجة الى التجديد على الدوام . وقام المسلمون بهذا بحماس كبير الى درجة ان التحريات التي أجريت في تركية في القرن ١٩ قدرت املاك الاوقاف بثلاثة ارباع مجموع الاراضي المزروعة . أما قيمتها فيظهر انها كانت تساوي خمسين مليونا من الجنيهات التركية لسنة ١٩٢٥ ، وكان دخلها يساوي ٥ر٣ مليون جنيه من جنيهات سنة ١٩٢٨ . اما الاوقاف في الجزائر فقد امتصت كذلك نصف الارض الصالحة للزراعة ؛ وفي تونس الثلث وفي مصر الثمن . ومن المحتمل ان نفس الظروف تسود بقية الاقطار الاسلامية .

وكيفما كان نظام الاوقاف سابقاً ، فانه عامل جدي للتأخر أدى الى تدهور جزء كبير من الثروة وحرمها من التداول ، بالاضافة الى ان الوقف يحرم الثروة من الادارة النشيطة الحازمة ، وما كان يستطيع عمله رجال الادارة من مصادرات تعسفية وصور البيع غير المشروع وانواع المبادلات ، لم يمكنه ان يقلل او يزيل هذه العلة الكبرى العاملة على افقار الاقطار الاسلامية . وظلت مساحات واسعة تزرع وفق أساليب غاية في البدائية . واكثر من هذا : يكفي ان نقرأ العمل الخاص بوقف مسجد حتى يمكن نثير أن السؤال التالي : ما مدى ادارته بكفاءة ، وكيف تم اصلاحاته ، وهنا تظهر قائمة طويلة من الحوانيت أو اجزاء من الحوانيت منبثة في شوارع المدينة العديدة ، وقطع من الارض منتشرة بين حقول القرية ، وبساتين صغيرة .

وقد وجهت الحكومات منذ أيام الاتراك في القرن ١٦ وبصورة

خاصة منذ القرن التاسع عشر ، عنايتها الى اصلاح حالة الاوقاف ، وتصحيح نتائجها الخطيرة ، وذلك بوضع الثروة بشكل أوباخر في حالة تداول مرة اخرى ، وذلك دون تغيير الغرض من طبيعة الوقف. وأول محاولة في هـــذا السبيل اتخذت شكل ايجار الملك الموقوف والحصول على كمية من المال تحصل عاجلا وتقدر بناء على قيمة الشيء الموقوف في بداية الاستئجار ، وهناك علاوة على ذلك ايجار دائم يدفعه المستأجر ، وفي هذه الصورة الاخيرة يمكن الاحتفاظ بمبدأ الوقف من حيث ان الملك الموقوف يدر ربحا متواصلا . وقد أصبح التمتع بالاستئجار امراً وراثياً . وفي حالة عدم وجود وارث يرجع الوقف الى الواقف أو الجهة الاصلية . وترتيبات كهذه عملت في تونس « انزل » enzel وفي الجزائر « أنا » ana وفي مراكش « غلزا » guelza وفي كل هذه الاقطار تخذ الوقف صورة مصالح تتعلق بحياة الناس .

إن الحكومات الحاضرة للبلاد الاسلامية قد أوجدت هيئات مركزية من شأنها الاشراف والسيطرة واخذت بالاقلال من شأن الحبوس وذلك بوضع الثروات في التداول والتخلص من صور الفساد التي تقلل من قيمتها ، وذلك دون ايذاء نظام الوقف ذاته الذي مازال ذانفع فى حالات معينة ، والذي تدافع عنه الجماعات المحافظة مستندة الى أسباب دينية . وقد ابطلت تركية منذ عام ١٩٢٤ ادارة الاوقاف وفي عام ١٩٢٦ سيطرت على بيع الاملاك الموقوفـــة الى الجماعات والمنظمات العامة . وتتابع مصر ببطء خطوات تركية . وقد صادرت روسية القيصرية املاك الحبوس في حين ابطل السوفييت هذا النظام

أما فرنسة فليس لها سياسة ثابتة في الجزائر ، بل لها سياسة متناقضة أحيانا لاتسمح بالوصول الى هدف معين . وفي تونس ومراكش نجد حكومتيها بالتعاون مع فرنسة الحامية لها قد اعادتا تنظيم الاملاك الموقوفة تحت اشرافهما بحيث تصرف الفوائد العائدة منها على الاغراض التى اوجد الوقف من اجلها ، او تصبح خاضعة لقانون الملكية الاعتيادي .

يعترف الفقه الاسلامي بمختلف الاساليب التى تنتقل الاملاك بحسبها او تستغل ، تلك الاساليب التى نظمها القانون الروماني : بيع ، استئجار ، مشاركة ، أجور .. الخ . والحقوق المتصلة بالاملاك الارضية قد نظمت تنظيما تفصيليا ، كحقوق الارواء مثلا ، ويعتبر قانون حق استخدام الارض مستقلا ومنفصلا عن حقوق الملكية ، باعتباره يكون ملكية من نوع خاص .

وبصورة عامة ان قواعد الفقه الاسلامي هي تلك المشتقة من القرآن والسنة، التى نتجت عن العادات المكية ، والتي تأثرت بالقانون الروماني - البيزنطي بشكل وقد لا نستطيع تحديدها . هذا التشريع تطور الى حد كبير في القرون الوسيطه ، وذلك بضمه اليه العرف الذي أوجده النشاط التجاري يوما بعد يوم ؛ واصبح هذا التشريع القانون المعمول به فى المعاملات التجارية فى شرق البحر الابيض المتوسط ؛ وكان مصدراً من مصادر القانون التجاري الاوربي .

هكذا نجد قواعد التشريع الاسلامي فى هذا المجال بالاضافة منفعتها العملية للعالم الاسلامي ، ذات اهمية تاريخية عظمى .

ومن هذه الخطوط العريضة ، نجد ان قانون العقود فى الفقه الاسلامي لا يختلف اختلافا بينا عن التشريع الاوربي ، وسنعود الى هذا الموضوع في الفصل الثاني عشر .

المصادر

Juynboll ; Schacht, mirath, E. I., waciya E. I., Heffening, waqf; E. I.

الفصل العاشر

القضاء

القاضى . القصاص والفداء . المفتى . الجرائم التى يعاقب عليها القرآن ، السرقة ، السطو ، الردة ، الزنا ، الخمر . صاحب الشرطة . المحتسب . التنظيمات الحديثة .

———— :o: ————

اعتبر الحكام المسلمون في الغالب تصريف امور العدالة شخصيا احد واجباتهم الهامة : وكان من عادتهم قديما أن يعقدوا اجتماعا كل اسبوع في ايام الاثنين والخميس ، حيث يقومون بدور الحكم الاعلى كما كان يفعل العرب ، واعتبروا انفسهم من اجل ذلك مفسرين لكلمة الله اسوة بالرسول . لكن الخلفاء الاول اضطروا الى ان يتنازلوا عن سلطاتهم القضائية الى قاض كان يشرف بنفسه على تطبيق القوانين المتعلقة بالغنائم والارث والقصاص وغيرها فى الجيوش واجناد سورية . والخلفاء الامويون هم الذين اوجدوا وظيفة القاضى والوظائف القضائية الاخرى ، وربما كان ذلك بتأثير النظم السورية البيزنطية . ولا نستطيع هنا سوى اعطاء وصف مقتضب لتاريخ كبير التعقيد لواجبات القاضى .

القاضي هو حكم يحل الخلافات بين الشكاة الذين يقصدونه ، فيعطي حكم القانون ضد المذنبين الذين تثبت اداناتهم . ولا يساعد القاضي ممثل عن المدعي العام ، ولا عن السلطة التنفيذية ، وهـو شخصيا لا يمتلك سلطة للقيام بتنفيذ الحكم . الا انه مخول بسلطة يشرف بموجبها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة الجماعـة والتي نظمتها الشريعة كالزواج والطلاق والعناية بالايتام والمواريث وانواع العقود ومعاقبة المجرم . يعطي القاضي قراراته دون مساعدة من أحد ، ومع ان العقيدة تطلب منه ان يجمع حوله مجلس شورى ، الا انه غير ملزم على أية حال بالاخذ برأيهم . وفي عهد الامويين كان الخليفة يعين قاضيا لكل ولاية ، وقد احتفظ العرب بعاداتهم الابوية في أمور القضاء العائلي والقبلي ، كما كان لاهل الذمة محاكم خاصة بهم ؛ لكن الظروف أدت الى زيادة اعباء القاضي بعد ان كانت خفيفة نتيجة لهذين النظامين ، لكنه سرعان ما دفع الى التنازل عن كل او بعض سلطاته الى مساعدين تحت سلطته . وأصبح بعدئذ لامصار الاقاليم التي غـدت عواصم لامارات مستقلة قاضي قضاة أسوة ببغداد (ويدعى بقاضي الجماعة في الاندلس) مع هيئة متدرجة من القضاة المساعدين .

هكذا أخذ القاضي يعين نوابا عنه في حين احتفظ بسلطتـه الخاصة كاملة يمارسها حين يحلو له ذلك . ولما كان لا يمارس سلطة القضاء فقط ، بل سلطة الادارة كذلك ، وأمين بيت المال في كثير من العهود ، وإمام خطبة الجمعة ، والمشرف على ادارة أملاك اليتامى والاوقاف ووصي اولئك الفاقدين للاهلية ، فان القاضي تخذ نوابا لانجاز جميع هذه الواجبات : فهو اذن رأس العدالة ومنه تصدر الاحكام .

والمعتاد هو ان تجرى شهادة شفوية أمام القاضي ، لكن الدليل المكتوب يكون خير سند يعتمد عليه . ويطلب شاهدان ليشهدا بوجود موضوع للخلاف ويجب ان تكون الثقة التى يمنحها القاضى للشهادة وافية تامة سواء كان ذلك متصلا بمنازعة فى قضايا مدنية او جنائية . وما دام مستحيلا في كل قضية وفي أمر كل شاهد اختيار أمانة هذا ، فان القاضى يصدر قائمة باشخاص تكون أمانتهم في مفهوم العدالة وبعد التحقيق مشهوداً بها . هؤلاء الاشخاص المنتخبون الذين قد يختلف عددهم من عشرة الى عدة آلاف وهم الشهود للعدول ، هم وحدهم فقط يمكنهم أداء الشهادة وتزويد القاضى بالمواد التي يبنى عليها قراره . وهم في الحقيقة الاشخاص الذين يدرسون وقائع القضيــة والبينة التي يقدمونها هي التى تكون في الغالب مجموعة البراهين ، المقنعة التي تنال هذه الصفة بعد الاستجواب الذي يشترك فيه الجمهور الى حد مزعج ، وهذه البينة المذكورة يصل اليها الشهود من دراستهم للوثائق ونتيجة ملاحظتهم الشخصية للوقائع. ان الشاهدين الشرعيين هما اللذان يقومان بدور المشيرين المساعدين للقاضى . اما علاقتهما بالجمهور فتشمل تسجيلها للعقود وتدوينهما للقرارات ، وفى الحقيقة يقومان بدور كتاب المحكمة . وفي ظروف معينة ، كما فى حالة القضايا الجنائية ، قد يضطر القاضى الى قبول بينة شاهد العيان ، وحتى المرأة التى تكون قيمتها نصف بينة الرجل

كان الخليفة هو الذي يعين القاضى او يقوم ممثله فى الولايات وهو السلطان او الوالي او قاضي القضاة بذلك . والقاضي بدوره يعين الحكام ليعاونوه في مختلف وظائفه . كل هؤلاء يجب ان تتوفر فيهم الصفات المعقدة المشترطة في العدالة .

واعترفت العقيدة بان لقضاة الازمنة الغابرة معرفة تامة بالشريعة، لكن فيما بعد لم يكن ممكنا ايجاد عدد كاف من الرجال الذين لديهم معرفة كافية بالنواحي الدقيقة التي عالجتها المذاهب الاربعة كل منها بطريقته الخاصة ؛ وهكذا اصبح معتقداً بان معرفة القاضي للفقه ذات أهمية ثانوية تقريبا ، وان مؤهلاته الاساسية بالاضافة الى بضعة مبادىء راسخة هي اتصافه بالامانة والفطرة السليمة . ويستطيع القاضي ضمان معرفة الفقه باختياره مستشارين مثقفين ، او بتأخير القضاء حتى يزود برأي صائب من خبير قضائي معترف به . ان (سرفانتيس) الذي كان على اطلاع عميق على الحياة الاسلامية خلق في قصته « سانكو بانزا » ما يمكن اعتباره كاريكاتوراً للقاضي الاندلسي ، والقضايا التي جعلها بين يديه ليحكم فيها مستمدة من عادات المجتمع العربي . ان فضائل القاضي يجب ان تظهر في كمال سلوكه الذي يمنعه من ان يساهم في الحفلات والولائم الباذخة وتحاشي حضور مجامع الغناء والميسر والاجتماعات المريبة . والرأي السائد بين الجميع هو ان واجباته تعرضه الى كثير من المزالق ، ومن ثم تعرضه لعذاب الجحيم ، وهنا يعيد المرء قول سحنون الذي يقرر « ان انجاز القاضي واجباته معناه قطع حنجرته بغير سكين » ويقال هذا كتوضيح لما أثر عن رفض قبول وظيفة القاضي بصورة باتة .

لم يكن يدفع للقاضي أجر جزاء عمله ، لكن عليه ألا يقبل هدايا ، وهذا التنبيه الذي يوجه الى القاضي عند تعيينه ، دليل على أن عادة قبول الهدايا كانت مألوفة . وفيما بعد سمح له بتسلم راتب من الاوقاف ، وأخذ حصة من الرسوم التي يدفعها المتقاضون .

لم تكن هناك بناية خاصة بالمحكمة في الايام الاولى : فقد كان القاضي يعقد اجتماعاته بادىء الامر في المسجد او في بيتـه ، كما كان يستطيع عقد محكمته في الشارع العام ايضا . والقاعة التي خصصت فيما بعد لهذا الغرض وهي المحكمـة الحقت بالمسجد غالباً . وكان للقاضي اعوان وشرطة ، وبوابون يدعون المتقاضين ، ويحافظون على نظام المحكمة .

اما قرارات القاضي فصيغتها التحكيم واعطاء الجانب الرابح فرصة اخذ حقه كيفما شاء . اما في الشؤون الجنائية فدور القاضي يقتصر على القضاء بين الطرفين ؛ والشخص الذي يعرض القضية على القاضي اما أن يكون المعتدى عليه ، أو من يمثله شرعيا .

وحين تكون الجريمة ارتكبت عمداً كالقتل او الجرح وتكون في صورة بحيث يمكن فرضها على المرتكب ، فان حق القصاص قد يمارس ؛ والضحية أو من يمثله هو الذي يقتص له بعد محاكمة القاضي وتحت اشرافه . لكن من الضروري أن يكون المجرم قادراً على ممارسة حقوقه المدنية ، وله نفس المركز الاجتماعي الذي للضحية : ولا يكون هناك قصاص اذا كان احد الطرفين نصرانياً مثلا والآخر مسلما ، أو ان أحد الطرفين والداً لآخر .

حين لا تتوفر الشروط الشرعية اللازمة للقصاص ، أو حين تتنازل الضحية عن حقها ، يجب أن تفرد دية تختلف كميتها حسب اهمية الظروف المحيطة بالجريمة . وحددت السنة دية قتل الرجل بمئة جمل أو ما يعادلها . اما بالنسبة للجروح فان القاضي يقرر كمية الدية بأن يقدر نقصان القيمة المادية للضحية المسبب عن الجريمة وذلك حين يكون المعتدى عليه عبداً . ودية المرأة نصف دية الرجل ؛

ودية الذمي ثلث دية المسلم .

كانت الادارة في العهد الاموي في مصر هي التي تفرض دفع الدية : فحين يستمع القاضي لشكوى يعهد بها الى خبير يقرر أهمية الجرح ، ويحدد الكمية التي تدفع بحسب ذلك ، ويخبر ديوان الجند بالامر . فيقتطع المبلغ المقرر من ارزاق المذنب ويمنح لعشيرة المعتدى عليه . وقد يطلب القاضي في ظروف معينة من المدعي أو المدعى عليه كليهما حلف اليمين . ويلجأ كل من الذمي والغريب المستأمن الى رؤسائه المشرفين على شؤون القضاء في الاحوال الاعتيادية ، لكن يمكنهما في جميع الاحوال اللجوء الى القاضي الذي يستطيع بحسب الرأي الغالب أن يرفض الحكم بينهما . لكنه الوحيد الذي يقوم بذلك حين تكون لأحد المسلمين مصلحة في القضية . ويحكم القاضي بحسب الفقه الاسلامي وحده ؛ ولا يستطيع ان يقبل الافادات المتعلقة بشيء غير شرعي كالخنزير أو النبيذ مثلا . وقد يكون القانون الجنائي مع الاجنبي أو عليه ما عدا جريمة شرب الخمر .

وليس مهماً المذهب الذي ينتسب اليه القاضي من المذاهب الاربعة ، إذ يلزمه ان يحكم في القضية حسب قرارات فقهاء المذهب الذي يعتنقه المتخاصمون ؛ وأصبح ضروريا في المدن الكبيرة تعيين قاض خاص لكل مذهب على شرط ان يكون عدد اتباعه كافيا . ولا يسمح للسني أن يحتكم الى قاض غير سني كأن يكون شيعيا أو خارجيا ؛ وقد ثارت المشكلة بصورة حادة في مصر في عهد الخلفاء الفاطميين ، الذين مع انهم عينوا قضاة من الشيعة ونظموا دعاية نشيطة في مصلحة عقائدهم ، فقد اضطروا الى الاحتفاظ بقضاة حنفيين .

هكذا يجب ألا ننسى ان القاضي هو ممثل سلطة الخلافة ، وانه

يجمع في شخصه السلطات الروحية والزمنية ، فهو شخصية دينية وعلمانية في آن واحد ، وبسبب هذه الحقائق يلزمه ان يتمسك تمام التمسك بالعقيدة التي يعتنقها امام الجماعة الاسلامية .

إن الازمة الدينية الخطيرة التي أثارت الاسلام خلال النصف الثاني من القرن ٨م والشطر الاكبر من القرن ٩ م = ٣هـ ، كانت ذات آثار بليغة في اعمال القضاة . فان وصمة الشرك والمجوسية والزيغ التي حوتها كلمة زنديق ، والتي اتهم بها كثير من الشخصيات البارزة في الاوساط العباسية ، يبدو انها لم تثر القضاة ، لكن حين أصبح الاعتزال الذي جانب وجهة النظر التقليدية للفقه ، في عهد المأمون عقيدة الجماعة الاسلامية ، رفض كثير من القضاة قبولها ، وأمر الخليفة بأن عليهم ان يقسموا بتأييدهم لمذهب الاعتزال الذي عرفه العامة في صورة القول بخلق القرآن . هذه المحنة التي مارسها المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ = ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) بالمعنى العكسي قد اتبعت بوحشية بالغة ضد عدد عديد من القضاة الذين اسرع اعداؤهم للوشاية بهم لدى وكلاء الخلافة .

لقد جعل كل ما يتعلق بالقاضي حتى لباسه بحيث يدل على انه ممثل الخليفة : فهو يلبس نفس ألوان ثياب الخليفة . وفي عهد العباسيين لبس القاضي السواد بالطراز الرسمي ، لكنه يبدو ان لبس السواد كان في المناسبات الهامة فقط . وقد تبنى القاضي اللباس الابيض عادة بوصفه لباس الفقهاء . وكان القاضي يرتدي ملابسه الرسمية في احتفال يوم الجمعة حين ينوب عن الخليفة في ذلك . وتظهر كثير من صفحات التاريخ الاسلامي القضاة وقد شغلوا ارفع المناصب في الدولة كوزراء او قادة في جيش صقلية او امراء على اشبيلية .

إن تعقد الشريعة الذي ازداد كثيراً على مر الزمن ، قد ضاعف عدد المؤلفات الشرعية التي وجد الحكام صعوبة كبيرة يوما فيوما في التعرف عليها . ولما كان مستشاروهم غير كفؤين ، وجدنا القضاة وجمهرة المسلمين ألفوا الرجوع الى عدد قليل من الافراد الذين تمتعوا بشهرة خاصة في التفقه والعلم لاخذ الفتاوى منهم ؛ هكذا نجد شخصيات خطيرة في الاندلس كانوا يشاهدون باحثين عن فتاوى فقيه في القيروان المركز الهام للمذهب المالكي . وقرر الامراء أن يصبح المفتى المفسر الرسمي للشريعة الاسلامية . وقد وجد في الاستانة فقيه كبير شغل منصب قاضي القضاة . ومع ان المركز والوظيفة اقل نفوذا في البلاد الاسلامية اليوم ، فلا يزالان قائمين . ففي الجزائر في تلمسان ، منذ خمسين عاما كان القاضي يمثل قبيلة « هدري » وهي من العرب والبربر ، بينما مثل المفتي قبيلة (الكولونغلي) أي الترك والبربر . وكان الاول مالكيا والآخر حنفيا ؛ وكانا خصمين ذوي نفوذ .

لقد أدى المسلك البطريركي والفقهي في القضاء على مر الايام الى تقييد نطاق عمل القاضي . لكن العادة التي سايرتها العقيدة ، سمحت للقاضي كما أشرنا بتطبيق عقوبات كيفية على الجرائم التي هي أبسط من تلك المذكورة في القرآن ، وكانت تلك العقوبات أخف من التي امرت بها الشريعة لذلك دعيت بالتعزير . لكن الحياة الاجتماعية تغيرت بعمق شديد بالنسبة للحاكم الذي لم يشرف اشرافا ثابتا ومباشرا على وسائل صيانة القانون والنظام بين الناس . ومنذ عهد الامويين نلاحظ ظهور وظيفة صاحب الشرطة الذي كان في نفس الوقت منفذ قرارات القاضي فيما يتصل بالقانون الجنائي القرآني ، كما كان حاكما

لعدد من الجنح البسيطة غير محدود كان يعاقب عليها آنيا . وقد راقب المجرمين وطاردهم ليجلبهم بالتالي في حضرة القاضي إن أمكن. وصل هذا النوع الجديد من القضاء الذي مر بتطور تاريخي لم يدون بعد ، الى يد صاحب المدينة ، والقائد ، أو الباشا التركي فيما بعد. ويلزمنا ألا نبالغ في صفة هـذا التشريع العلمانية ، ففي الاسلام لانستطيع التمييز بوضوح بين ما هو دنيوي وما هو روحي . إلا ان هذا التشريع يشمل في نفس الوقت اموراً ليست في نطاق الشريعة وإن كانت تدخل في اختصاص القاضي .

والى حد كبير كانت الجنح البسيطة نسبيا تدخل ضمن اختصاص صاحب الشرطة ، اما الجنح الاخرى وبعض مخالفات قانونية معينة ، فقد كان ينظر فيها حاكم خاص هو المحتسب . وهو يظهر لاول مرة في القرن (٨ م ـــ ٢ هـ) بسلطات واسعة جدا ومعينة تماما فهو يشرف على المخالفات الخاصـة بالاوزان والمقاييس ، والاسواق والمصانع ، ونوعية مواد الطعام ، والبضائع المصنوعة واصناف الحرف ، كما يراقب الزناة والحانات وشرب الخمرة والمقامرة وحرية الناس والظهور بمظهر لائق في الطرقات العامة ، وحالة المباني ووجوب عدم مضايقتها لحياة الجماعة وبصورة عامة كل ما يتصل بأخلاق المجتمع وسلوكه . هذه الصلاحيات كانت تشبه وظيفة الـ edile curule الروماني ولا يمكننا الشك في أن المحتسب قد ورث تلك الوظيفة الرسمية بصورة غير مباشرة عن ذلك البيزنطي الـ agoranome وقد لاءمت هذه الوظيفة الحياة الاسلامية تمام الملاءمـة ، مادام القرآن قد حكم على جميع أنواع الغش وارشد المسلمين الى : « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهي صيغة أصبحت في القرن (١١ م = ٥ هـ) التعريف

المقبول لواجبات المحتسب ، أي الحسبة ، التي تعني المحافظة على الامانة والادب بين أفراد المجتمع ، ويستند قضاء المحتسب بوضوح الى الشريعة ، وهو مساعد للقاضي .

يعترف الفقه الاسلامي بصنفين من الجرائم : الاول ذي طبيعة انسانية وخاصة وهو خاضع لناموس القصاص والفدية .

ويشمل الصنف الثاني السرقة ، والسطو ، والعلاقات الجنسية غير الشرعية والردة وشرب الخمرة . والعقوبة لا تمحو الذنب في كلا الصنفين ، لأن الاثم سينال عقوبته في الآخرة ، ويمكن التكفير الذي لا تستطيع أية سلطة أرضية ان تأمر به ، وانما ستجنى فائدته في العالم الآخر .

إن الجرائم التي تحدث عنها القرآن قد وضع لها حدوداً معينة ومن الطريف أن نجد في الاسلام كما في اكثر المجتمعات القديمة ، إن السرقة يعاقب عليها بقسوة ، وتعني السرقة الاعتيادية مفاجأة السارق متلبسا بحيازة املاك ذات قيمة تعود لشخص آخر . وكانت العادة أن يعاقب هذا الجاني بقطع يده اليمنى ، وفي حالة تكرار الجريمة تقطع القدم اليسرى ، وبعدها اليد اليسرى ، وأخيراً القدم اليمنى . ونجد حكايات هنا وهناك في الادب العربي يبدو انها تثبت ان شرطة المدن الكبيرة هي التي كانت تنفذ هذه العقوبات باسلوب قاس ، وإن كانت العقيدة قد جعلت لها شروطا كان الواجب ان تصبح معها هذه استثناء لا قاعدة . إن السطو المسلح كان يعاقب عليه بالموت ، لكن العقيدة هنا أيضا أخضعت تنفيذ العقوبة بحذافيرها لشروط مختلفة . ومنذ سنة ١٨٥٨ نجد قانون العقوبات التركي يعالج السرقة وفق التشريع الاوربي . والشريعة القرآنية فيما يتعلق بالسرقة

والسطو قد نسيها العالم الاسلامي اليوم بصورة كلية تقريبا . وقد حل محلها تدريجيا قرارات رجال الشرطة أو الباشوات المتعاقبين ، كما حل تعزير القاضي بوصفه ملائمــا للجرائم الصغرى . وكما يقول أحد الكتاب ان التعزير يتبدل بتبدل المركز الاجتماعي للمتهم : ففي حالة الاشخاص العظام والبارزين يتخذ التعزير شكل تنبيه رصين يتفوه به نائب عن القاضي ، في حين ان الفقهاء وأمثالهم كانوا يدعون للحضور امام القاضي فيحذرهم ويظهر لهم اغلاطهم ، اما التجار فكانوا يسجنون في حين كان السوط نصيب العامة .

لم يكن يحتكم الى القضاء الابوي المختصر في امور زنا المرأة في المجتمع الجاهلي ، إلا في الحالات التي كان فيها هذا القضاء ذا أثر في العقاب . واتخذ القرآن موقفا عرفته اليهودية والمسيحية ، وذلك بتحريمه أية علاقات جنسية خارج الزواج . والرجل والمرأة يجلد كلاهما مئة جلدة في هذه الحالة ، وينسب الى محمد انه هيأ السبيل الى أن يشرع القرآن عقاب الرجم بالحجارة الذي عرفه اليهود . وتأمر الشريعة بجلد المحصنات اللائي يزنين ، أي النساء المتزوجات ، وينطبق هذا على جريمة اللواط . لكن في الواقع ان التشريع القرآني الخاص بالزنا لم يكن قابلا للتطبيق ، فالقرآن يطلب شهادة أربعة شهود رأوا ارتكاب جريمــة الزنا ، كما يعاقب القرآن بمئة جلدة المبلغ الذي لا يستطيع أن يثبت اتهامه بدقة . هكذا يلزم المرتكب للفعل أن يتهم هو نفسه ، وأن يصر على ذلك ، ومن المناسب أن نتذكر ان كل هذا قد نزل به الوحي فيما وقع لعائشة حين ضلت في الصحراء ثم ارشدها بدوي الى المدينة . ونجــد ان زنا المرأة في الحياة الإسلامية القديمة والحديثة على السواء ، يدفع بالزوج او رئيس

العائلة الى اخفاء المذنبة ، وهذا سبب لحوادث الاغتيال المتكررة التي يقترفها الذ-يون أيضا الى الحد الذي تشجعهم عليه عاداتهم .

أما الردة فبالاضافة الى صور العذاب في العالم الآخر فجزاؤها الموت ، هذا على الرغم من ان الردة لم يكن لها حد في القرآن ، والردة هي جريمة في الله . ولا يحق للمرتد عمله هذا الا اذا ارغم عليه بالعنف وقاسى كثيراً في سبيل العقيدة . ويجب انذار المرتد لثلاثة أيام كي يرجع الى الاسلام . ونرى في هذا الحال ان العقيدة اذا لم تعاقب على الردة فالذي يحصل بدلا عن ذلك اغتيال المرتد .

ولم ينص القرآن على تحريم الخمر إلا بعد ان اثر السكر مرة على مقدمة الجيش بحيث لم يستطع الصمود . وكان عرب الجاهلية يشربون الخمر ويسكرون ، كما كان الخمر الشراب المفضل في البلاط العباسي وفي المدن ، وكانت العامة تشرب النبيذ المستخرج من التمر . ومن حيث المبدأ يشمل التحريم أي شراب مخمر ومسكر . ومحتسي الخمرة يجلد ثمانين جلدة كما عند السنيين ، واربعين كما عند الشيعة . وفي تاريخ الجماعة الاسلامية ، نجد ان الحملة على الخمر هي احد الاعمال التي تجب على المصلحين الذين يتعقبون الشاربين باسم الحسبة ويكسرون الدنان .

ولدينا اليوم مؤلفات خطيرة عن الحسبة ، بدأ طبعها ودراستها منذ عهد قريب وهي تشمل طائفتين من المؤلفات : الاولى اخرجها فقهاء وهي ذات طابع يقيني بحت ولا تشوقنا إلا قليلا . والطائفة الاخرى هي انواع من « الاوامر » انتقلت من محتسب الى آخر وفي ثناياها قواعد تفصيلية دقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية متوافقة مع العادات المحلية ، وهذه وثائق ذات اهمية بالغة في مستقبل صناعة

وتجارة البلاد الاسلامية .

إن هذه التشريعات المختلفة التي لم تكن مجالات سلطتها واضحة دقيقة قد سادها نوع من الخلط . في حالة عدم وجود محاكم لرفع الدعاوى ، يستطيع المشتكي الذي لم يقنع جيداً بحكم القاضي ، ان يحمل دعواه الى آخر ، اذا كان قرار الاول الذي اعطاه لصالحه لم ينفذ . هكذا كان بالامكان أن يعتبر حكم من الاحكام ظالما ، ونتيجة لذلك يتيسر الذهاب الى حاكم خاص هو ناظر المظالم . وكان هناك امكانية أخرى كذلك هي مراجعة الخليفة .

تحرر اكثر البلاد الاسلامية خلال القرن ١٩ من التنظيمات القضائية المعقدة التي وجدت في العهود القديمة . كان لتركية في كل لواء ممثل للشريعة هو القاضي الذي يشرف عليه مفت اعلى هو شيخ الاسلام . وأكبر شخصيتين قضائيتين كانا القاضي عسكر في الروميلي والاناضول ؛ اما المحاكم الجزائية فكانت بيد الصوباشي والمحتسب . وفي سنة ١٨٧٤ اقيمت محاكم عامة للتشريع ومحاكم تجارية فاقتصرت سلطة القضاة على أمور الشريعة الخالصة ، أولئك القضاة الذين زالوا من تركية في سنة ١٩٢٤ م . وفي مصر أيام محمد علي ، اعتاد سلطان استامبول ان يرسل قاضيا كل عام ، ولهذا القاضي نائب . وعمل النائب هو ان يعالج الشؤون البسيطة بنفسه او بوساطة شاهد عدل ، اما القضايا الهامة فتأتي الى القاضي الذى يعاونه نائب ومفت ، يعطيان فتوى الى المشتكي . اما التشريعات الجزائية فتخرج من ديوان الامير ، أومن رئيس الشرطة (الضابط) أو من المحتسب . وفي الربع الاخير من القرن ١٩ ادخلت بعض الاصلاحات العامة التي ادت الى نشوء محاكم مدنية وجزائية ذات ثلاثة حكام ، لهم سلطة المفتي العليا . وعرفت ايران كذلك نوعين من

المحاكم الشرعية والمدنية ، وقد حددت سلطة المحاكم الشرعية سنة ١٩٣٨ ، ومنذ سنة ١٩٣١ لم تعرف ايران غير محكمة المجتهد التي ترسل اليها المحاكم الاعتيادية الامور ذات الطبيعة الشرعية بصورة خاصة. وفي شمال افريقية اقتصر حكم القضاة على القضايا القرآنية البحتة ، من زواج وارث وغيرها . وقد نظمت محاكم مدنية في كل مكان وحصل نفس التطور في بقية أنحاء العالم الاسلامي .

المصادر

Tyan , organisation judiciaire. Gaudefroy-demombynes, rev. et. Islam., 1939.

الفصل الحادي عشر

الحياة الاجتماعية

الطفولة : الختان . التربية . التعليم . ادارة المنزل . الالعاب
الحمام . الاعياد . اللباس . المرضى . المستشفيات . الموت : الدفن .
القبور . الاخلاق

❋❖❋

إن حياة الشعوب الاسلامية ، التى تختلف كثيراً من فترة الى أخرى ، ومن بلدة الى اخرى ، كانت ولا زالت ، زاخرة عن طريق سلسلة من الطقوس والمراسيم المشتركة بين جميع المسلمين . وسنعمل على توحيد هذه الطقوس والمراسيم ، وتركيزها في هذا الفصل .

إن الاعتقاد الشعبي ما زال يعترف بالانطباعات الوهمية التى تتولد لدى الانسان ويقبل الاسطورة القائلة بأن الطفل يظل في رحم امه

أربع سنوات بعد غياب زوجها عنها . لكن الدين رفض هذه الامور وأنكرها .

إن ميلاد الابن بالنسبة للعائلة العربية ، حدث سار ، اما البنت فلا يرحب بها كثيراً . وحسب عادة جاهلية لا نعلم معناها بوضوح وصمها القرآن وحكم عليها ، كانت البنات توأدن وهن أحياء بعد مولدهن مباشرة لدى البعض من العرب . وقد مجدت السنة النبوية عادة قديمة كان بموجبها يحتفل عند الميلاد بتضحية شعر الرأس « حلقه » وتقريب اضحية . وفي اليوم السابع بعد الميلاد ، تضحى غنمتان أو عنزتان ويوزع بعض لحمها على الفقراء . وفي نفس الوقت تعطى صدقات بشكل كمية من الفضة مساوية لوزن شعر الطفل الذي يحلق في صورة احتفال . وقد احتفظت هذه الشعائر بمجموعها باسمها القديم وهو « عقيقة » .

وبعد مولد الطفل مباشرة يستحب أن يتلى الاذان في اذن الطفل اليمنى ، وكلمات الاقامة في الاذن اليسرى ، وذلك ليتعود على الايمان بالدين .

وينصح بتسمية الطفل في اليوم السابع ، لكن ربما يكون ذلك قبل هذا الميعاد أو بعده . ويتباين الاسم في أنحاء العالم الاسلامي . ونجد بالاضافة الى الاسماء الاسلامية الخاصة ، أي العربية ، اسماءاً محلية قديمة من فارسية وتركية وبربرية وغيرها ، ما زالت مستعملة ، هذا عدا اسماء الاولياء الذين يعد تأثيرهم في منطقة شاسعة كثيراً او قليلا : فشعيب ، وبومدين هما من الاسماء الجارية في وهران ، حول مقام سيدي بومدين في العباد قرب تلمسان ، وجلالي وجلول أسماء عامة كقباب سيدي عبد القادر الجلالي .

أما الاسماء الاسلامية الرئيسية الحقة فهي أسماء الرسول : احمد ومحمد ومصطفى . واسماء آل البيت : علي حسن حسين . واسماء الانبياء والصحابة : موسى واسماعيل وسليمان وداود وابو بكر وعمر وعثمان . واخيراً عبد الله وغيره من اسماء الله التسعة والتسعين التي يحل فيها محل كلمة الله : القادر، الرحمن ، السلام ، الرزاق ، الحميد ، العزيز ، الحق ... الخ . ويكمل اسم الطفل باضافة اسم أبيه كأن تقول : احمد بن محمد ، وكذلك الكنية وهي اسم الابن الاول كأن تقول : أبو القاسم ، ابو عثمان ، أبو تاشفين ... الخ . وربما اعطي للطفل اسم شهير في التاريخ (يجمع بين الاسم والكنية) مثل : ابو الحسن علي . كما يمكن أن يكون هناك لقب كـ نور الدين ، بو بغله ، بوعمامة . الاسود .. الخ أو يعطى نسبة : الصباغ ، البغدادي ، المدني ... الخ ، وتسمى البنات باسماء النساء من عائلة الرسول : خديجة ، فاطمة ، عائشة زينب .. الخ ، اما بصورتها الاصلية او المصغرة أو تكون اسماء صفات او ازهار .. الخ ، مبروكة ، محبوبة ، زينة .. الخ .

يرجع الطفل الصغير كلية الى المرأة : وترضعه الام سنتين اذا استطاعت . والطفل عادة موضع حب ورعاية كبيرين لدى جميع طبقات المجتمع ، وشغل امه الشاغل ان تحميه من شر العيون : ولكي يدفع عن الطفل نظرة الجن الشرير نجد كثيراً من العائلات الغنية تترك أطفالها قذرين وفي ثياب خلقة . والعبارة التي تمتدح صحة الطفل الجيدة أو ظرفه تعتبر خطرة ، فاذا قيلت ، فسرعان مايعمد اهله الى ازالة تأثيرها السيء بتعبير او حركة مناسبة .

يعتني المسلمون في كل انحاء العالم الاسلامي بالختان ويحرصون على اجرائه اشد الحرص مع انه لم يذكر في القرآن . ويجري إما في

اليوم السابع بعد الميلاد أو الاربعين او السنة السابعة ، أي في بداية المرحلة الثانية من مراحل نمو الطفل . وتختلف الطقوس التى تصحب الختان من بلد الى آخر . وقد تكون مشابهة لمراسيم الزواج غالبا. ويلاحظ ان مراسيم كل من الختان والزواج هي : « مراسيم عهد انتقال » : ويحتفل بالختان في موعد مناسب من السنة ، وكانت عادة الامير أن يتحف الناس بالهدايا فى هذه المناسبة .

تربي النساء الاولاد حتى سن السابعة . وفي هذه السنة يبدأ الولد حياته كرجل : إما بمساعدته لأبيه كراع أو فلاح أو صانع أو يبدأ بدراسة القرآن في المدرسة « المكتب ، الكتّاب » . وهذا نصيب عدد ضئيل .

يتعلم الولد في المدرسة ، قديما وحديثا ؛ كما هو الحال فى كثير من الاقطار الاسلامية ، قراءة القرآن ، ثم كتابته بجهد آلي من الذاكرة . ويجلس وأمامه لوحة خشبية صغيرة مغطاة بطين ابيض أو طباشير منقوع في الماء ، ويحاول ان يكرر آيات من القرآن اعطيت كنموذج له ويحاول ان يتعلمها عن ظهر قلب ، دون ان يأخذ أحد بافهامه معناها ، وهذا على أية حال فوق ادراكه الطفلي. الا انه يستفيد على الاقل من الاسلوب الادبي كما يستفيد من ترتيله لهذه الآيات . وحين يستوعب الصبي القسم الموضوع على اللوحة يزال ويحل محله قسم آخر . وحين يتعلم حزبا او جزءاً تقيم اسرته وليمة لمعلمه وتلاميذه . وهناك احتفال اروع هو الختمة حين يضع الشاب « ختما » على معرفته للقرآن فيغدو من ثم حافظا . ويروى لنا ابن جبير الخطبة التي يلقيها الحافظون الشباب فى ليالي رمضان

في القرن (١٣ م = ٧ هـ) في مسجد المدينة والتي تتلوها ولائم يقيمها الاباء .

وفي القرن (١٤ م = ٨ هـ) نجد ابن خلدون يحتج على هذه الطريقة من التعليم التي كانت سائدة في الغرب الاسلامي ويشيد بتفوق الاساليب المشرقية التي تفصل تعليم فن الكتابة عن تعليم القرآن . وتضاف الى هذه المعرفة بعض قواعد النحو والحساب ويرجع ذلك الى حسن نية المعلمين وكفاءتهم التي قد يقرها الرأي العام او لا يقرها . وقد وجدت لدى كثير من الاولاد موهبة طبيعية لفهم تركيب اللغة وفقهها اتاحت لهم ان ينالوا ثقافة جيدة على الرغم من ان بدايات ذلك كانت أولية جداً .

بعد تزود الشاب بهذه المعرفـة يأخذ بتلقن العلوم العربية ؛ كالتفسير والحديث والفقه واصول الدين والنحو واللغة والبيان والادب .

هنا ثانية نجد الذاكرة تقوم بالدور الاكبر ، فالطالب الشاب قد اعد جيداً لتلقي المعرفة في اشد صورها تجرداً . وكان يجري التعليم في بيت الاستاذ او في المسجد غالباً حيث يأخذ الصبي مكانه في الحلقة المكونة من تلاميذ يحيطون بالاستاذ ، الذي يجلس مسنداً ظهره الى اسطوانة من اساطين المسجد ، او يجلس على كرسي . يقرأ الشاب جزءاً من كتاب قديم فيشرحه الاستاذ ؛ وتؤخذ ملاحظات قليلة ؛ وكان على الذاكرة ان تستوعب النص وتفسيره . اما الجدول فينظم حسب مايشاء الاستاذ . وينال الطلاب البارعون والقادرون سلطـة الاستاذ في اعادة دروسه في مدينـة اخرى وهذا مايسمى بالاجازة . بهذا الشكل اخذت بعض الكتب التي وضعها اساتذة بارزون في

الانتشار وتغلغلت عقائدهم بذلك في جميع انحاء العالم الاسلامي

هذا التنظيم المعروف جيداً في الغرب الاوربي في العصور الوسطى والذى لايخلو من حسنات ، انتشر في الشرق على نطاق واسع . لقد فتح بعض الخلفاء العباسيين دورا للحديث ؛ واسس المأمون (دار العلم) التي سرعان ماقلدها الفاطميون في مصر ، والتي اصبح الازهر اثرا بارزا لها . هذه الجامعة القاهرية حاكاها المغرب في الزيتونة بتونس والقرويين بفاس .

في القرنين (١١ - ١٢م = ٥ - ٦هـ) اسس بعض الحكام كنظام الملك ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين وغيرهم مدارس للفقه ودرست فيها اصول الدين والمذهب السني الذي حل آنذاك محل المذهب الشيعي السائد . اعطت هذه المدارس لهيئة الفقهاء التي كانت ذات سطوة ونفوذ عقيدة مرسومة واساساً متماسكا . ولكي يضمن مؤسسو المدارس دوامها ، اوقفوا عليها الاوقاف وعينوا عدد الاساتذة وطبيعة تعليمهم ، ولما كانوا شافعيين فانهم علموا بادىء الأمر حسب هذا المذهب . وأسست هناك فيما بعد مدارس خاصة بالمذاهب الاخرى . ويبدو ان سلطان المماليك بيبرس كان اول من اسس مدرسة نموذجية حوت بين جدرانها المذاهب الاربعة جميعاً ؛ وكانت بالتالي ذات اربعة اواوين . وقد سارت المدرسة قدماً في تنظيمها ، لكنها اصيبت بتقهقر في نمو الثقافة العامة : وبذلك اكدت تقلص الفكر الاسلامي .

وعلى موازاة التعليم الرسمي ، كان للجمعيات السرية مدارسها الخاصة كاخوان الصفا والقرامطة والاسماعيلية . كما طور الصوفية مدارسهم فنمت نتيجـة للاتجاهات المتنوعة التي اوجدت جيوبية

التصوف . ان انتشار الربط والخوانق والتكايا والزوايا الصوفية ابتداءا من القرن (١١ م = ٥ هـ) فصاعدا ، عمم تعاليمهم وابقى على صبغتهم الزهدية ؛ وتعتبر بعض زوايا شمال افريقية نماذج طيبة لهذه البيوت التعبدية التى جرت فيها الى جانب ممارسة الطقوس الصوفية الخاصة ، حركة تعليم هدفت الى انماء الاهتمام بالثقافة الاسلامية العامة ، كما انها غدت موجها في الامور السياسية والاجتماعية .

* * *

الفتاة الصغيرة هي المساعد الطبيعي لربة البيت ، فبمجرد ان تترعرع ، تساهم في الريف ، في اعمال النساء الشاقة ، اما في المدن فتخرج الى الشوارع ما دامت غير محجبة ، وفي الاسر التي تكون نساؤها عاملات تتعلم الفتاة المهنة ، وإن كان هناك اتجاه عام الى عدم تعليم البنات المهن ، فان عملهن الاساسي هو الزواج . وفي العهد القديم للمجتمع الاسلامى ، نجـد نساءاً متعلمات في الطبقات العليا من المجتمع العباسي . لكن كما كانت الحال في اليونان القديمة ، كانت الجواري والمحررات هن اللائي يبرعن في فنون الغناء والرقص بالاضافة الى ما يتمتعن به من جمال ، بل كن أحيانا ينلن ثقافة واسعة : ويعطينا كتاب الاغاني نماذج لامثال هؤلاء النساء ، وتمثل انا توددد العالمة قصة من اقاصيص الف ليلة وليلة . ولم يسمح للنساء بصورة عامة بدراسة القرآن .

* * *

نجد تعارضنا اليوم في العالم الاسلامي بين النظم التقليدية والنظم

الحديثة التي تقف معها جنبا الى جنب . وتتمثل هذه المعارضة في التعليم بصورة واضحة . ان المدارس القرآنية مازالت موجودة ، ومازال الصبية يحملون لوحاتهم في أيديهم ويهزون اجسامهم عند ترتيلهم ، ومازال المعلمون كذلك يعطون دروسهم في المساجد ، وما انفكت الجامعات القديمة تجذب اليها جمهوراً من الطلاب ، ومع ما اصابها من روح التجديد فهي لا تزال تحتفظ بعاداتها القديمة وطابعها التقليدي ، وحتى مدارس المغرب التي تغيرت كثيراً مازالت تدرس الفقه . وبازاء دور التعليم التي ترجع الى عشرة قرون خلت تقوم دور العلم التي تحاكي احدث مانشاهده في اوربا . وتفتح جميع انواع المدارس الفرنسية في شمال افريقية أبوابها للمسلمين . اما تركية فقد اتجهت اتجاها كليا نحو تجديد نظامها التعليمي في ثلاث درجات ، ولا تمتلك مصر وسورية والعراق مدارس أولية جيدة فحسب بل شرعت كذلك شروعا طيبا في التعليم الثانوي والعالي ، وقد تقدمت جامعة فؤاد في القاهرة قبل الحرب تقدما يدعو الى الاعجاب . وتعتبر جامعتا عليكرة وحيدر آباد في الهند الاسلامية من المراكز الثقافية الفعالة يساعدها نظام تعليم ابتدائي وثانوي جيد التنظيم . ان وجود هذه المحيطات التربوية المتناقضة جنبا الى جنب يؤدي الى عدم توازن بين مختلف طبقات الشعب ، وعدم التوازن هذا له تأثيره في هذه الحياة الاجتماعية .

اما الحركة النسوية الواسعة الانتشار فتقود النساء الى أن يأخذن دورهن في تطور التعليم . وقد شعر جيل الشباب الناشيء بأضرار تنشئة زوجاتهم على الطراز القديم . واستطاع بعض النسوة منذ قرن أن يحصلن على تربية نافعة في بعض المدارس المسيحية ،

حيث جلس جنبا الى جنب مع الفتيات الكاثوليكيات والبروتستانتيات. وفي السنوات القلائل الاخيرة ، أسست مدارس وطنية للبنات في كثير من الاقطار ، وفي تركية وغيرها أخذ التعليم يتقدم حثيثاً ، كما أخذ التعليم العالي يتيسر للطلاب المسلمين فى الشرق والغرب معا .

يتزوج الشاب في حوالي العشرين من عمره ، وتختلف طبيعة هذا الزواج اختلافا بالغا فى العائلة الابوية النظام ، حيث جميع الافراد يظلون متحدين اثناء حياة رب العائلة ، عنه في نظام العائلة الحديثة جداً حيث نجد الزوجة الواحدة ، ونجد للزوجين بيتهما الخاص بهما . وتعكس أوضاع المنزل هذا التباين بين الطرفين . فاما منزل حديث أو شقة مجهزة بالكهرباء أو قصر واسع يضم عدة فروع من عائلة واحدة ، واما منزل من منازل البحر الابيض المتوسط القديمة ، أو خيمة او كوخ ، او كهف قديم .

ولم يبق من قصور الخلفاء والشخصيات القديمة الاخرى سوى الذكرى التى يحفظها لنا الادب . وفي كلا طرفي الاسلام المكان والزمان ، تقوم قلاع الامويين في سورية ، وقصر الناصريين فى غرناطة وهو الحمراء . والاجزاء التي ما زالت قائمة في المشتى ، وفى قصير عمرة وقصر الحائر وغيرها ، تشهد جميعا على وجود بنايات متقنة جداً وغاية في الفخامة بحيث يصعب على علماء الآثار عدم اعتبارها ساسانية الاصل . ان الورثة الحقيقيين لملوك الملوك « الشاهنشاه » ، وهم العباسيون ، لم يتركوا من القصور التى بنوها من مواد وثيقة وجميلة معا والتي كانت في زمانها بالغة الفخامة والروعة ، سوى أيوان واسع طويل وجدت فيه غرفة لاستقبالاتهم الرسمية : والذي نجد فنه المعماري فارسيا . تكونت مساكن الخلفاء من أوادين منفصلة اقيمت

هنا وهناك في الحدائق بين البحيرات التي عكست الاشجار ، وبين الجداول التي جعلت حفافيها احواضا للازهار ؛ ومن قصور على دجلة ؛ وبنايات دقيقة تتمثل فخامتها في زخرفتها بأشكال الفسيفساء والزخارف الجصيه والجبسية والمعلقات التي تزين الجدران والسجاجيد تحت الاقدام ؛ كل هذه كانت أشياء قصيرة العمر . وقد شيد كل أمير أواوينه اذا استطاع الى ذلك سبيلا تاركا أواوين اسلافه تنتظر مصيرها ، وفي هذه الاواوين كان يبحث عن مسرات يومه ؛ وفي الصيف صنعت جدران غرفته من الخيش المرطب بالماء ، او تغطى بالثلج المذاب .

عرفت بلاد العرب « الحجاز واليمن » منذ الجاهلية بيوتا ذات عدة طبقات ، وقلاعا من السهل ان تقاوم ضد اسلحة البدو البسيطة. وتكون الغرف المشيدة تحت الارض ملجأ في حالات تطرف درجات الحرارة . وبين النماذج المتعددة للبيوت التي يسكنها المسلم الوسط ، نجد ان بيوت البحر الابيض المتوسط ذات الطابق الواحد هي الشائعة. صالة صغيرة تفتح على المدخل حيث يجد الزائر دكة يستريح عليها منتظراً احد افراد المنزل او تقوده خادم عجوز خلال ممر الى فناء المنزل المستطيل ألذي يحوي في وسطه بركة ماء وتزينه بضعة شجيرات . ويحيط بالمنزل ممرات تتدلى منها الكروم :

وعليها تفتح الابواب والشبابيك الضيقة للغرف ، واحدها أوسع من الآخر وتمتد وتتسع في بيوت الاغنياء مكونة الـ (ليوان) في ذراعين على هيأة T وفي كل مكان فجوات في الجدران ، وهي الرواشن تكون كخزانات او تصنع عليها رفوف . وفي احدى الزوايا سلم يؤدي الى السطح حيث توجد احيانا غرفة عليا ، والسطح

هو مجال النساء وملجأهن في ليالي الصيف . اما الجدران من الخارج فعارية ، فيها على الغالب بضعة نوافذ لا تفتح . اما الداخل فمحجوب تماما عن أعين المارة ويحمي ضد حوادث السطو . والاثاث قليل : بضعة صناديق غطاها النجار والرسام برسوم بسيطة ، وبعض المفارش والحصر والسجاجيد ، وعدد من المعلقات على الجدران والابواب ؛ وادوات شتى واوان معدنية واخرى فخارية ؛ وكلها سواء كانت متقنة او عادية اكتسبت شكلا قديما نبيلا .

إن جمهور الرجال يندر أن يكونوا في بيوتهم خلال النهار ؛ فهم يبحثون عن رزق يومهم ويذهبون الى دكاكينهم او مصانعهم ، ويهتمون بشئون عملهم ، ويتحادثون في الشوارع والاسواق والمنتديات . ونجد لعب الورق اليوم منتشراً حول سواحل البحر الابيض ، اما في القديم ، فرغم تحريم الحديث الذي أتم عمل القرآن فقد كانت العاب الحظ تمارس بشتى انواعها على لوحة منقوشة ، وتسمح بعض المراجع الفقهية بالشطرنج لعدم وجود عامل الحظ فيه وبوصفه تراثا ملكيا جاء من الهند وفارس . ولم يستطع أي تحريم شرعي خلال القرون أن يقضي على الولع بسباق الخيل والمراهنة عليها ، وهذا عين ما يقال عن سباق الحمام ومهارشة الديكة . وقد حصل كثير من الشخصيات البارزة على شهرة بسبب مجموعاتهم من الطيور .

أخذت الالعاب الرياضية مكانها في الحياة ، لا في حياة الصبيان فقط ، بل وفي حياة الشبان أيضا . فقد مارسوا المصارعة كثيراً . كما احتفظت لعبة الكرة التي تقوم بها فرقتان بشهرتها وسحرها . ونجد المنجنيق يستخدم في معارك الصبيان وهي مراسيم تقليدية . وتجري في الاعياد الكبرى ألعاب تنطوي على براعة ، كما في العمرة أو في

حفلات الزواج والختان وغيرها .

تنصح الكتب القديمة بتعلم فن السباحة ، وهو أمر عجيب في بلاد العرب حيث لا توجد غير خزانات الماء للارواء ؛ وان كانت هناك على أية حال سيول مفاجئة ومرعبة . إن الحمام الحار ليس من ابتكار العرب ؛ فالجنود الفاتحون وجدوه في سورية واقتبسوه ، وبالاضافة الى أنه صحي فقد لاءم الطهارة الشرعية التي فرضت على المسلمين . لكن المؤمنين المخلصين احتجوا أول الامر على هذه البنايات التي قامت في مداخلهــا تماثيل رجس ، والتي زينت جدرانها بالصور الموحية بالكبرياء والغطرسة ؛ ومع ذلك فقد بقيت التماثيل والتصاوير قائمة في خلال عدة قرون في الاسلام . إن تصميم الحمامات لا يتباين إلا في التفاصيل ، والحاجات التي يلبيها هذا التصميم تجعلها مشابهة لحمامات روما . نجد بعد المدخل غرفة باردة فيها مساطب حجرية مغطاة بمفارش أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام (المعلم) ووراء عارضة تملؤهــا أقداح القهوة ، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة في الشتاء ، وتستعمل كوسط بين الغرفة الباردة وغرفة « الحرارة » التي يعرق فيها الانسان ، وتحاط بغرف صغيرة فرعية يجد فيها المستحمون الماء الحار والبارد . وهناك خادم يدلك الزبون ويغسله بالصابون فى « الحرارة » أو فى احدى الغرف الصغيرة . وحين يمر بالغرفــة المتوسطة يبقى هناك للاستراحة في الشتاء ، واذا كان الفصل صيفا يذهب رأسا الى الغرفة الباردة (المسلخ) . وللنساء ولع ومسرة في تأجير حمام بعد الظهر حيث يقمن احتفالا مع قريباتهن وصديقاتهن . أما الاغنياء فلهم حمام خاص في المنزل .

إن الاحتفال بأيام العيد يحتل مكانا عظيما في الحياة الاسلامية . والعيدان الرئيسيان هما الاضحى والفطر . ان العيد الكبير « الأضحى، القربان » يحتفل بذكرى اليوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم النحر في منى ، الذي يشير الى نهاية مراسيم الحج ؛ وتقدم كل عائلة حسب هذه الفريضة جملا أو غنمة يكونان مجالا لاقامة وليمة يشارك فيها الفقراء . اما العيد الصغير « الفطر » فيحتفل باليوم الاول من شوال وفي كلا العيدين يلبس المؤمنون اذا استطاعوا ملابس جديدة ليشتركوا في الصلاة والخطبة اللتين تقامان في المصلى خارج المدينة ؛ ويتبادلون الهدايا والتهاني بالمصافحة كما ينصح الحديث . إن عيد ميلاد الرسول « المولود » يحتفل به في أنحاء العالم الاسلامي في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ؛ ويبدو انه يرجع الى القرن العاشر (١٠ م = ٤ هـ) فحسب ولم يصبح رسميا الا في القرن (١٢ م = ٥٦ هـ) واعتبر عاشورا عيداً وهو يعقب عيد اليهود « تشرى » واصبحت له مراسيم احتفالية خاصة في المغرب . وفي نفس التاريخ يحتفل الشيعة بذكرى مقتل الامام الحسين في كربلاء (٦٨٠ م = ٦١ هـ) ، لاقامة التعازي والمواكب حيث يضرب المؤمنون اجسامهم ووجوههم حتى تسيل منها الدماء ، وهناك أعياد ومناسبات خاصة بالشيعة : كالعيد الخاص ببيعة غدير خم ، ووفاة سلمان ، والخامس عشر من شعبان ... الخ ، واعياد الفرس الشمسية القديمة كالنوروز (٢١ آذار) والمهرجان في (الخريف) . وتضاف الى الاعياد الرسمية في جميع البلاد الاسلامية طقوس يظهر فيها حماس هائل بمولد الاولياء (تدعى بالموسم في المغرب) وهذه الطقوس هي آثار أديان قديمة وطقوس موسمية . وتزور النساء قبب الاولياء بكثرة حيث

يحملن اليها نذورهن .

يتيح العيد فرصة للمطبخ ليظهر فيها موارده التي تتحكم فيها العادات المحليـــة . وحاول الحديث أن يفرض على مراعاة القواعد الاسلامية باعتبار ما يحبه الرسول وما يكرهه ، وعلى الاقل لقد اعطيت قوة القانون لتلك العادات التي تحدد سلوك الانسان خلال الوجبات. يجلس الضيوف عادة حول موائد خشبية واطئة أو حول الصواني الثقيلة من النحاس أو الفخار ، ويتناولون الطعام بالملاعق أو بالايدي من يد المضيف دون استعمال صحون ، وقد بدأ الاغنياء يتشبهون بالاوربيين في مطابخهم . ان المطبخ يقاوم التأثيرات الاجنبية أكثر من اللباس . ويحتفظ لباس البدوي والفلاح بمظهره القديم ، وهو القميص والسروال وعباءة أو رداء يغطي الكتفين والجسم ، أما الموظفون كالقواد والمفتين والائمة والفقهاء فما زالوا يلبسون الثياب القديمة ، التي يلقى عليها رداء أبيض أنيق ؛ في حين ان أهل المدن لا يزالون يلبسون السروال الواسع ؛ والصديري والسترة والقفاطين المطرزة بالاشرطة الرقيقة ذات الالوان الهادئة تحت رداء رمادي ؛ اما العامل اليدوي فما زال ، وفي المغرب خاصة، يلبس البرنس والجلابة ، وأخذت الاغلبية من أغنياء وفقراء تقتبس الملابس الاوربية ، وهذه عملية اكثر دون شك ، وهي أقل كلفة ودواما في آن واحد . إلا ان هذه الملابس الاوربية كانت أكبر اساءة بالنسبة لجمال الالوان وظلالها التي نشاهدها في الملابس الاسلامية البحتة .

وبتمسك غالبية نساء المدينة باللباس القديم ، ويتميز بالثقل

وبعدد الالوان والسحر ، ومن المعلوم انهن لا يظهرنه الا لاقاربهن الادنين من الرجال ولبنات جنسهن . ويلبسن العباءة خارج المنزل وهي ثقيلة تحجب كل معالم الجسم . ان الازياء الغربية مع تقلص الحجاب ، أخذت تغزو الشرق وتفسد أصالته .

تتباين الحلي والجوهرات عادة حسب الزمان والمكان : فهناك الاقراط ، والعصابات المحلاة ، والقلائد والاساور ، والخواتم ، وغيرها . وتختلف المعادن كذلك : فالاغنياء يستعملون الذهب والفضة والاحجار الكريمة واللالىء ، اما الفقراء فيستعملون النحاس والحديد وغيرهما . وتتطلب الاعياد وحفلات الزواج اظهار كثير من الحلي ، وقد كان تأجير الحلي منذ القدم مهنة رائجة .

لقد تغيرت أزياء تصفيف الشعر وحلاقته كثيراً . فالبدو مازالوا يتركون شعرهم مسترسلا مضفوراً كما يفعل اليهود ، ويلبسون عمامة خفيفة من القماش المطوي . وتعقدت العمامة في المدن كثيراً بعد القرن التاسع الميلادي ، وزاد الفقهاء من حجمها حتى وصلت الى حد غير معقول وتنتشر العمامة الضخمة في نفس الوقت الذي انتشرت فيه مودة الرأس الحليق والقبعة (الشاشية) لكن في نهاية القرن الثاني عشر (م) نجد أهل بغداد مثلا مازالوا يقصون خصل شعورهم كعمل يدل على التقوى . وكانت اللحية تصبغ كثيراً ، وكذلك الشعر أحيانا ، ولون الحناء هو الذي فضله المسلمون تقليداً للرسول . وتنتشر اليوم عادة الغربيين في حلاقة الشعر ، لكن ما زالت بعض المراسيم المحلية باقية تعيد الى الذهن حلق الرأس واللحية للاسرى .

ان قصة المعارك الاولى لايمكن ان تفهم إلا اذا تذكرنا بان الاسلحة كانت في غاية البساطة : فالسيف والرمح والسهم هي الاسلحة

الثلاث الاساسية ، بالاضافة الى الدرع والزرود الوقاية . وكان لبلاد العرب فى القرن السابع نشابوها ، وقد بقيت الاقواس فى بعض المناطق كرياضة تقليدية نبيلة . لقد شهدت فترة الحروب الصليبية نمو الاسلحة الميكانيكية والنار الاغريقية . وأصبح القوس فى زمنه أحد الأسلحة المهمة فى قوة المسلمين ثم الاسلحة النارية .

ظنت العقيدة العامة خلال القرون ان المرض هو نتيجة ألاعيب الشيطان ، والجن والسحرة ، وان الشخص يشفى باستعمال اجراءآت سحرية مضادة . لكن علم الطب الذي أوحى به الاغريق الواقعيون انتشر في الشرق قبل الفتوحات ، وكان للخلفاء العباسيين أطباء مسيحيون تدربوا في مدرسة جنديسابور . وقد جمع المسلمون فى أيام مجدهم ملاحظات الاغريق في الطب وأضافوا عليها ، وهم أول من أدخله الى أوربا . والعرب هم الذين جعلوا الطب مع الفلسفة فى صعيد واحد . وكان للشرق فى القرن التاسع الميلادي مستشفياته التى سميت في البداية بيمارستانات « دور المجانين » وأنشأ العظماء فى القرن العاشر الميلادي في المدن مستشفيات ، وهم الذين دفعوا أجور الاطباء والصيادلة وحاجيات المرضى وذلك بايجاد الاوقاف ؛ وشهد القرن (١٢ م) المستشفى بالمفهوم الحقيقي . وفي القرن العاشر حاول طبيب فارسي تنظيم مهنة الطب .

أحيط الموت كذلك بطقوس ، بعضها أوصى به الفقه ، والآخر بقايا عادات قديمة تتناقض مع السنة . وحين يرى أهل المريض انه يقترب من نهايته ، يديرون وجهه نحو القبلة ، ويتلون الشهادة باسمه يغسل البدن حسب متطلبات الغسل من جانب شخصين من جنس الميت لهما المام بالمراسيم ؛ وبهذا يؤدي الغسال أو المغسل عملا دينياً يثاب

عليه يوم الحساب . لهذا السبب ينظر الدين الى الاجر الذي ربما يتقاضاه هذا الشخص على انه بدعة ؛ والعادة ان يعطى ثياب الميت. وتسد فتحات الجسم بقطع من القطن المعطر ، ويلف الجسم نفسه بقطعة أو قطعتين من القماش غير مخيطتين ؛ وهناك بعض الاحاديث تقول بان هذه الثياب هي التي سيظهر بها الميت أمام الله . وقد سبق ان قلنا بان الحجاج يحملون أكفانهم معهم الى مكة ليغمسوها في مياه زمزم المباركة .

وحتى لحظة الدفن الذي يكون في نفس يوم الوفاة اذا حصلت صباحاً ، أو في الصباح التالي اذا حصلت في غير هذا الوقت ، تقيم نساء الاسرة الولولة التقليدية ، حيث يلطمن وجوههن وصدورهن ، ويقمن بحركات يرمزن بها الى تقطيع الشعر ، ويخمشن خدودهن ويمزقن ثيابهن . وتأخذ الجارات بنصيبهن في هذا الطقس ، الذي يحوي كذلك كلمات تشيد بمآثر الميت . وهذه الاشادة تكون على صورة غناء ذي عبارات موزونة قصيرة نثرية أو شعرية ، يصحبها الضرب على النقارة والمرأة التي تقوم بالندب (وهي النادبة أو الندابة) تكون ذات موهبة شعرية حقة : وكما في حالة غسل البدن ، اسند انجاز هذا العمل الى أخصائيين مؤتمنين . وهناك أحاديث صحيحة تعارض الولولة وندب الميت ، الذي وصلت الينا منه أمثلة مشرقة من الجاهلية في قصائد الخنساء .

تحمل الجثة الى المقبرة على النعش الذي غسلت عليه مغطاة بقطعة قماش فقط . ويحمل النعش الرجال يتبادل حمله أربعة أربعة على أكتافهم ، لان هذا عمل تقوى يثابون عليه في الآخرة . وفي مقدمة الموكب يسير العلماء والفقهاء والطلبة والاخوان وغيرهم يرتلون

الشهادة وبعض مقاطع الشعر الديني كبردة البوصيري [في مدح الرسول] مثلا . وتنضم النساء في بعض الاقطار الى مواكب الجنائز وبوالين النواح والولولة على عكس ما توصى به تعاليم السنة .

من المعتقد به عامة ان بعض الأشخاص - الشخصيات المهمة عادة - يجدون صعوبة في قبول القبر الذي جهز لهم ، ويجب ان يلجأ حاملوه الى حيلة لكي يتغلبوا على مقاومة الميت ، التي قد تكون قوية الى حد ربما توقفهم أو ترغمهم على العودة .

لا يحبذ أغلب العلماء الاعلام جلب جثة الميت داخل المسجد ، مع ان العادة جارية على ذلك في كثير من أنحاء العالم الاسلامي . وحين يتم ذلك تقام المراسيم التي تؤلف صلاة الجنازة في منتصف قاعة الصلاة ، وفي جميع الاماكن التي لا تدخل فيها الجنازة الى المسجد ، تقام هذه الصلاة اما في المقبرة أو في غرفة خاصة تسمى بيت الجنائز ، ملحقة بالمسجد ومقامة خلف المحراب .

القبر عبارة عن غرفة مصممة بحيث تسمح بان يرقد الميت على جنبه الأيمن ، ويتجه رأسه نحو مكة والقدمان في الاتجاه المعاكس: هذا اللحد تسبقه أما من جهة الطول أو من جهة العرض غرفة صغيرة تسمح بان توضع الجثة في الوضع الذي يتطلبه الشرع .

تعارض بعض الاحاديث النبوية التلال المستديرة التي تغطي القبور ، وتعارض بقوة النصب التي تتوجها ؛ وكلا هذين المظهرين نشاهدهما في كل مكان . بدأت عادة تشييد بنايات على القبور خلال القرن (١٠ م) ؛ وقبور السلاطين المماليك في القاهرة أمثلة جميلة المساجد الجنائزية العديدة التي نشاهدها في انحاء الشرق . ان القبور الموجودة في مقابر المدن الكبيرة مغطاة بقباب ؛ وبعضها يعلوه

رصيف حجري أو من الآجر يرتفع فوقه عمود أو اعمدة من الحجر، ينتهي بصورة خاصة في تركية بعمامة حجرية . وللقبر عادة عند الرأس والقدمين شاهد رخامي أو حجري ، حفر عليه كتابة جنائزية أو آيات قرآنيـة .

اعتقد الناس جميعهم ان موتاهم يحيون حياة أخرى تستمر فيها حاجاتهم الارضية ، واعتقدوا فوق ذلك ان الادوات التي استعملت في بيوتهم قد استخدمت في عمل نجس . ومن الصعب غالباً ان نعرف أياً من هذين الاتجاهين هو الذي يتمثل في اتلاف كل ما يخص الميت. وقد شمل هذا العمل في بغـداد في القرن (١٠ م) القارب الذي كان يحمل الميت في النهر . ان الاتجاه الأول الذي عقدته الرغبة في الصلاة من أجل الميت هو الذي حفظ بين المسلمين عادات معينة معروفة لدى الشعوب الاخرى كذلك : الوليمة الجنائزية التي تكرر في تواريخ متعددة ، والزيارات التي تؤدي الى المقبرة مصحـوبة بانجاز مراسيم معينة ، والاضاحي واعطاء الصدقات .. الخ . ان ثياب الحزن لا تلبس عادة ، لكن الشخص يصبغ في المناسبات بعض الثياب او أجزاء الجسم باللون الازرق ، أو لا يبدل ثيابه لفترة معينة من الزمن .

تزار المقابر كثيراً من قبل المسلمين وخاصة النساء . ومع ان كثيراً من المقابر تقام في بقـاع قاحلة ، فان البعض يغرس حول قبر احد الاولياء وقربه شجرة او يشق ينبوعا . ومواطن السكن الاسلامية كثيراً ما تحوي مدافن تمتد في ظل اشجار داكنة تتخللها اضواء من النور الساطع يشع على القبور البيض . وتذهب النسوة الى هناك ايام الجمع ليروين اخبار المدينة ، ويجلبن معهن

اولادهن ، وكثيراً ما يرى الانسان ثيابهن الواهية تتحرك نحو محل الاجتماع ، في حين ترفرف الطيور الملونة على الاشجار باجنحتها . ان الموت يقبل باستسلام ، والاحياء الذين لا يتظاهرون بالحزن بغض النظر عن المراسيم الواجبة ، باعتبار ان مسرات الحياة سريعة الزوال ، يكثرون من زيارة قبور الموتى دون حزن ، اولئك الموتى الذين يعيدون الى اذهانهم احب الذكريات . يبدو انه من الممكن محاولة اعطاء تقدير للمستويات الاخلاقية للمجتمع العربي في الماضي . ان دراسة نقدية للاخلاقيات في فترات متعددة من التاريخ الاسلامي يمكن اجراؤها مستخدمين كمصادر كتب المؤرخين وكتب الادب كمقامات الهمداني ، التي سخر فيها المؤلف من عادات عصره . والنتيجة التي يمكن الوصول اليها من هذه الدراسة هي انه بين القرنين (٨ - ١٥ م) كان المجتمع الاسلامي ليس بأحسن ولا بأسوأ من اي مجتمع اوربي في نفس المرحلة من التطور ، وهذه نتيجة ذات طرافة جد ضئيلة بالنسبة لنا . ويمكننا على اية حال ان نلاحظ ميزة اوميزتين ، ومع ان الرق لم يكن البتة ذا طبيعة بغيضة في العالم الاسلامي ، فانه كان سبب سمعة سيئة من ناحية الاخلاقيات الجنسية . فان وجود الرقيق الشبان والخصيان لدى الاسر الغنية شجع على اللواط الذي كان ومازال من الرذائل الاجتماعية وقد كان منتشراً الى حد كبير ولا نجد نصاً واضحاً يتعلق به . في نفس الوقت ادى رق النساء ووجود السراري لدى الرجال الى فوضى في الاسرة لا تقل عن فوضى تعدد الزوجات ومع ذلك لم ينعدم البغاء من المجتمع الاسلامي . والبغاء في المجتمع الاسلامي ليس على غرار ما كان عند البيزنطيين الذين قصروه على الاجانب ؛

ذلك ان الزواج المؤقت وهو المتعة لبى هذه الحاجة ومع ذلك انتشر البغاء . نجد في القرن (١٠ م = ٤ هـ) انتشار الرغبة في الاكتفاء بزوجة واحدة بشكل ظاهر ، لكن كتب الادب في هذه الفترة صورت لنا المجون في ازهى صوره ، ومما لا شك فيه كان للشرق عاداته في هـذا الموضوع وحاسيته الخاصة ، وكل ما هناك كان المجون امراً جاريا على الالسنة فحسب .

أخذ القرآن بالتدريج يحرم الخمرة . كانت الخمرة بعد الفتوحات مازالت تشرب في كل مكان ، كما كان الحال قبل الاسلام . وكانت الحسبة ضد شرب الخمرة ، وقد كسر دعاة الاصلاح الدنان في الحانات باسم الحسبة . إن الصناعة الاوربية ، بتوريدها منتجاتها السامة ، حولت مجرد السكر الى تسمم كحولي .

إن القاعدة التي تحرم على الرجال الخروج الى الشوارع بصحبة النساء أو الاولاد التى نشرها الحنابلة ، أو الامر الذي فرضه الخليفة الفاطمي الحاكم على النساء بألا يغادرن بيوتهن ، لا يصل الى درجة مبدأ أخلاقى مقرر . وعلينا أن نوضح المبدأ الذي أرشد المسلمين وهداهم .

إن مجتمع بلاد العرب القديمة كان يتميز بالمروءة كشعور قوي موح . وهي الصفات التي تجعل الرجل يدافع عن عرضه وعرض قبيلته . لقد أحل الاسلام الدين محل العرض ، ودعا المسلمين الى ان « يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر » أى ان يطيعوا الاوامر الالهية ويمتنعوا عما يحرمه الله ، ويمنعوا الآخرين عن ارتكابه . ان الاخلاق والتقوى اصبحا شيئاً واحداً . ويؤكد الشرع دون شك على اهمية النية التي تدعو المؤمن الى أن يعمل « لوجه الله » ، لكن

الصوفية هي التي قدرت الى أقصى الحدود وثبة القلب ، وقالت على لسان الغزالي ان الحب هو العنصر الاساسي في اعمال البشر . ومن ناحية اخرى أخذ الدين بنظر الاعتبار وجهة النظر الدنيوية الحديثة أعني المصلحة العامة وهي نوع من التضامن .

إن صيانة الرابطة العائلية ، وهي أساس الرابطة القبلية تمثل كذلك أساس الجماعة الاسلامية ، مع هذا تزعزعت حين استطاع الرسول أن يفصل الابناء عن دين آبائهم كما فعل الانجيل من قبله. والاحترام الذي يحمله الابناء لابائهم إنما هو حقيقة من حقائق الحياة الاسلامية . لقد وجه القرآن والحديث الانتباه الى السلوك القويم للنساء « قرآن س ٢٤ : ٣١ » . ويدعو القرآن الى اتباع العدل والامانة تجاه الجميع ، واحترام الوزن والكيل ، والاخلاص للعهود والايمان وتسليم الامانة الى أصحابها الحقيقيين ... الخ . ولا شك ان المؤرخين بالغوا في اشتراكية الرسول ؛ ومع ذلك فهو قد هدف الى اصلاح حال الضعفاء والاسرى والعبيد والزوجات والارامل ويتامى الحروب الاسلاميـة . هناك في المجتمع الاسلامي رغم الطبقات التي خلقتها الثروة والسلطة ، شعور بالمساواة تظهر بغرابة لدى الجميع . ان الالتزام الشرعي بدفع الصدقات ليس هجوما على الغنى بل وسيلة للتطهير وضمان ضد رد الفعل في الحياة المقبلة ، التي يجازي فيها على الافراط في التمتع بالامور الدنيوية . الاعتدال احد الفضائل التي عزتها العقيدة الى الرسول وهو قدوة كل مؤمن . وخرق هذا التوازن هو الذي يؤدي الى ام الرذائل وهو التكبر ، تلك الرذيلة التي منعت ابليس من السجود لادم كما أمره الله ، وبذلك ضيع نفسه . على المؤمن أن يتحاشى الاحتقار والادعاء وأن يظهر في جميع

اعماله وحتى في مشيته تواضعا جما . وشعور التكبر الذي يساور الأب اذا كان لديه عدد كبير من الاولاد رذيلة جاهلية . ويعارض الاسلام الطمع والجشع ، لكنه يعارض كذلك الاسراف في الكرم الذي كان احدى الفضائل العربية . وتؤكد السنة على بعض التفاصيل المعينة للتأدب الذى له علاقة بالاخلاق . كل هـذا ليس سوى مظاهر ، والاخلاق الاسـلامية ارتقت الى مستوى عال بفضل المتصوفة والفلاسفة ففعلوا أكثر ممـا فعل التطبيق الديني الذى زود المسلمين بفضائل بسيطة .

المصادر

Lane. Modern Egyptians; Bourrilly. Ethnographie murocaine; Mez, Renaissance : W. Marcais, Tanges ; Takruna; Bonjean et Ahmad Dyef, Mahmoud, enfant du Caire; Al Aghar; Bonjean : une fille de la nuit.

الفصل الثاني عشر

الحياة الاقتصادية

الزراعة : عقود الفلاحة ، عقود الري . التقويم . التجارة . السوق . الطرق ، التجار . الطبقات العاملة ، الانتاج . المعاملات التجارية : البيع ، الرهن ، الودائع . التسليف بفائدة .

إن البحث الذي يمكننا أن نقوم به هنا حول اقتصاد البلاد الاسلامية لا يمكن أن يتم الا اذا اعتمد على النظم الاسلامية . ومن المناسب أن نحذف ، ليس فقط الاقتصاد الحاضر ، وهو الذي يدين بوجوده الى التغيرات التي أحدثها القرن الماضي فى الحياة المادية للعالم بل كذلك تلك الاوضاع المحلية المنبثقة عن الظروف الجغرافية والتاريخية التي أثرت على حياة السكان في أقطار كالهند وجزر الهند الشرقية وآسية الوسطى وافريقية السوداء ، تلك الاقطار التى لم تكون حقا جزءاً من الجماعة الاسلامية ، ولم تدخل فى الاسلام الافي فترة متأخرة . لذلك سنقصر بحثنا على تفاصيل مختصرة عن الاقتصاد

الاسلامي القديم في حدود الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط .

ان اقتصادهذه الاقطار بصورة عامة ريفي وزراعي . والشريعة الاسلامية التي اهتمت بالدرجة الاولى ببلاد العرب تبحث في ملكية الحيوانات الداجنة ، كالجمال التي يملكها البدو الاغنياء ، والاغنام التي يملكها البدو الاقل غنى ، والحمير ، والثيران ، وزراعة بساتين النخيل والفاكهة التي تنمو بينها مزروعات الشعير والحنطة والذرة أو الخضروات ، والمراعي المنبسطة وزراعة الواحات أو المناطق المرواة. والبلاد تعيش على ذاتها قدر المستطاع . أما وادي النيل وسواد الرافدين بتربتها الغنية بفضل الفيضان أو الري ، فانها من نوع مختلف ، فهنا نجد بجانب الفلاحة الكثيفة القليلة الانتشار ، الزراعة التي تستغل جماعات العبيد او العمال نصف الاحرار في الاقطاعيات الكبيرة التي تنتج محاصيل هائلة من الحبوب دون أن تهمل في نفس الوقت بساتين النخيل والفاكهة . تلك الاراضي تقع على طول ضفاف الانهار الصالحة للملاحة الموجودة في بلاد الاسلام القديمة ، ويسهل نقل محصولها الى المدن العديدة الممتدة على ضفافها . أما الفائض فينقل على ظهور الجمال الى الاراضي المجدبة ، مع أن هـــذه التجارة في المواد الغذائية مقصورة على بعض الحبوب والتمر والفاكهة المجففة والتوابل الاجنبية . ان تجهيز مكة بالمؤن لحاجة الحجيج جعل من الضروري حمل كميات كبيرة من الشعير والحنطة من مصر : تجلب بالبحر الى جدة أو بالقوافل المسافرة عن طريق شبه جزيرة سينا .

تتكون تجارة الشرق ، التي كانت تجارة رائجة منذ القرن (٩ م = ٣ هـ) من مبادلة منتوج الاقطار الاجنبية بمنتوج الصناعة المحلية . ان عمل الطبقات العاملة في المدن الاسلامية الكبرى لم يرض

الحاجات المحلية ، فحسب ، بل أمكن تصدير بعض الصناعات المحلية منها الى الخارج . والبضائع التي تحمل بالقوافل عن هذا الطريق صغيرة في الكمية ؛ وهي سواء كانت ينتجها المواطنون ، او الاجانب لا ينتفع بها غير مجتمع غني تعود على كاليات الترف ، كما تبادل أيضا في اسواق أوربا وآسية الوسطى والجنوبية .

إن النظم الاسلامية تعكس على نفسها كلا من هذين المظهرين لنشاط البلاد المسلمة : واولها وهو الاهم الخاص بالزراعة وتربية الماشية ، ثم المتاجرة مع الاراضي البعيدة . والشريعة الاسلامية تهتم كثيراً بمنتجات التربة بحيث ان هذه المنتجات هي التي تحمل العبء الرئيسي من الضرائب . والشريعة تفرض الضرائب بالدرجة الاولى على الحيوانات . ونجد الجمال والاغنام تتلاءم في كل مكان مع السهوب ؛ والجمال وسيلة لازمة من وسائل المواصلات ، وهي كالاغنام ، المصدر الرئيسي للطعام عند جماعات الرحل كما هي عند الحضر . والمناطق المروية تحوي ثيراناً ضئيلة الحجم لكنها قوية البنية . والحمار هو الدابة الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن ، أما اسبانية والمغرب فلديها البغل ، لكن الحصان هو حيوان الترف في المجتمع العباسي ، كما كان في بلاد العرب القديمة ؛ وقد انتشر استعماله حين قدم الاتراك من آسية الوسطى . أما الطيور الداجنة فنادراً ما تربى بعناية . ويعتبر الكلب وهو محتقر وضروري معا حارسا للحقل ومخيمات البدو .

بعد الفتوحات ، نجد ان نظام الضرائب الاسلامي يرث من الدولة البيزنطية ضريبة على الغلال سميت بعدئذ الخراج . لذلك كان لبيت المال مصلحة مباشرة في انماء زراعة الحبوب والتخلص من

الاراضي البور . ان المقاطعات الكبيرة التي بقيت شاغرة بعد الفتح أما لانها كانت ملكا للامبراطور او لان اصحابها هجروها ، هذه الاراضى منحها الخلفاء الى الشخصيات البارزة وغالبا ما كانت تنتزع ملكيتها منهم ، وقد زرعوا هذه الاراضى بشكل ردىء بمساعدة العبيد أو بتنظيم عقود محلية حسب الاسلوب القديم ، وقد استغلت الارض لذلك اسوأ استغلال ، وهكذا أهمل الكثير من الاراضي.
ومع ان العقيدة أثارت مشكلة عدم شرعية الاغتصاب ، فانها مع ذلك شجعت الاستيلاء على الاراضى الشاغرة وبررتــه فى أغلب الاحوال ، حتى دون تفويض الامير . وتتم الملكية بحفر بئر أو فتح جدول ما دام وجود الماء هو الذي يجلب الحياة الى الارض بعد البذر واقامة المنشآت ، ولكي تتجنب العقيدة الاغتصاب تقيم حول موضع الماء منطقة كبيرة أو صغيرة يجب الا تحتل .

وبوجـه عام لم يسمح الدين باستغلال الارض الا عن طريق صاحبها ، أو عن طريق مؤجر مقابل مبلغ من المال أو الطعام والعقيدة لم تعترف ، في حالة الارض المرواة بالمطروحه ، بالعقود التي سمحت بها العادة والتي تنص على ان الارض تبــذر من جانب صاحبها ثم تعهد الى فلاح بالمزارعــة ، أو تبذر ويشرف عليها وتحصد من قبل الفلاح وهذه هي المخابرة ، والفلاح يحتفظ لنفسه في الحالين بجزء معين من المحصول ، وهذه هي في الواقع الاتفاقات التي تحكم الزراعة فى الشرق والغرب معا ؛ أما في المغرب فالمتعارف عليه ان يأخذ الفلاح خمس المحصول (خماس) . والعقيدة مع هذا اصرت على اعتبار الالزامات التي توجدها تلك العقود مثيلة لتلك التي يبرمها مالكو الارض مع المستأجرين ، وهكذا تقف معارضة

للحقائق .

مثل هذه العقود تستعمل الآن بصورة عامة .. ونفس الامر نجده في حالة المغارسة التي تكون حين يعطي صاحب الارض ارضه الى فلاح غرسها بالاشجار ويستفيد منها خلال سنوات كثيرة ، وينال نصف الارض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . مثل هذا العقد لم تقبل به العقيدة . ولما كان ليس في مصلحة الزارع الى حد بعيد ، فان التطبيق العملي ادخل عليه كثيراً من التحوير .

ان عقد الري (المساقاة) الوحيد الذي تعترف به العقيدة هو ذلك الذي يستطيع المالك به ان يعطي بستانا للنخيل ليروى ويسمد ويصان ويحمى من الطيور او اللصوص ، مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجفيفها . ونفس النظام يطبق على الكروم ، لكنه في رأي أغلب الفقهاء لا يطبق على البساتين المكونة من أشجار أخرى . ان المالك يجهز الآلات ودواب الحمل وغير ذلك ، وعقد المزارعة الذي أسلفنا ذكره ، تسمح به العقيدة في حالة الارض « البيضاء » اي التربة غير المزروعة بين الاشجار والتي تزرع عادة بالحبوب والخضروات ؛ وهذا هو التطبيق الجاري في حالة مزروعات الزيتون والبرتقال والليمون .. الخ . وتصر العقيدة وهي على حق ، على ان كلا عقدي المزارعة والمساقاة يقوم بهما نفس الشخص

ان مشكلة حقوق الماء ذات أهمية رئيسية ؛ فان ملكية واستعمال الينابيع والجداول والآبار تحكمها مبادىء يقال انها ترجع الى الاتفاقيات التي عقدت بين هاجر واسماعيل وبين جرهم فيما يتعلق بزمزم . وهذه في الحقيقة استعمالات فرضتها حكمة التجارب على فلاحي الشرق الادنى وسواحل البحر الابيض المتوسط . ويدين

الشخص بفائض مائه لجاره ، بحيث يستطيع ان يشرب ويسقي حيواناته لكن ليس ضروريا ان يستخدمه لغرض الري .

والعقيدة التي نلاحظ بعد كل ماسبق انها راغبة في جعل عقود المزارعة مثيلة لعقود الايجار العادية ، لا تشجع مع هذا تأجير الارض وهي تقرر من حيث المبدأ بان المالك الذي لا يبذر أرضه يجب ان يسمح بزرعها لاخيه المسلم . وهذه امتداد لفكرة الملكية الجماعية والتربة لا تغدو ملكا خاصا وموضوعا للتعاقد الا اذا زرعت بالاشجار ورويت كنتيجة لذلك . ان الملكية الجماعية في العالم الاسلامي عاشت في صورة ملكية قبلية ، وان نظام الاراضى المملوكة ملكا خاصا ما زال مشكلة اقتصادية وشرعية خطيرة . واذا كان وقف الذرية قد أصبح شائع الاستعمال ، فان ذلك لانه يلبي ميلا غريزيا نحو الملكية الجماعية .

في العالم الاسلامي كما في كل مكان ، مرت الزراعة باوقات حرجة . فالفاتحون العرب ، عكس ما كان متوقعا منهم بالنسبة لممارستهم الغارات البدوية في الجاهلية ، احترموا الارض المزروعة وكانوا متلهفين بحكمة على حفظ المحصول كيلا يخسروا وارد الضريبة وقد حافظوا على نظام مشروعات الري السورية ، والقنوات وتصريف وادي الرافدين ، واستمروا على عادة الاستفادة من فيضان النيل . ان غلطة الخلفاء هي ايجادهم المقاطعات الكبيرة التي وهبوها للمقربين اليهم ، لا لشيء الا لمصادرتها منهم بعدئذ ، وهكذا سببوا عن طريق أساليب زراعية رديئة نوعا من عدم التوازن في انتاج وتوزيع السكان . وفي الفترة الزاهرة خلال القرنين (٨٠٩ م — ٢و٣ هـ) اندفع الناس من الريف الى المدن الكبرى حيث أملوا ان يلتقطوا فتات

الثروة التي كدستها التجارة في تلك المدن . وهكذا زادوا عدد الغوغاء الذين ليست لهم قيمة اقتصادية والذين كانوا على استعداد لاحداث كل ضروب الشغب والفوضى . وفى شمال افريقية أدى الاحتلال العربي فى القرن (١١ م) وعدم كفاية الاتراك الى دمار مشاريع الري الرومانية البربرية ، وفي اسبانية مهدت الحروب الطويلة التي رافقت استرجاع الاسبان لها الطريق الى تفسخ الزراعة ، ذلك التفسخ الذي اصبح تاماً كنتيجة لغنى المستعمرات الامريكية المفرط.

وانا لمضطرون هنا الى ترك ما يتصل بالاوزان والمقاييس ؛ وهي كما لدى جميع الشعوب ، تباينت كثيراً على مر الزمن وعلى اختلاف الاماكن . وسنقتصر على القول بان مقاييس الطول كانت الاصبع وهو ست حبات من الشعير توضع فى خط مستقيم ، والقبضة وهي ستة اصابع ، والذراع وهو ثمان قبضات وهي في مصر (٥٨) سم .. الخ . والمقياس المستعمل فى مسح الارض المزروعة هو السطح الذى تستطيع فرقة ان تؤدى عمله فى يوم وهو (الفدان الزوبجة ، الخ) ؛ ويختلف في المساحة كثيراً حسب نوع المحصول ففى لبنان مثلا يتباين اليوم من ربع الى ثلثى الهكتار ؛ وفي مصر اليوم ٢٠٠ ر ٤ م٢ . ومقاييس الحجوم كانت العشير والقفيز والجريب : والاردب في مصر يساوي ١٩٨ لتراً والمد هو المقياس المستعمل للحبوب ؛ وقد حاولت العقيدة ان تعطيه قيمة ثابتة فقالت انه مساو لمد الرسول ؛ وهو مقياس حفظ في بيت المحتسب . ان مد الحنطة في لبنان اليوم يزن من ١٢ الى ١٨ كيلواً .

كانت وحدة الوزن الرطل الذي تراوحت قيمته في سورية في العصور الوسطى بين ٦٠٠ – ٧٢٠ درهما ويساوي الدرهم المصرى

اليوم (١٢ر٣) غرام ، ويساوي القنطار ١٤٠ كيلواً . ومقاييس الاوزان الخفيفـة هو المثقال الذي يساوي ٤ر٢٥ غرام ويقسم الى أربعة وعشرين قيراطاً .

من بين العادات القديمة جداً التي سادت الحياة الزراعية ، نجد عادة لم يستطع حـتى الوحي ان يقضي عليها ، وهي عادة الفصول . ان تقويم القرآن القمري غريب تماما عن الحقائق الطبيعية التي تحكم النظام الاداري والزراعي . احتفظ الفلاحون بشكل يتباين من محل الى آخر ، بتقسيم قديم للسنة الى أربعة وعشرين برجا قمريا يضبطها موقع النجوم على الافق عند بزوغ القمر ومغيبه ، وتتحد مع حركة الشمس بحيث تجهز بعد عدة اصلاحات اوحت بها التجارب تقويما زراعيا غاية في الكفايـة . كما ان الناس قنعوا بالتقاويم الشمسية الفارسية والسورية والرومانية القديمة ، التى حاولوا ان يجعلوها تتسق مع التقـويم الاسلامي ، وفي القرن الثاني عشر للميلاد نرى ان ابن جبير مثلا يلاحظ جيداً تناظر هذه التواريخ الشمسية مع السنة المسيحية (العجمية) . ومنذ بداية حكم الخلفاء أفهم الناس على ان يعلموا ان الضريبة على محاصيل الارض وهي الزكاة والخراج يمكن أن تجبى بعد الحصاد فقط ، ومن ثم يكون ذلك فى تأريخ يتغير بحسب التقويم القمري ، وان لم يكن مقبولا جباية الضريبة مرتين في نفس الفصل على الرغم من تقلبات التقويم القمري هذا .

ان الرسول هو الذي أوجد هذا التقويم عند حجة الوداع سنة ٦٣١ م = ١٠ هـ . تحتوي السنة على اثنى عشر شهراً قمريا في كل منها ٢٩ او ٣٠ يوما بالتوالي ومجموعها ٣٥٤ يوما . هذا التوالي ليس مطلقا لان بداية كل شهر لا تحدد مقدما ، بل حين

يشهد شاهدا عدل بأنهما رأيا هلال الشهر الجديد ، وهكذا فان بداية رمضان مثلا لا تحدد بصورة رسمية مقدما ، وربما يستغرق الصيام ٢٨ أو ٢٩ او ٣٠ يوما . ومن هنا قد يتعاقب شهران يحتويان ٢٩ أو ٣٠ يوما . وأكثر من هذا فان نظام الاشهر القمرية لا يحوي اعداداً كاملة من الايام ، وكان من الضروري استعمال نظام اضافة الايام الذي عرف ببلاد العرب القديمة . واضيف يوم واحد الى الشهر الاخير من السنة ، احدى عشرة مرة في كل ثلاثين سنة .

أما اسماء الشهور فهي : محرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثاني ، جمادى الاولى ، جمادى الثانيـــة ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

يبدأ اليوم وينتهي بالغروب ؛ وليلة الجمعة اذن ، حسب التقويم الاسلامي ، تقع في تقويمنا بين غروب الشمس والشروق يوم الجمعة .

ويبدو ان الاسبوع معار من اليهود والنصارى : ومن الاحد الى الخميس نجد للايام أسماء مشتقة من أسماء الارقام الاربعة الاولى ؛ أما الجمعة فمن اجتماع المسلمين في هذا اليوم ؛ وأما السبت فانه كسبات اليهود وهو اليوم السادس .

خضعت فترات اليوم لنظام أوقات الصلاة ، لاسيما اللحظات الفلكية الثلاثة الاساسية ، وهي شروق الشمس ، وتوسطها كبد السماء وغروبها . واستفاد العرب من المزولة الشمسية ، بل انهم صنعوا ساعات مائية محتذين نماذج الاغريق وتقاليدهم . وهذه الساعات اصبحت عديمـــة النفع نظراً لعدم وجود الاهتمام وللانحطاط العام الذي طرأ على الفنون ، ولم يبق منها سوى آثارها . ولما كانت تلك الساعات تلحق بالمؤسسات الدينية والمساجد والمدارس ، فانها ساعدت

على ضبط أوقات الصلاة . إن استعمال ساعات الحائط الاوربية (التي ما زال سكان شمال افريقية ينظرون اليها نظرة غير ملائمة) والساعات اليدوية سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وقد أشرنا الى أن مؤذن زمزم زود بمقياس للزمن نظم في غرينتش .

إن روح التجديد هذه في تفاصيلها لاتغير الحقيقة ، وهي ان التقويم الاسلامي على خلاف شديد مع النظام الشمسي ، وبالنتيجة مع تتابع الفصول ، الذي نظمت بموجبه في كل قطر ، مواعيد المراسيم والاحتفالات الدينية الرئيسية . يترتب على هذا الاختلاف ان الحج والصوم مثلا يحصلان في فصول تختلف من سنة لاخرى ، في حين ان أصلها حددها في موعد ثابت . وقد عرفت بلادالعرب قبل الاسلام كلا التقويمين الشمسي والقمري معا ، اللذين لم تفهم تغييراتهما بدقة حتى الآن ، وأسماء الشهور ، حين نبحث عن معانيها ، تناظر التقسيمات الفصلية ؛ مثلا جمادى هو البرد ، ورمضان الحر ، وربيع الفصل الذى تكتسي الارض خلاله بالعشب . ان عيوب التقويم القمري الخالص واضحة تماماولم يحتفظ ، به الا لأنه مقرر بنصوص الهية (ق: س ٩ ، ٣٦١) وهذه الآيات لا يمكن تفسيرها بغير الصورة التي فسرها بها الرسول . أما في التطبيق العملي فان التقويم الشمسي احتفظ به أو استرجع . وبالتالي نجد السكان الزراعيين يحتفظون بطقوس ومراسيم للفصول لم يتوصل الى دراستها جيداً . ومن ناحية أخرى ، نجد الحياة الادارية والاقتصادية في مصر وسورية مثلا ، تستمر بعد الفتح الاسلامي حسب التقاويم الشمسية اليونانية او القبطية . وفي القرن ١٤ م نجد هذه التقاويم تستعملهاعموما حكومات المماليك لضبط

الحوادث العامة والخاصة . وفى الفترة الحديثة نجد التقويم الغريغوري[1] مقتبسا فى كل مكان في البلاد الاسلامية ، ولم يعد التقويم القمري سوى اطار ديني .

إن العهد الاسلامى وهو الهجرة ، لا يبدأ بالضبط فى التاريخ الذي ترك فيه الرسول مكة مهاجراً الى المدينة ، فان بداية الهجرة حددها عمر بحيث ان السنة تبدأ في محرم ، وان أوله يحتفظ بالتاريخ الذي كان له في تلك السنة التي فرض فيها التقويم الجديد . ويبدأ العهد الاسلامى في اليوم الخامس عشر (أو السادس عشر) من تموز سنة ٦٢٢ م . وهناك قاعدة بسيطة تحدد بصورة تقريبية تناظر السنة الاسلامية مع المسيحية ، واذا جعلنا هـ كرمز لسنة الهجرة وجـ للسنة الغريغورية يكون لدينا :

$$(\text{هـ} - \frac{\text{٣ هـ}}{\text{١٠٠}}) + \text{٦٢٢} = \text{جـ}$$

وتعطينا جداول « وستنفلد » المقارنة التواريخ الدقيقة للشهر والاسبوع .

*

تلعب السوق دوراً كبيراً في حياة المدينة ، بصفتها عنصراً أساسيا لعظمتها : ومن المناسب أن نعين معنى الكلمة بدقة . كان لمكة قبل الاسلام مكان تخزن فيه البضائع المجلوبة من اليمن والشام لغرض التبادل ، والتهيؤ لسفرة أخرى . ومن ناحية ثانية ، كانت هناك أسواق تقام في أيام معينة فى مختلف أنحاء بلاد العرب ، وأسواق الحجاز مشهورة . ودراسة اسماء الاماكن في العالم الاسلامي تدلنا على

(١) وهو تقويم جوليان الذي أصلحه غريغور الثامن عام ١٥٨٢ .

انها مليئة بأسماء اسواق الاثنين والاربعاء .. الخ ، وتعني كلمة سوق بالمعنى الذي يستعمل في المدن ، مجموعة دكاكين ومصانع تتركز فيها الحياة الصناعية والتجارية كما تعني حتى الاسواق البسيطة . في سورية كان السوق نتاجا لتراث الاقتصاد البيزنطى . فالمصانع والدكاكين تقوم في المدن المتأثرة بالطرز الاغريقية ، على طول طريق النصر بين الباب الرئيسي للمدينة ومعبد الاله الاكبر الذي حول بعدئذ إلى كاندرائية أصبحت مسجداً فيما بعد . وتجمع أصحاب الحرف والتجار في جماعات في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك السوق (ج . اسواق) أو البازار (في التركية) . ولا نزال نجد في جميع المدن الاسلامية تلك المناطق التي تكون أثناء النهار ذات ظل منعش ومضاءة بكوي ترسل نورا ، وتكون مليئة بالحركة زاخرة بالالوان في حين تهجر ليلا وتموت ، ولا يبقى سوى الحراس الذين يحولون دون حوادث السطو و « ثقب الجدران » . ولم يكن من الضروري أن تتجمع الاسواق معا في جزء واحد من المدينة ، فكل صنف له سوقه الخاص المنفصل عن الاسواق الاخرى ، هكذا نجد في كثير من المدن ان اسماء الابواب او البنايات تدل على موقع سوق العطارين والقصارين وغيرهما .

كان التجار الاجانب يخزنون بضائعهم في مخازن خاصة ، كما وجدوا مثابة لهم ولبهائمهم في بنايات مستطيلة واسعة ، حيث نجد حول الصحن الواسع اسطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوي غرفا تنفتح على الفناء فقط ، وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائري وهذا هو القيصرية أي السوق الامبراطورية بالاصطلاح السوري الفلسطيني والمغربي ايضاً ، وهذه الفنادق او الخانات لا توجد في المدن فحسب

بل وفي المحطات على طول الطرق التجارية في الشرق . وعلاوة على ذلك توجد الاسواق بالمعنى العادي في المدن كما توجد في المقاطعات إما يوميا أو في ايام معينة فقط لبيع الانتاج المحلي ، والبهائم والخضروات والفاكهة . لقد رأينا ان حياة السوق مهما كان نوعها يشرف عليها حاكم خاص هو المحتسب .

لم يقتصر نشاط السوق على بيع الانتاج الوطني ؛ اذ توفرت فيها البضائع الاجنبية كذلك . وكان يوصل الى الشرق الاقصى عن طريق بري عرفه المسافرون الاوربيون ايضا ؛ لكن أكثر التجارة حملت عن طريق البحر . ولم تكن السنوات الاولى من الخلافة في مصلحة الملاحة البحرية ؛ ولم يكن العرب الفاتحون من البحارة ؛ في حين ان سكان سواحل سورية فقدوا الشجاعة القديمة التي واجهوا بها في وقت من الاوقات غضب الامواج بجرأة . ويعزى الى عمر القول الذي نصح المسلمين بالعزوف عن السفرات البحرية ، ويعود الفضل للامويين في بناء أساطيل فينقية ومصرية من جديد ، ومحاولة القيام بحملات بحرية ضد البيزنطيين . وفي فترة متأخرة كان البحارة الاوربيون هم السبب في زيادة نشاط المواصلات البحرية مع الشرق الاسلامي . وفي المحيط الهندي حفظ التراث الايراني ، واستقبلت البصرة التي اتصلت ببغداد عن طريق دجلة وبعض القنوات السفن الفارسية والعربيـــة التي وصلت حتى الصين .

وكان الربان (النوخذة) والملاح (المعلم) يقودان السفن الكبيرة ، التي تسير بالشراع أو المجذاف بمساعدة الاصطرلاب والبوصلة . وفي القرن (١٥ م) كان للربان والملاح تعليمات

بحرية مسجلة شعراً نعط بها نصائح خاصة بالاخطار ومواضع الصخور وظهور السواحل والاقتراب من الموانيء . وحين وصل فاسكودي غاما الى افريقية الشرقية لم يستطع الوصول الى المحيط الهندي الا بمعونة (معلم) عربي .

وكانت هناك كذلك طرق تصل اوربا ببغداد . وبواسطة الفرات يوصل الى البحر الابيض ، وكذلك وصل الى حلب وانطاكية منذ القرن التاسع للميلاد التجار اليهود الذين عرفوا ايضا الطريق المباشر الى الهند المار بالاسكندرية وفرما والبحر الاحمر . وحملت الفراء والرقيق الى اوربا ، وكان الطريق المفضل لاهل شمال اوربا هو الذي يصل الى روسيا وبراغ . واحتكرت السفن المسيحية السير في أواسط البحر المتوسط . ومنذ سنة ١٠٦٥ م رسا أسطول من جنوا في يافا . وقد تطور الصليبيون بتجارة قدر لها أن تظل مستمرة . ولم تعق كثيراً الحروب الداخلية التي عكرت صفو الشرق الادنى سفرات التجار : لكن الشيء الوحيد الذى كان قادراً على ايقاف هذه السفرات هي ثورات الزط والزنج والقرامطة . وخلال الحروب الصليبية كانت القوافل تدور بين صفوف المحاربين الذين وجدوا ربحا في أخذ جزية دورية منها كانت انفع لهم مما لو نهبوها دفعة واحدة .

لقد رحب الامراء المسلمون بصورة ارادية بالتجار الاجانب الذين لم يتمتعوا في نظر العقيدة باية حماية في دار الاسلام لبضائعهم وأرواحهم . وكانوا يستطيعون شراء الامان المضمون بجواز مرور مقابل مبلغ هو العشر . ويحدد الدين صلاحية الامان بسنة يعامل بعدها المستأمن الاجنبي كذمي ؛ وفي الواقع مدد بعض التجار مدة

بقائهم لمدة سنوات كثيرة . وعقدت معاهدات حوت قواعد خاصة بهم . وفي القرن ١٣ م حسب قول أحد المؤلفين كان الخمس المفروض على التجار يتراوح ما بين ٢٠٪ — ٣٦٪ . وكانت هناك دواوين للجمارك في الموانىء الرئيسية كالاسكندرية والبصرة وغيرها . واحتفظ الامراء بحصتهم في تقييد حرية التجار الاجانب الذين لم يستطيعوا حسب العقيدة ان يتاجروا بالبضائع الممنوعة ولا ان يصدروا الادوات كالاسلحة التي يسبب عدم وجودها ضعفا للدولة الاسلامية .

خلال القرنين (٩ — ١٠ م = ٣ — ٤ هـ) اللذين يجب أن نتوجه اليهما اذا أردنا دراسة الدولة الاسلامية في قمة غناها وثرائها كان التجار من الشخصيات المعتبرة . فتجار بغداد والاسكندرية سيطروا على الاسعار ، سيطر الاولون على تجارة البحر الابيض وقصص مغامراتهم البحرية ، التي تملأ الادب بالعجائب والغرائب تلقي ضوءاً على فعاليات التفكير التجاري .

ومنذ القرن الثامن الميلادي فصاعداً كان أصحاب الحرف في الشرق الادنى ينشرون في انحاء العالم الاسلامي وخارجه مصنوعاتهم التي نجد منها اليوم نماذج فاخرة في المتاحف الاوربية والكنائس والاديرة . ويكفي ان نستعيد اسماء الدمقس (دمشق) والموصلين (موصل) لندرك التقدير الذي كنه الغرب للمنسوجات الشرقية فالاقمشة الرقيقة والمخمل والانسجة الناعمة المطرزة أو المصنوعة من الحرير الخاص خرجت من مصانع فارس وبغداد ودمشق وآسيا الصغرى . ونجد في مصر الصناع القبط قد احتفظوا لقاء أجور متواضعة بتقاليد الفراعنة في صناعة الحرير . وكانت المراكز

الرئيسية للانتاج تنيس ودمياط والاسكندرية ودبيب وغيرها . وكان الطراز يصنع في هذه الانحاء ؛ والطراز أو التطريز أطلق على الاقمشة ذات الخطوط المطرزة التي تزين الثياب في بلاط الامراء . وهذه التطريزات كحواشي أو خطوط على الكتفين وغيرها تحمل اسم الخليفة . واذا تذكرنا ان اعظم علامة للتقدير يمنحها الخليفة لاحد رعاياه هي ان يخلع رداءه ويضعه على كتفي هذا الشخص الذي يريد تشريفه ، فسنعلم ان الخلع التي وزعت كجوائز او كهدايا للرعية كانت مزينة بهذا التطريز . وهذه العادة اقتبسها جميع ممثلي الخليفة الذي كانوا ، خلال العهد العباسي مثلا ، يطلب اليهم أن يلبسوا ثيابا رسمية ذات أشرطة مطرزة قليلا او كثيراً . وبالنتيجة أصبحت صناعتها مهمة معتبرة ، لكنها كانت ذات صبغة رسمية لان تلك الخلع المطرزة لم تكن من بضائع التجارة . وصنعت الخلع في مصانع الخليفة او تحت اشراف موظفيه ، ويجمعها هؤلاء ثم تحمل الى البلاط . ووضعت فارس على أردية ملوكها أوسمة مطرزة وكان لاعضاء مجلس الشيوخ والفرسان في روما على أرديتهم أوسمة أرجوانية ، وظهرت هذه مرة أخرى في بيزنطية وما زالت الى اليوم في بعض انواع الملابس الغربية . أما الانسجة الاخرى ، وهي منتوجات المصانع العائلية فيجب أن تمر بيد وكلاء يختمون بالات القماش وتمر من ثمة من يد وسيط الى آخر دون ان تفتح ، وقضى التلاعب الكثير على هذا النوع من الائتمان . أما أجور الصناع فقد كانت زهيدة لكن الرسوم العالية جعلت الاقمشة مرتفعة الثمن .

في كل فروع الصناعة ، تحول الانتاج يوما بعد يوم ، على

الرغم من اننا لا نعرف من اثاره الا القليل ، الى نماذج بارعة ، ما زال بعضها يعيش الى اليوم : ونحن نعرف كيف كانت صناعة السجاد في الشرق وكيف كان بامكانها أن تكون . وتحوي المجموعات الاثرية العالمية نماذج عديدة من أواني الخزف للاستعمال المنزلي ، ومن النحاس والزجاج والادوات الكمالية الصغيرة ، ومناضد الكتابة ، والصناديق على مختلف أنواعها ، مطعمة بالحجارة الكريمة والفضة والعاج ونشطت صناعة الجلود كالوسائد والسروج وغيرها أما النجارة التي منحتنا نماذج من المنابر غاية في الاتقان ، فقد انتعشت كذلك . ونجد ان أوراق البردى التى حلت فى القرن ٩م محل الجلود ، أفسحت المجال بدورها بعد مضي قرن للورق الذي جاء أول الامر من الصين عن طريق سمرقند ثم انتج في سورية منذ القرن (١٠ م = ٤ هـ) . وفى نفس الفترة كانت فارس ووادي الرافدين يصنعان العطور التى استوردها التجار سابقا من الخارج . وقد بحث التجار عن العطور في كل مكان حتى ان العقيدة شجعت المؤمنين على استعمالها حين ذكرتهم بان الرسول كان يحب العطور .

نظمت الشريعة الاسلامية المعاملات المالية التى نتجت عن هذا النشاط الصناعي والتجاري ، لكن بطريقة ثابتة وغير تفصيلية : الا ان العادات المحلية تكاملت مع الشريعة واغنتها . ولم يعن القرآن بالعقود الخاصة بالاراضي ، بل عني بالعقود التى ابرمت لتنظيم الحياة الاقتصادية « لجمهورية مكة التجارية » : البيع ، الايجار الودائع ، الاجور ، الفائدة ، المبادلة .

اهتم الدين بصورة خاصة بالشروط التى تتحكم بالمبيعات ، معتبراً عقد البيع هو النموذج . أما المشاكل التفصيلية فحلت بطرق كثيرة

مختلفة تتباين حسب المذاهب الفقهية ، وكان التباين حتى في تلك الامور المهمة الخاصة بطبيعة الشيء المباع وتحديد نوعه بدقـة . وقد اعير اهتمام كبير الى الشهادة اللفظية كحجة ، في حين اختلفوا على أهمية تدوين المعاملة . ان موافقة الطرفين يجب ان توضح بقول صيغة تبقت من اثر قديم خاص بالتعوذ من الشر ، وهـذا القول هو أول شرط لقانونية العقد . وتنتهي عملية البيع ، حين يتصافح المشترى ، والبائع باليد اليمنى متبادلين الايجاب والقبول: « هل تشتري هـذا مني ؟ ـ أجل ، اشتريه » او بعبارة أخرى مماثلة « هل تبيعني هذا ؟ ـ أجل ، أبيعه لك » . أما الشرط الثاني للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً ؛ فالقانون يحرم بيع شيء لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر ، ولا يمكن أن يبيع الشخص حيوانا ضارياً ليس منه فائدة ، ولا الاشياء عديمة القيمة الاجتماعية كالآلات الموسيقية وأدوات اللعب ، ولا الاشياء غـير الطاهرة كالخنزير أو النبيذ ، لكن هذا التحريم الاخير لا ينطبق على الذمى أو الاجنبي المستأمن . وهناك عدم اتفاق على قيمة التملك وبالتالي حصل خلاف على بيع كلب حراسة او كومة سماد ، ويسمح بصورة عامة ببيع القرآن ، لان ما يبتاعه المشترى هـو الورق الذي كتب عليه والجلد الذي يضمه . ويتم البيع بتسليم البضاعة ودفع السعر ، وللمشترى حق الخيار .

إن الرهون والودائع هى من العقود الهامة فى مجتمع يقيم فيه التجار مدة طويلة بعيداً عن وطنهم . ان الرهن يكفل دين المسافر الذي يبقى الدائن مدة طويلة لا يعرف عن أخباره شيئا . بينما عقد الوديعة يحمي تلك البضائع التي لا يستطيع المودع أن يحملها معه ، أو التى

لا تكون أمينة في مخزنه الخاص ، والشخص الذي يتسلمها ، بمحافظته عليها باخلاص ، يقوم بعمل من أعمال التقوى ، سيثاب عليه في الحياة الاخرى . ويقبل كلامه حين يؤكد بأنه سيعيد الامانة .

وتزخر كتب الادب بوصف خائني الامانة . وهي مليئة بقصص الحيوانات الضالة التي يعثر عليها وهذا هو الموضوع المزمن المألوف في مناطق الرعي . والمالك يدين بجائزة وهبة للشخص الذي يعيد اليه جمله الضال ، حتى وان كان الشخص لا يتخذ من هـذا العمل مهنة له .

يحرم الاسلام التسليف بفائدة . وقد حرم القرآن الربا ، (٢٧٦،٢) كرد فعل ضد أخذ الفائدة التي سادت بين قريش ، الذين اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفائدته ، منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ المطلوب . إننا لا نعرف ما هي الظروف التي حدت بالرسول الذي تمثله لنا الاخبار كتاجر قديم ، الى تحريم أي نوع من التسليف بفائدة بصورة كلية ، والاخذ بتنظيم مقايضة المعادن الثمينة والادوات ذات القيمة تنظيما دقيقا : وكان هذا التحريم وما زال عبئا ثقيلا على المعاملات المتبادلة بين المسلمين . والعقيدة موافقة لبعض الاحاديث مع شيء من التباين في التفاصيل ، لا تسمح إلا بتبادل كميتين لهما قيمـة متساوية من أشياء يسمح بها القانون ، ويلزم ان تحصل المقايضة حالا وليس لاجل . ومن ناحية اخرى لا يسمح القانون للدائن بأن يجني أي ربح من دينه . لان الدين بدون فائدة عمل ديني سمح به سيثاب عليه في الحياة المقبلة .

هكذا نجد من الطريف أن نلاحظ بأنه في نفس هـــذا المجتمع الذي طبقت فيه هذه المجموعة من القواعد نمت في القرنين ٩ و ١٠ م

نظم الصيرفة والعـادات التجارية التي اقتبستها اوربا بعدئذ والتي تتناقض شكلا مع الشرع القرآني . من هنا وجب اللجوء عند الضرورة الى الحيل الشرعية ، مثال ذلك البيع المزدوج ، فالمستدين يبيع قطعة من القماش الى الدائن ويتسلم السعر نقداً ، لكنه كان سابقا قد اشتراها من الدائن بسعر أعلى لكن لأجل ، هذا هو عقد المخاطرة الذي دعته اوربا في العصور الوسطى باسم المهاترة ، والذي سمح به الدين الاسلامي . في ممارسة الصيرفة عمليا ، استفاد الصيارفة اليهود والنصارى من تحريم القرآن لها فمارسوها وركزوا أعمالهم في بغداد ، في حين سيطر التجار النصارى على جميع التجارة الخارجية . ان الكمبيالة والسند تحت الاذن ، وكلاهما لم يقبل بهما الدين ، كانا منتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى أقصاه .

أدت مقايضة المعادن الثمينة الى معاملات مستمرة . وكانت العملة في الايام الاولى للاسلام من الذهب في الغرب في الولايات البيزنطية — الدينار — ومن الفضة في الشرق في الولايات الفارسية — الدرهم — : وفي القرن (١٠ م = ٤ هـ) تنافست العملتان وسارتا جنبا الى جنب في بغداد . من هذا نتجت معاملات تبادل مستمرة بتدخل عملة ذات قاعدة معدنية . وحين ضرب الخلفاء عملات ذات قيم متعددة انغمرت الاسواق بقطع نقدية ذات اصول وقيم مختلفة كان على الصرافين الموازنة بينها تحت اشراف المحتسب . ومن ناحية أخرى أعار الصيارفة اليهود والنصارى مبالغ كبيرة الى الدولة والتجار ، وتعاملوا بالنقود ، كما اشتغل الاغريق بأعمال النقود ولم ينضم اليهم الارمن إلا في العهد التركي .

المصادر

Plessner, suq, E. I; Grohmann, tiraz, E. I., Schaht riba, E. I., Juynboll, Handbuck.

الفصل الثالث عشر

الحياة العقلية

الشعر والفن الاموبان . القرن الثالث العباسي : النثر ، الشعر ، الفن . القرن الرابع : النثر الفني ، المعرفة ، الفن . الانحلال . النهضة الحديثة . ايران وتركية . الفلسفة والعلم .

—— :0: ——

عني الفصل الثاني من هذا الكتاب باعطاء نظرة شاملة عن تاريخ المجتمع الاسلامي ، كمقدمة لدراسة النظم . ويعمل هذا الفصل على استعادة نفس الرحلة عبر القرون وذلك لوضع الادب والفن في مكانهما المناسب في تاريخ النظم الاسلامية .

ان الحقائق الدينية تسود بصورة مستمرة المجتمع الاسلامي حيث يختلط ما هو روحي بما هو زمني . وفي كل حالة نستطيع الرجوع الى القرآن لا لأن الادب والفن يقتبسان ويستوحيان منه فحسب ، وانما لان صورة الاسلوب القرآني نفسه ، ومفرداته واوزانه ، هي التي تسيطر بالذات على صور التعبير عن الفكر والحس الاسلاميين . وبينما يحتفظ الشعر بنماذج الشعر الجاهلي البدوي ،

فظل وثنياً ، وكان من الصعوبة بمكان كبير ان يتخلص من ذلك ، ويجد له اطاراً جديداً ، ومصادر مستحدثة للالهام ، نشاهد على العكس ان النثر نشأ نشأة قرآنيـة ناسجاً على منوال الكتاب المقدس . وقد لاءمت الاوزان القرآنية الذوق الطبيعي للنفس العربية ذلك الذوق الذي يميل الى التوازن والتوازي بين الافكار والثراء اللفظي والتقابل بين النظريات او دحض بعضها للآخر ، هـذا الذوق كان مستعداً على الدوام لتقبل الازدواج في العبارات الذي نشاهـده في النثر المسجوع كما لو كان هذا الازدواج شطرين لبيت شعري . هذه الاوزان عينها نقابلها كذلك في الموسيقى العربيـة ونجدها تسيطر على الزخرف العربي في لحن موسيقي يتجزأ ثم يتجمع فيأتلف ثانية ، كل ذلك في صورة نماذج متناظرة ومعقدة معاً .

لقد ارجع ذوو اللجاجة من علماء اوربا النشيطة في القرن التاسع عشر الفقر الروحي الذي ساد المجتمع الاسلامي انذاك الى ما في الدين الاسلامي نفسه من عوامل تأخير .

يمكننا قبل كل شيء ان نجيب على امثال هذه القضايا بانه من البساطة والسذاجة ارجاع الضعف الذي يصيب اية طائفة اجتماعية الى نظمها وبصورة خاصة الى دينها اعتقاداً بان الدين قوة مستقلة عن المجتمع نفسه . انه لمن الخطل التفكير كذلك الا اذا نظرنا الى الدين على انه وحي وناموس شرعته الالوهية لخلقها كتعويض لحماية الاله للناس ، فيخضع هؤلاء للناموس الالهي دون جدال وفي بعض الاحيان دون فهم واحاطة . في حين انا اذا توقعنا ان يكون الدين مجرد ظاهرة اجتماعية يشغل ببساطة المكانة الاولى بين النظم البشرية ، عندها نستطيع التفكير بان اي شعب جدير

بالدين والنظم التي لديه ، وسواء نشأت هذه النظم وذلك الدين بمحض ارادته ، او تقبلها من لدن شعب آخر عن طريق الدعوة السلمية او الحرب ، فانه لا يقضي عليه بالفناء ما دام قادراً على الاستجابة بصورة ملائمة لاحتمالات التاريخ وأحداث ـ الايام ان الحياة هي كفاح مستمر ، عند الشعوب والافراد على السواء ، ضد العوامل المدمرة التي يعلنها الماضي أو الطبيعة عليهم . ولئن انكرنا على الفرد او الجماعة ما عندها من قوة ارادة ايجابية فستظهر الحياة الانسانية وكأنها محكومة بجبرية مطلقة تجعل اية جهود عبثا وباطلا ، وهذا من شأنه تقريب ساعة الفناء .

هكذا لا يمكننا التفكير بان الدين الاسلامي كان العلة الاساسية لضعف المجتمع الاسلامي : انه لم يعترض على الاقل لفترة دامت عدة قرون حيوية الادب والعلم والفن ، وهذا ما سنلقي عليه نظرة عجلى فيما يأتي .

يتكشف تاريخ الحياة العقلية والفنية للاسلام ، كما تتكشف نظمه ، بابتداء عصر الخلافة الاموية ، ذلك العصر الذي لا نعلم عنه بعد القدر الكافي ، على الرغم من ثراء أوجه نشاطه المختلفة ونزعاته . أما الشعر فكان بدويا صرفا وشبيها بالشعر الجاهلي الى درجة امكن معها القول في هذا العصر بان الشعرين الجاهلي والاموي متعاصران . وقد ضعف اثر العامل الديني على الشعر بحيث تكفي لمسات قليلة لرد هذا الشعر الى الجاهلية . وقد ركز البلاط الاموي اهتمامه [من ناحية الشعر] على الحب والغزل . ومن الجدير بالملاحظة ان هذا الشعر المعاصر للفتوحات او الذي يعقبها مباشرة لم يعكس شيئا منها كما ينعدم فيه عنصر الملحمة بالمرة . والاله الذي امر بالجهاد

اردري الشعراء ومن هنا تجاهل هؤلاء فيما يظهر انتصاراته على غير المسلمين . أما النثر الاموي فليس لدينا منه سوى مقتطفات غير مباشرة وجميعها مطبوع بطابع الدين واتجاهه . وفي هـذا العصر تثبت الحديث ، ويبدو ان المحاولات الحاذقة الحية لجمعه في ايام الامويين تشير بصورة واضحة الى سير الكتاب العباسيين بعد ذلك في نفس السبيل لجمعه وتدقيقه .

وخطب الجمعة التي لمست احيانا أمورا غير دينية بالمرة ، كان الرؤساء أو الولاة يلقونها على المؤمنين ويرتفعون بها الى مستوى البلاغة المطلوبة انذاك باستعمال النثر المسجوع ، الذي برز فيه القرآن واظهر قيمته . وكانت لغة الحديث وخطب الجمعة الى هذا العهد [الاموي] من الخضوع لاشكال لغوية ثابتة محدودة الى درجة انها لم تكن صالحة لتخدم كاداة للفكر المجرد المسلسل .

وبينما تحاول اللغة كبقية المبادىء والنظم ان ترفع رأسها وتهدم الجدار الذي يحيط بها ، نشاهد ان الفن قد ظهر منذ أول الامر في شكل كامل . هذا ما يدفعنا الى القول بان حاجات العبادة كانت تتطلب من العمل اكثر من حاجات العقيدة ، وان الاسلام شاد المساجد قبل أن تكون لديه فلسفة دينية او تشريع : وهذا أمر ليس بالغريب . ولعل الفاتحين من المؤمنين الشديدي الاعجاب بفخامة الكنائس النصرانية ، قد أرادوا ان يظهروا قدرتهم على ان في امكانهم ان يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لا تقل جمالا عن كنائسهم . ولم يبن الامويون مساجد فحسب ، وانما شادوا القصور ليتمتعوا فيها بنصيبهم الكبير من متع الحياة ؛ وقد شيدت هذه القصور متاخمة للصحراء ، وهي في صورة قلاع محاطة باراض مزروعة تزين

اكثر اجزائها أروع فنون الزينة التي لم تهمل في نفس الوقت اظهار الصور البشرية . وفى المدائن الكبيرة كالقدس ودمشق والمدينة وكعبة مكة الهس الامويون وبصورة خاصة الوليد (٧٠٥ - ٧١٥م = ٨٦ - ٩٦ هـ) المساجد نموذجا سوريا - بيزنطيا أصيلا جدا يلائم تمام الملائمة زخرفة الرخام الملون والفسيفساء المذهبة المحببة لدى الفنانين البيزنطيين . ويبدو ان حماس الفاتحين قد وجد التعبير عن نفسه في هذا المجال ؛ الا ان الذي قام باعمال البناء هم المعماريون السوريون الذين كيفوا لعبقريتهم الخاصة التقاليد البيزنطية المأثورة .

يؤلف القرن الاول من الخلافة العباسية العصر الزاهر للادب العربي ؛ ولم تعمل العصور التالية أكثر من التطور بما أبدعه هذا القرن الاول ، وكما نشأ الفكر والفن فى ظل العهد الاموي عن طريق احتكاك العرب بالحضارة البيزنطية ، كذلك نشاهد ان امتزاج الشعوب والحضارات أدى في عدة عقود من السنين الى دفعة عظمى من التقدم بتأثير الروح الايرانية والهيلينية . ونظمت اللغة في شكل دقيق جعلها تخدم بسهولة التعبير عن الفكر المجرد ، وقد أدى الى هذا التغيير في اللغة تلك الترجمات الفهلوية (ابن المقفع) والترجمات الاخرى عن السريانية ، وهذه الاخيرة قد نقلت عن اصول يونانية ، وهكذا تغيرت اللغة العربية بفعل هذه الظروف الضرورية التي طرأت على الجماعة الاسلامية . أما صور الجدل الديني والاختلافات الدينية التي ظهرت فى المؤلفات أو في أحاديث أصحابها فقد بحثت عن الحجج التي تدعم اختلافاتها عن بعضها في القرآن والسنة ؛ في حين ان النحاة اقتبسوا أصول قواعدهم من صور الاستدلال الجدلي التي ظهرت في « الكلام » عند فلاسفة الدين والفقهاء الذين ورثوا

صور الاستدلال هذه من اليونانيين ؛ هكذا صار النحو بوصفه مساعداً على التفسير القرآني علما ظهر في البصرة والكوفة ثم في بغداد ، ولا تزال مؤلفات علم النحو حتى اليوم واضحة في التعبير عن قيمة ما أصابه من رقي . بهذا الشكل تيسرت اللغة لنوع من النثر المعبر عن مقالات أدبية وكتب قصيرة في النقد وعن نوع من الاستطلاع العلمي المزيف واظهار الاعتراض و الموافقة على وقائع تاريخية ليست معروفة جيداً ؛ وبعض هذه المقالات قد جمع في مجلدات ضخمة ان قبلناها واستحسناها فانا على اية حال لا ننكر ما فيها من عدم التجانس . وكتاب « الحيوان » الجذاب للجاحظ ككتابه الآخر « البيان والتبيين » من حيث انه مجموعة مقالات او فصول يظهر فيه بصورة حية مصفاة الذوق العربي الميال الى الوقائع المنفرقة مروية بشكل مشرق وموضوعة في قصة لمحاولة جعل الناس يفهمون ويولعون بافكار دقيقة او عميقة ، مع انهم كانوا آنذاك بعيدين عن ما في التفكير الفلسفي او الاخلاقي من استقصاء . وكتب مثل « عيون الاخبار » لابن قتيبة هي مؤلفات في الاخلاق العملية . وقد بدىء في هذا العهد ، على الرغم من النقص الكبير الحاصل في التعليم الشفوي ، بتهذيب سكرتارية دوائر الخلافة (الكتاب) الذين وضعت لهم حتى القرن الخامس عشر للميلاد مؤلفات أوجز فيها العلم المعروف في ذلك الزمن .

ولقد أضافت مؤثرات غريبة إلى مصدر هذا الادب كل جديد، ذلك إن الدين البحت هو عماد العلم الذي وجد أداته الضرورية للتعبير في ذلك النثر المولود حديثاً : المتمثل في الاحاديث المجموعة والتفاسير التي شرح بها القرآن وكتب الفقه والفصول الجدلية ، كل هذه

اتخذت مظهراً أدبياً ساعد على نشرها بين أناس طالما ولعوا بحسن اللغة .

أما التاريخ فيبدو في جزئه الاكبر بوصفه علماً مساعداً على شرح القرآن والحديث فجمع بين سير الانبياء ، وقصص الفتوحات وتراجم الصحابة ، وأخذ علم التاريخ بمحاكاة النموذج الفارسي مظهر الشمول فعمل على رواية تاريخ العالم خادماً بذلك السنة النبوية ومحتفظاً بالمظهر الخارجي للحديث . ورغبة في ضبط شروط الجباية والرسوم وتنظيم طرق البريد الخليفية ، ظهرت الحاجة الى معلومات جغرافية رتبت في العهد التالي بحسب التراث الذي قدمه بطليموس ، وكان نسيج هـذه المعلومات مشاهدات المسافرين . هكذا نشأت الفلسفة العربية على هامش الاسلام .

في هذه الفترة الممرعة للادب العربي ، كان للشعر نصيب وافر إذ أخذ الشعر الحي يجفو الاساليب التقليدية عند البدو والامويين . لأنه في مجتمع مهذب وعنيف كالمجتمع الذي ظهر في القرنين العباسيين الذهبيين ، يكون الحكم في الحياة للمتعة الحسية التي عبرت عن نفسها بأحسن صورة عند أبي نؤاس ومن سار على نهجـه ؛ كما انتشرت مقطوعات قصيرة من الشعر الذي ينقد ما في اخلاق الناس من شرور وظهرت هذه المقطوعات في مظاهر عنيفة وخشنة واستمرت مشيرة الى جوانب الثورة المنظمة للحياة الاجتماعية . في كل هـذا نجد ان الامور تسير لا على النهج الديني وإنما على حدة . وصدرت عند بعض النفوس الرفيعة كأبي العتاهية أقوال في الشعر جارحة وصمتها السلطة الدينية بوصمة الزندقة . وأخيراً نشأ نوع من الشعر الصوفي المعبر عن الحب الالهي في صور من الحب الانساني أو الارضي ، وانه لما

يبعث على الاضطراب والانزعاج بعض الشيء أن يبرع في هذا جيداً شاعر كأبي نؤاس الفاجر في كل شيء . هكذا مات الشعر القديم فعلا ، وان بقي محتفظا بهيبة قدمه وصار الاعجاب به يزداد يوما بعد يوم : وأفاد من المعركة التي نشأت بين المخلصين للعربية بصورة مطلقة وبين أولئك الذين يريدون أن يضعوا في الصف الاول من المجتمع الاسلامي أولئك المتحولين الجدد الى الاسلام ، لاسيما الايرانيين منهم ، وهذه هي الشعوبية . ومن ناحية أخرى كان الشعر الوثني الذي لعنه كل من القرآن والرسول من حيث انه جعل مثال الانسان الاعلى « المروءة » لا « الدين » هذا الشعر نفسه سرعان ما أصبح عونا على تفسير بعض أجزاء من القرآن والحديث للمؤمنين من أبناء القرن الثالث الهجري ، إلا أن هذه الاجزاء لم يكن يفهمها الشارحون إلا بصعوبة ولايضاح القياس أو صلة المماثلة لم يتيسر للفرد غير تلك الامثلة المستقاة من الشعراء القدامى ، وكنتيجة لهذا الانكباب على هذه الامثلة أدخلت أشعار الشعراء بطريقة غاية فى الغرابة فى تفاسير القرآن .

أما فن العمارة ، فقد احيا السنن الاموية ، ولكن باتجاه يلائم مأثورات ما بين النهرين (مثال ذلك سامراء) . وقد شيدت الابنية في بقاع ليس فيها حجر ، لذا استفيد من اللبن الهش وهي طريقة الآشوريين والبابليين ، فكان نصيب هذه الابنية عدم قدرتها على البقاء . ومن دون ريب كانت القصور أماكن هشة مثال ذلك قصر التاج ببغداد ، أو كانت كسرادقات خفيفة مقامة هنا وهناك بين الرياض تمثل زينتها الفاخرة أهم عنصر فى جمالها . أما تذوق الموسيقى والغناء فكان امراً عاما شاملا على الرغم مما وصمعها

به العقيدة ، هكذا عرفت آلات العود والقيثار والعود الكبير والسنطير والمزمار والبوق والطبل والمزهر وفي القرن ٤ ه كان للامراء نوبات تضرب أمام بيوتهم عدة مرات في اليوم ، وانتقلت العادة الى المماليك والى العثمانيين ، ووصلت عن هذا الطريق دون شك الى اوربا .

إن عهد الدولة العباسية الممتد بين القرنين (١٠ - ١٣م = ٤ - ٧ ه) ، كان لا يزال غزير الثراء في النتاج العقلي ، وهو عهد اضطرابات خطيرة في مجالي الدين والسياسة ، وبلغ ضعف الخلفاء في هذه الفترة حد التطرف لكن الحياة الاقتصادية نشطت في هذه الاثناء الى ابعد الحدود ، وكان مجتمع المدن ، وهو الذي بلغ فيه التجار غاية العظمة ، قد ساهم في امور العقل وأولع بها . وبدل أن يقترب الادب من الحياة نراه يهجر النثر القوي الذي وجدناه عند كتاب العهد الفائت واصبح مجرد زينة وصنعة . استعمل الكتاب الاوائل السجع لمجرد إعطاء أفكارهم توافقا وانسجاما وبذلك ارتفعت قيمة هذه الافكار . ان النثر الموزون المسجوع لسور العهد الأول في القرآن قد استعيد في تأليف الخطبة الدينية ، وعزز هذا النثر في المراسلات التي كان يرسلها ديوان الخليفة . وأصبح نفس هذا النثر في القرن الرابع الهجري الشكل المعتاد للنثر الفني ، واعطاه اسلوبا يقوم جماله دائما في زهائه وتعلقه بالطباق والجناس . وما عدا تلك التوافه الادبية المقبولة كمقامات الهمداني (ت - ١٠٠٧ م = ٣٩٨ ه) والحريري (ت - ١١٢٢ = ٤١٣ ه) فان النثر الفني للقرن الرابع لم يخرج لنا إلا أدبا ثريا في مبناه فارغا في معناه . هكذا أمكن الوصول الى قمة الفن بنثر كان غاية في ذاته ، ولم يكن ليكلف نفسه عشاق التعبير عن آية أفكار .

استمر النثر العادي كوسط لكثير من الادب الرفيع الذي لم يتخل عن جمال الشكل القديم غالبا . وفي تلك القرون تابع العلماء بنشاط كبير الدراسات الدينية ، وهي القرون التي سادت فيها الشعبية وقد أحيا الغزالي (ت . ١١١١ م = ٤٠٢ هـ) الدراسات الدينية ، وهو الذي أحاط بعلوم زمانه كلها ، ويعتبر من خير الكتاب الذين عرفهم الادب العربي . وهو أول من استعمل الفارسية والعربية في الكتابة ، وبذا ضمن تقدم الفكر الاسلامي في ايران . وحياة المغامرات التى عاشها التجار أضافت شيئا الى الثروة والأخبار المحتواة فى في ما كتبه « واصفوا البلدان » والذين كانوا هم أنفسهم من السائحين . والجغرافية « البشرية » ، التى يبدو أنها ابتداع حديث ، عرفها العرب ، كما عرفها الاغريق من قبلهم . وأحس المجتمع العربي باستطلاع حي دفعه إلى معرفة الاشياء الغريبة والاجنبية وتطلب اعاجيب البلاد البعيدة . وشغل المؤرخون أنفسهم بالاضافة الى ما ذكرنا ، بالتحقيقات الفردية عن حياة الامراء ، والقبائل والمدن ، كما اهتموا بطبقات الشعراء والنحاة والفقهاء ، وذلك حسب قاعدة اقتبسوها من اعلامهم الذين سبقوهم .

وظل الشعر يحتل مكانة مشرفة ، وذلك لان الناس جميعا استمروا على نظمه ، وما كنا لنجد أية مزايا جديدة فيه ، لو لم يظهر شاعران حقيقيان هما : أبو فراس والمتنبي في القرن الرابع هـ في ذلك الوسط الغريب لدى الامراء الحمدانيين فى حلب . ولفترة من الزمن ، وفي ذلك الخضم البليغ الاضطراب الذي وقعت فيه الخلافة دفعت الظروف جماعة من البدو ، كانوا أفراداً مغامرين غلاظا خبثاء معاً . هؤلاء أنفسهم قدر لهم أن يدافعوا عن الاسلام والعروبة ضد

امبراطور القسطنطينية . هكذا نجد في وقت هبطت فيه قوة الخلافة الى أسفل دركاتهـا ، ولد شاعر في الكوفة ، وبعد مغامرات بدوية منحته لقب المتنبي ، وبسخرية من القدر ، جاء الى بلاط حلب حيث القى ما قدر له من توفيق . وقد وهب نبوغا ليس له ند في استعمال الالفاظ والمهارة في تبديلها حسب المراد ، وكانت له سلطة عليا على أوزان غنية ومتنوعة ، وقد استطاع بفضل عواصف الغارات البيزنطية أن ينشر على قصائده ريحا ملحمية . ومع انه صهر شعره في بوتقة القوالب البدوية القديمة ، التي يحتل فيها المكان الاسمى مديح الحامي الكريم ، مهما كان لئيما سافلا ، فقد استطاع أن يتغنى بذينك العجب والافتخار اللذين كانا للمروة البدوية في الفاظ خصبة مصقولة ، في الوزن والقافية . والى هذه الاصالة المزدوجة في الموضوع والشكل يدين المتنبي بمجده الباقي ومكانته كشاعر لقومية حديثة .

إن الحروب الصليبية لا نجدها إلا في كتابات المؤرخين ، الذين كتب بعضهم في أسلوب عصري . ولم يكن لهذه الحروب من تأثير على الحياة الدينية إلا من حيث انها اعطت نور الدين وصلاح الدين حجة لحشد جموع الشرق الادنى تحت لوائهما لفرض اعلان الجهاد . ومع هذا فمن المناسب أن نعترف بأن هناك آثاراً لذلك في المؤلفات الشعبية التي عدمت المؤلفين والتواريخ ، والتي يمكن أن نعزوها الى القرن (١٣ م ـ ٧ هـ) من أمثال الف ليلة وليلة ، وقصة عنتر وقصة على وغارات بني هلال . في هذه المؤلفات يمكننا أن نجد ملامح تشير الى الصليبيين وإن كان أساس هذه الكتابات غريبا في هذا المجال ، وجاء بعضها من الغارات البيزنطية .

أما اذا نظرنا في عمارات سورية ومصر ، فعلينا أن نبحث

عن الاقتباسات المتبادلة الخاصة ببناء القلاع . ونجد في مساجد الشرق الزخارف كثيرة جداً ، كما هو الحال في النثر المسجوع فى الأدب ، ويعيد المرابطون والموحدون فى مراكش الى الذهن الاسلام في نقائه القديم ، هكذا أعادوا فن المساجد الى بساطة منسجمة فى بنائه وزخرفته . وهذا ايضا هو العصر الذي انتج فيه الفن الفارسي والفن الهندي - الاسلامي اثاراً معقدة ، كانت غالبا ذات روعة ، حسب النموذج الشائع للآثار الاسلامية ، تلك الاعمال التي تدين بجمالها للتراث المحلي والعبقرية الخاصة للمعماريين الذين انتجوها .

ان تحريم انتاج مشابهات للكائنات الحية ، الذى قرره الحديث في عصر الكفاح البيزنطي ضد الصور ، قد خرق باستمرار ، الا في المساجد . وكان لقصور الامويين تصاوير وتماثيل للاشخاص كما كان للحمامات في القرن (١١ م = ٥ هـ) تماثيلها وتصاويرها الشهوانية ، التي عاش قسم منها طويلا . وقد افرطت السجاجيد والمعلقات في تمثيل الحيوانات ومناظر من الحياة العائلية ، كذلك غطيت الاباريق والاصص والصواني والصناديق الصغيرة بنفس هذه الصور ، وبصور الناس كذلك . ويقال ان الخليفة الاموي في الاندلس قد أمر بنحت تمثال نصفي لحبيبته الزهراء على باب قصره في مدينة الزهراء . وكان الفقهاء والروح التقليدية المحبة « للمدارس » سببا في فرض التحريم بدقة الذي أمكنه ان يطبق في مجال الابنية الدينية فحسب .

ومنذ القرون ١٣ — ١٩ م كان الادب العربي بالمعنى الصحيح تقليداً خالصا وخاليا من أية طرافة . وما زال نظم الشعر سائداً ؛

واستعملت قوافيه واوزانه نفسها في نظم القصائد التعليمية في مدح النبي كبردة الشيخ البوصيري ، وفي تأليف الوصايا الخاصة براكبي السفن ، وكتب النحو ، ووضع قواعد الشطرنج الخ وقد انتجت الثقافة كذلك بعض مؤلفات نافعة ذات مكانة : فنجد لمصر في زمن المماليك انتاجا مهما في كتب التاريخ ، أما مقدمة ابن خلدون فمؤلف ذو قيمة بالغة . وفي حقل الجدل الديني نجد ابن تيميـة شخصية أصيلة وذات اثر .

ان هذا العهد الطويل الذي كانت اصالة الادب ابانه ضعيفة الى هذا الحد ، قد ترك على العكس عمارات لا تشهد ببقاء انبل جوانب التراث الاسلامي فحسب ، بل وبوجود افكار جديدة في فن العمارة كذلك . وقد خلف الايوبيون والمماليك والفرس والسلاجقة والعثمانيون والمرابطون والموحدون والمروانيون وبنو نصر أضرحة جميلة ومساجد وقلاعا وقصوراً . أما الفنون الفرعية فقد طبقت في أغراض مختلفة واسعة النطاق ، وقد سمح قربها الزمني نسبيا ببقاء عدد كبير منها .

شهد القرن ١٩ م أحياء الأدب العربي وموت الفن الاسلامي .

ان الأدب الجديد الذي كتب بالعربيـة يجاهد في ان يعبر عن العواطف والافكار التي كانت تختلج في أذهان المسلمين منذ قرن ، ولا سيما خلال نصف القرن الاخير ، وقد أعاق نموه التام غزارته وعدم كفاية أساليبه في التعبير . ويلاحظ انه في القرن الثاني للهجرة أحس المسلمون بحاجتهم الى نثر يلائم التعبير عن أفكار كانت طريفة جداً بالنسبة للفاتحين العرب ، ولم يجدوا في الشعر ولا القرآن ولا الخطب الدينية ولا الاحاديث اليومية ، الاداة التي تلبي

حاجاتهم . وقد أنجحت جهود المترجمين نثراً غزيراً ، كان جميلا وواضحا وقد زاد في اكتماله بعض الكتاب النابغين . أما في القرن ١٩ م ، فلم توجد حاجة الى خلق نثر جديد ، إنما شعر الناس بوجوب تحرير ما عندهم من نثر وتخليصه من النثر الفني ، ومن السفاسف التي أثقلته منذ القرن ٤ هـ ، وهو نثر أمكن لبعض الكتاب الفكهين من استعماله لغرض التسلية ، لكن استعماله للاغراض الجدية كان مضحكا .

وكانت المشكلة الرجوع الى مدرسة النثر السهل للكتاب الكبار في القرن ٣ هـ ، وفي نفس الوقت هدفت المشكلة أيضا الى ترجمة الكتب الاوربية والاقتباس منها ، وانعاش لغة الكتاب بالتعبير الحي المتغير الذي نقابله في الشارع والحقل . ويفتقر النثر العربي الى الآن الى ذلك الكاتب الكبير الذي يمكنه أن يفرض أسلوبه ويكمل دفعة واحدة الواجب الثقيل جداً الذي أخذه المجمع اللغوي في القاهرة على عاتقه . وهذا الاخير اهتم قبل كل شيء بمجموعة المصطلحات الفنية ، وليس هذا دون مبرر ، لا سيما وان الكتب العلمية قد سادها جو من الخلط شنيع .

إن الكتابة العربية قاصرة . وهي تعتمد كبقية الكتابات السامية على الاهمية الاساسية التي للاحرف الساكنة ، اما أحرف العلة فهي بصورة خاصة عوامل اشتقاق وتغيرات اللفظ . هكذا لم تكتب العربية أولا غير الاحرف الساكنة ؛ بعدها عند أواخر القرن الثاني هـ في نفس العصر الذي خضعت فيه الكتابة العبرية للاصلاح الماسوري ؛ ادخلت الكتابة العربية ، في صورة اشارات صغيرة موضوعة فوق الاحرف الساكنة أو تحتها ، مجموعة ناقصة من ثلاثة أحرف علة مجملة هي الفتحة والكسرة والضمة ، وقد قابلت هذه ثلاثة أحرف علة طويلة

هي الألف والياء والواو . ومن المشكوك فيه كثيراً أن تكون الاشارات قد وفت بكل أصوات اللغة : وهي اليوم قاصرة قصوراً واضحا. بالاضافة الى ماتقدم ، الفى المثقفون ان معرفة نظام احرف "علة مستخلص الى حد كبير من قواعد اللغة ، لذا اعتقدوا ان من دواعي فخرهم اهمال هذا النظام في كتاباتهم اليدوية ، مع العلم أنه تكون بصورة دقيقة في الكتب المطبوعة على الاخص . والعربي لا يحاول اعاقة كتاباته اليدوية بالحركات ووضعها فوق الاحرف أو تحتها الا حين يريد أن يثبت نصاً قرآنيا غير القابل بطبيعته لأي تحوير أو تغيير أو أن يؤكد المعنى الدقيق لبيت من الشعر أو لقطعة نثرية صعبة على الفهم ، أو في النهاية ليشير الى القراءة الدقيقة لاسم علم .

إن نواحي النقص في نظام للكتابة كهذا تظهر بصورة أوضح حين أخذ التعليم ينتشر بين الشعوب الاسلامية : وأصبح فن القراءة غير مقصور على طبقة ذات امتياز كانت تعتقد من قبل بفخر ان في امكانها حل رموز كثيرة الالغاز . واصبح من المناسب قبل كل شيء ايجاد نظام عملي في وضع علامات لاحرف العلة الموجزة ، وكان مثل هذا الاصلاح ميسراً ، لو رجع المسلمون الى تلك المجموعة الفقيرة من العلامات المعروفة في العربية القديمة وهي الفتحة والكسرة والضمة ؛ ولكن لو حصل شيء من هذا لكنا بعيدين عن الحقائق القائمة آنذاك وكان من الممكن ايجاز الاحرف الساكنة ، ولكن كانت تظهر عوائق في هذا المجال من جانب اللهجات المختلفة . والذين حاولوا التغلب على مثل هذه الصعوبة الخاصة جداً قابلوا نزعتين ، أشرنا اليهما من قبل : نزعة تذكر بالجماعة الاسلامية القديمة حين حكمها خليفة عربي ود لو يحتفظ بالكتابة المأثورة كما هي ، ونزعة أخرى لم تهب تغيير الحقائق القومية .

ونفهم جيداً صعوبات أي اصلاح يطرأ على الكتابة وضبطها وهو اصلاح يبدو انه يمس أكثر المصالح قدسية لدى الجماعة الاسلامية ، وذلك حين نتذكر الكتابة التركية وتحول نطقها وكيف ان ذلك تطلب ثورة سياسية وتطوراً اجتماعياً سريعاً وتحولا مفاجئاً من تنظيم اجتماعي « ديني » الى آخر علماني . واستعملت الالفباء اللاتينية في كتابة التركية ، وادخلت في آذربيجان ، في سنة ١٩٢٣ م ، وأصبحت الزامية في تركية منذ أول حزيران ١٩٣٠. هكذا فرضت التأثيرات الدينية باستعمال الالفباء العربية في اللغة التركية علامات لا تتلاءم مع هذه الاخيرة وتعوقها عن السير بصورة كلية ، ولم يخفق مثل هذا الاصلاح في التأثير على الرأي العام العربي وقد حملت القومية العلمانية في تركية هذا الاصلاح ضد ما يدعو اليه العرب من وحدة المسلمين جميعا وقوت هذه القومية حملتها بانكار القيمة الدينية التي للغة القرآن : هكذا صارت خطبة الجمعة واذان الصلاة تنطقان اليوم باللغة التركية (العصمانلية) .

نجد الشعر في الحركة الادبية اليوم ، على الرغم من محاولة احيائه المباركة ، لا يزال في اطاراته البدوية أو العباسية القديمة ، إلا انه انقطع لحسن الحظ عن محاكاة الشعراء الذين جاؤا بعد القرن (١٠ م = ٤ هـ) باستثناء الشاعر المتنبي الكبير ، وقد ظهر في العربية شعراء لهم نبوغ في نصف القرن الاخير . وعلى العكس نجد القصص والروايات على محاكاة تامة لما عند الاوربيين ؛ ففي العربية نجد من يحتذي حذو موباسان او تشيكوف إلا ان العناية بالملاحظة الشخصية وبالواقعية أنتجت مؤلفات في هذا الصدد ذات قيمة حقيقية . والمسرح ، وهو امر غريب عن الحياة الاسلامية القديمة ، لم يتذوقه المجتمع الاسلامي

الحديث إلا ببطء : وبدأ هذا المسرح بترجمات واقتباسات من الفرنسية والانجليزية ؛ ومنذ خمسة وعشرين عاما نشأت مسارح ذات نزعات اخلاقية واجتماعية لا تخلو من أصالة . وفي الحوار المسرحي ، أكثر مما في القصص ذاتها ، نجد لغة التخاطب اليومية ولغة الشارع تدخلان عناصر ممتازة من الحياة والواقع . ومن الصعب ان نفهم لماذا لم تنتعش في المجتمع العربي الكوميديات الخفيفة السارة والانتقادية في حين ان المسرح بدأ يجذب الناس اليه ؛ أما تذوق الشعر فمنتشر بصورة كافية كما كان من قبل ، وساد ميل كبير الى كل ما هو مضحك وغريب ؛ ومن القرن الرابع الهجري كان للشرق الادنى مسرح الظل الذي تطور في المستقبل فأصبح (القرغوز) ، واعتاد الجمهور أن يرحب بحرارة بالموهوبين ذوي القدرة الكبيرة على التقليد ، وميدان الغناء في مراكش كان منذ عهد قريب المسرح الذي يملوه ممثل راقص جريء وبارع يسلي المسطاء بعرض ما عنده من صور الظل المضحكة للاشخاص المتفرجين . ونفس هذا الميل الى المبالغة الهزلية ساد الرسم في كل مكان . وبدا ممكنا لهذه النزعات الطبيعية أن تتحول الى فن .

وجد النثر العربي القديم لنفسه مجالا في مقالات النقد والحجاج ؛ واعتبر الكتاب المحدثون هـذه المقالات نفسها النموذج لما يكتبون ؛ وقد فتحت الطباعة أمامهم مجالا واسعا لاظهار ابداعهم .

لقد ولد الادب الفارسي في القرن الرابع الهجري في خراسان زمن السامانيين والغزنويين ؛ وهذه يقظة قومية في اطار اسلامي ؛ وقد مات الفردوسي حوالي عام ١٠٢١ م ، وفي حركة موازية للادب العربي ، كان لايران في القرون ١١ ـ ١٣ م شعراؤها ، ومؤرخوها

وفلاسفتها ومتصوفتها . والبعض من هؤلاء قد كتب باللغتين معا . ان الاحساس بالافكار المعبر عنها باسلوب رقيق وجهت الايرانيين الى الى محاكاة النثر الفني العربي الذي لا يطاق للقرن الرابع الهجري . وكما نجد لدى الترك قد انتج الايرانيون تراثا غزيراً من الحكايات الوطنية ، في حين ان مجموعات اخرى جاءت مقلدة للترجمات العربية المقتبسة عن الهند بطريق الفارسية أو الفهلوية . ومنذ القرن (١٤ م) نجد الآداب الفارسية قد أصابها الركود ؛ ولم تبعث إلا بنفس التأثيرات التي احيت الآداب العربية .

وتحت التأثير الايراني ولد الادب التركي ؛ وقد كتب السلاجقة بالفارسية ، وأوائل الكتب التركية في القرنين ١٤و١٥ م كانت بوحي من الفارسية . ولم يظهر انتاج مهم وأصيل الا في القرن ١٦ م في عهد عظمة سلاطين استانبول ، في موضوعات الشعر والتاريخ والثقافة الدينية . وبعد ثورة ١٩٠٨ ، نشأ في تركية ادب حديث ، رسخت نزعاته الاجتماعية والواقعية بعد عام ١٩٢٤ ، وذلك عندما ظهر شعراء وقصاصون نابغون .

في انحاء العالم الاسلامي كله قامت نهضة ادبية مصحوبة بفقر فني يستثير الشفقة . ويتوقع المرء ، كما في بلدان وعهود أخرى ، أن نجد غزارة عامية معقدة من الزخرفة ، لكن التأثير التركي ضم الى هـــذه الزخرفة فن عمارة شنيع ، يبدو انه يحتذي حذو اسلوب البناء الفرنسي العسكري الذي شاع منذ عهد لويس الرابع عشر . وقد نتج عن هذا بنايات تدعو الى الرثاء و « تجديدات » تستحق الشفقة . أما الفنون الفرعية فقد سحقتها المنافسة الآلية والاقتصاد الحديث : السجاجيد ، والانسجة ، والجلود ، والمطرزات ، والخزف واعمال

الصفر ، كل هـذه اخذت تضمحل او تكيف نفسها وفق ذوق اوربي اكثر كآبة . ومنذ بضعة اعوام نجد المستوردات اليابانية قد قضت فى سورية على صناعة فناجين القهوة . وتعمل الدول الاوربية الحاميـة على احياء الصناعات الميتة بفتح اسواق جديدة لمنتجاتها .

كان نمو العلم والفلسفة العربيين يختلف تماما عن نمو الادب والفن لذا فضلنا ان نتحدث عنها فى نهاية هـذا البحث العاجل لمراحل الحياة العلميـة عند المسلمين . عددنا فى الفصل الثالث موضوعات الخصومات التي أوجدها علماء الدين ، والذين وسعوا الفكر الديني الاسلامي فى صورة تبعث على الابتهاج كثيراً . ونجد الفلاسفة ورجال العلم قد وضعوا على هامش الاسلام وهم الذين يجب أن نعين مكانتهم فى التاريخ العام ؛ ولم يكن لهؤلاء أي تأثير على النظم الاسلامية لكن مؤلفاتهم قد سيطرت على علوم العصور الوسطى المسيحية .

لقد حقق هؤلاء اتحاد العلم بالفلسفة : والفلاسفة المسلمون ، هم نظريا ، علماء تشريح وفسلجة وفلك وطبيعيات وكيمياء ، وفي الواقع العملي هم أطباء ومنجمون وسيمياويون وصانعوا الآلات المائية . ومعرفتهم أجنبية غريبة عن الاسلام . وهم كعلماء الدين استفادوا من التراث الاغريقي ، وليس فقط من مذاهبهم في المنطق ؛ وامكن المسلمين ان يطلعوا على المعارف الاغريقية عن طريق الترجمات السريانية أول الامر ، ثم أخذوا يتفهمونها بصورة مباشرة ؛ وان المركز الطبي اليعقوبي في جنديسابور منذ القرن الخامس كانت له جامعة ومدرسة للطب ، حيث حصل الخلفاء العباسيون على أطبائهم ،

ومن هذا المركز بالذات نجد كل العلماء يهاجرون الى بغداد بالتدريج ومن ناحية أخرى نجد ان العرب الاصليين هم قلة نادرة في قائمة الفلاسفة حيث لا نجد غير الايرانيين والسوريين والعراقيين والمصريين من أصول مسيحية أو يهودية ؛ ويجب هنا أن نخص بالذكر الكندي الذي كان عربيا . وكان ينبغي أن نتحدث عن الفلسفة المكتوبة بالعربية أحرى من أن نتحدث عن الفلسفة العربية .

حقق الشرق الاسلامي ، بين القرنين ٩ - ١٣م ، تقدما محسوسا في الرياضيات « فالجبر كلمة عربية » ، وفي الفلك والتشريح وفن الشفاء والكيمياء . ودون شك درس هؤلاء العارفون غالبا كتب أسلافهم في مثابرة أكثر من التي أولوها الطبيعة ، بحيث انهم اخرجوا نظريات عقيمة أثبت بطلانها البحث الحديث ؛ لكنهم قاموا بتجارب دقيقة وعرفوا كيف يسجلون النتائج . وحتى القرن ١٥م نجد ان علماء الغرب المسيحي ، يعيشون على تراث العلماء العرب ، وتراث أرسطو .

كان أرسطو المعلم الاكبر للفلسفة العربية قبل أن يصبح المرشد الأعلى لمدارس الغرب ، ومصدراً لسخرية متفرجي مسرحيات موليير لكن العرب عرفوا ارسطو عن طريق الافلاطونية الحديثة بصورة خاصة .

إننا لنجد العلل الاربعة الاولى لارسطو في أساس مذاهب الفلاسفة المسلمين : وهي العلة الفاعلة ، والعلة الهيولانية ، والعلة الصورية ، والعلة الغائية . وهذه تأتلف بفكرة القوة والفعل وبفكرة الفيض ليتكون من ذلك كله الكل الالهي . ان العلة الفاعلة والمبدعة ، المرتبطة بالكلمة الرواقية (لوغوس) تتدخل بسلسلة من العقول التي يدعوها اخوان الصفا مثلا العقل الخالق والعقل الفعال والنفس الكلية والموجودات .

واستخدم الفلاسفة معارفهم العلميـــة ليؤلفوا مذاهب عن العالم وعقائد عن النفس ونظريات عن الشر ، وهي النظريات التي فصلتهم عن الاسلام ، لكن كان لها بينهم قرابة حميمة ، من حيث انها أتت جميعا من نزعة توفيقية معقدة كثيراً أوقليلا من آراء الاغريق. ولاستحالة اعطاء فكرة واضحة عنها هنا نرى من الافضل أن نوجز عقائد أقدمهم وهو الرازي المتوفى سنة ٩٥٢ م . وهو كطبيب وسيميائي اشتهر في الغرب باسم « رازيس » .

إن رجل العلم في الرازي أعلى من الفيلسوف . صاغ الرازي بوضوح نادر مبدأ يبدو اليوم بديهية ، وهي في نفس الوقت أساسية جداً لتقدم العلم ؛ حاصلها انه يلزمنا أن نعتبر ان آراء السابقين يمكن إعادة النظر فيها ، وعلينا أن نبذل جهداً متواصلا للذهاب الى ما وراء بحوثهم ، بأمل ان الآخرين سيكملونها من بعد . إن هيبة آراء الأقدمين التى دفعت الاوربيين في القرن ١٧ م الى نبذ نظرية الدورة الدموية ، قد سادت الحياة العقلية للاسلام ، ودفعت المجتمع الاسلامي الى أن يتهم الرازي بالهرطقة بعنف . أما ميتافزيقاه فتعترف بخمسة جواهر خالدة : الخالق ، النفس ، المادة ، المكان الزمان . والنفس التي هي جاهلة والتى لا تتهذب إلا بالاختيار ، لها رغبة الاتحاد بالمادة ؛ لذا نرى الخالق الذي هو علم كله ، قـد ألف ذرات المادة بحسب العناصر الخمسة : التراب ، الماء ، الهواء ، النار ، الفضاء . وهذه متناقصة في كثافتها على التوالي ، كيما تكون عدداً هائلا من المركبات . وقد بقي فيها من الشر ما لم يمكن ازالته عنها . ثم اعطى النفس عقلا وادراكا ، وذلك كيما تتذكر طهرها السابق ، وكيما تأمل الانفصال عن عالم المادة الذي سبب الشر الذي فيه ألم للنفس .

لكن كل نفس من النفوس الفردية التي تؤلف هذه النفس عاجزة عن تحرير نفسها بجهد منفصل . إن النفس الانسانية ، بحسب فكرة مشتقة بصورة غير مباشرة من أرسطو أخذ بهـا كل الفلاسفة العرب ، متألفة من نفس راغبة [شهوانية] وهي سافلة ونباتية ، ومن نفس غضبية وهي حيوانية ، ومن نفس ناطقة الهية . ولكي تتطهر النفس ، يجب أن تقود النفس الناطقة النفس الثانية وبذلك تسمح للنفس بعد أن تجتاز انتقالات عدة في كائنات أخرى ، أن ترجع الى طهرها الاول . ولكي يتجنب المرء الشر عليه أن يتحاشى التطرف في العاطفة وأن يكون لديه اتجاه وسط للتوازن تنصح به العقيدة المسلم كذلك .

الانسان إذن جزء من نظام عام للكون . ويعتنق الفلاسفه العرب جميعا عقيدة تقول بالتوافق التام بين عناصر الكون ، وعناصر الطبيعة البشرية ؛ وهذه الاخيرة هي عالم أصغر فى عالم اكبر ويشمل التوافق أصغر التفاصيل . ان عقل العالم ، وهو فيض مباشر من نفس العالم يحكم العالم ، بنفس الطريقة التى يقود فيها ادراك الانسان جسده .

ازدهر العلم والفلسفة في نفس العهود التي ازدهر فيها النظر الديني والادب والفن . وهذه الحركة الكبرى الغريبة عن الاسلام قد استمرت خلال القرون (٨—١٣م) ، ونذكر هنا بعض الاسماء اللامعة كجابر بن حيان (ت ٨٠٣ م) ، والكندي (ت ٨٧٣م) والفارابي (ت ٩٥١م) وابن سينا (ت ١٠٣٧) ، والبيروني (ت ١٠٤٨) وابن رشد (ت ١١٩٨ م) . ومنذ القرن (١٤ م) لا نجد رجل علم ذي قيمة . ويجب أن نعترف بأن الدين الاسلامى ان لم يكن سبب هذا الانحلال ، فان الانحلال نتيجة لذلك الاتجاه الذي عالجت به الفرق

الدين والفقهاء وهم فرقة علماء الدين من (المدارس) ، ناصبوا العداء كل علم تجاوز الحد ، فالفلك يجب ألا يتعدى تركيب الاصطرلاب الذي يساعد على تعيين اوقات الصلاة ، والرياضيات يجب ألا تتعدى حساب حصص الارث : وكل ماعداهامن علوم كان خطراً على العقيدة . وليس في بلاد الاسلام وحدها حفز الدين بعض فرقه على اطفاء شعلة البحث العلمي : ولما لم يقف حائل فى وجه طغيان هذه الفرق ، فان الروح العلمية ذاتها التى وجدناها متأصلة كثيراً لدى طبيب في القرن العاشر « «والرازي» قد سحقت بفعل الجمود الذي ساد طويلا بحيث لم تظهر هذه الروح العلمية الا لدى عدد ضئيل جداً من المسلمين .

المصادر

– Abd-el Jalil, Breve histoire de la litterature arabe, 1943; Kratchkowsky, E. I, Suppl. 26; Brockelmann(S.62); Gibb (S. 101) ; Soussey, Prosateurs turcs, 1935; Brehier Philosophie du moyen age; E.I., Ibn Sina, Ibn Rushd, Rhazi, etc. Wensinck, Ghazali (en francais).

الفصل الرابع عشر

الاسلام الحديث

لا نستطيع أن نطمح الى انهاء هذا الكتاب الموجز بصفحات ندعي فيها الحكم بدقة على حاضر الاسلام والتنبؤ بمستقبله . وفي وقت يبدو فيه توطيد أركان السلام أصعب وأشق مما كان الحال في اشعال نار الحرب ، لا نشعر البتة بأننا قادرون على التنبؤ بمصير الشعوب الاسلامية . من الواضح انه انتهت اليوم قضية خضوع الجماعة الاسلامية لخليفة أعلى ، كما كان الامر حين كانت قوة سياسية وعسكرية من الطراز الاول في ذلك العالم المحدود المترامى بين اوربة وآسية الغربية . ان الشعوب الاسلامية المنتشرة في مناطق ، هى عدا الهند وجزر الهند الشرقية ، ذات موارد اقتصادية شحيحة ، هذه الشعوب يبدو انها غير قادرة على التجمع فى كتلة منفصلة من الدول . ويبدو ان مصيرها هو اندماجها مع بعضها اندماجا يتم تحت اشكال متباينة سوف ترسخ شيئا فشيئا ، وذلك في ظل التجمعات الكبيرة فى المجالين السياسي والاقتصادي التي سوف تظهر خلال النصف الثانى من هذا القرن. ولكن من المشكوك فيه ان الحضارة الاسلامية سوف تلتئم مع الحضارات الانجلو - سكسونية او الروسية او الفرنسية التى يقود كل منها مجموعة من الدول الاسلامية ، ونحن حين نقرر هذه الحقيقة

وانا نرجع الى موضوع هذا الكتيب الذي يعالج ليس تاريخ الدول الاسلامية وإنما تاريخ الحضارة الاسلامية التى يسيطر عليها الدين .

كان الدين هو القوة المسيطرة على التطور الثقافي لجميع الشعوب التي دانت باليهودية والمسيحية والاسلام . وقد انصاع الدين لتطور المجتمع ، تخفف دون شك من سيطرته ؛ ورغم ذلك ما زالت له سلطة كبيرة ، من اللازم تقدير قيمتها الفعالية . ان اعتناق عقيدة دينية ما انما يستند على وحي يقرر انه حمل الى الناس الحقيقة الخالدة والهداية وناموس الله العظيم ؛ وقد ثبت الوحي الى الأبد معرفة العالم وماهية الحياة . وفي الوقت ذاته ان ما علمه الوحي الناس بوصفه حقيقة غير قابلة للنقاش قد بدا خليطا منوعا مضطربا ؛ ويحصل هذا مرة بعد اخرى كجهاد مثابر للعقل الانساني ليحمل الناس خطوة فخطوة في سلم المعرفة . ومن المرعب أن نشاهد كيف ان الدين المرتبط بالوحي لا يبذل أي جهد ليسير فى موكب المعرفة الصاعد . وعلى العكس يبدو ان الدين يصر على نصح الناس لتثبيت أفكارهم في صور لا تتغير ، وينصحهم برفض أي تفكير أو مناقشة ، والقناعة بالفرائض الدينية التى تبقي مؤمني القرن العشرين في دائرة الطقوس الرمزية التى حكمت حياة أسلافهم الاقدمين . ان الدين مرتبط بعرى لا تنفصم بعقائده وشعائره . ان الكلمات والاشارات التى قد تنفع كشارات للانتماء الى حزب سياسي ما عديمة النفع فى دعوة الروح الى الاتصال بالله الحقيقة . يجاهد العلم فى تحطيم أولى العقبات التي اخفت عن العقل البشري سعة اللانهاية ؛ وعلى الدين أن ينكر فقر مبدأ التشبيه الذي يجعل الانسان خاضعا لاله مصنوع على شاكلته . وحين يسلك الدين مسلكا يهدف فيه الى البحث عن الروح ، فسينقطع

الناس عندها عن اللجوء الى نزعة مادية لتعينهم على الوصول الى نوع من الايمان . ان الاسلام الذي لا يتحكم فيه سلك الكهنوت ، وهو السلك المقيد برتوب العقيدة والشعائر ، قد يستطيع بهذا أن يعود ثانية الى تلك المناقشات الدينية الحرة التي انارت بوهج ساطع تاريخه بين القرنين (٨-١٢م = ٢-٦ﻫ) لكن الاسلام مازال مصبوغا بروح طبقة الفقهاء القديمة ، وهم قضاة وعلماء دين انحدروا بالعقيدة الى مستوى الثرثرة الاسكلائية . وحتى لو لم يعد مسلمو القرن (١٩ م) الى مناقشة المسائل الاساسية ، فانهم على الاقل اعطوا نظمهم صورة جديدة تماما . وربما نجد بابا للامل في نمو نزعة التجديد التي ترغب بحماس اكبر مما سبق في طلب الروح . لكن الارتقاء الجزئي للنظم الاسلامية قد تحقق تحت التأثير الاجنبي ، من حيث ان «بعض الكفرة» والمصلحين لم يطرحوا امام الانظار غير اغراض عملية . وقد فهموا انه من غير الصحيح نسبة التفوق المادي لاوربة الى مؤثرات شيطانية ، ورأوا ان في امكان الشرق ان يتعلم من جديد . هكذا نجد بعض الشباب المسلمين قد بادروا الى تعلم العلوم العملية واظهر قسم منهم كفاءة تستحق الاعتبار قد ترتفع فتبلغ مرتبة ايجاد مذاهب علمية ؛ لكنهم لم يجدوا في المجتمع الاسلامي دائما : المكانة التي تتناسب وما يستحقون . وآخرون كثيرون خصصوا جهودهم لدراسات تتلاءم كثيراً مع أذواقهم الطبيعية الميالة الى الفصاحة والنقاش أي الى دراسة الحقوق والفلسفة والاجتماع . وقد نال هؤلاء تقديراً أكبر من سواهم في بلدانهم وهم الذين ، هيأوا النفوس بأحاديثهم وكتاباتهم الى تجديد النظم ، ولما كانوا يحملون معهم نظريات فلسفية واجتماعية يمكن وصفها بأنها وضعية - جديدة ، فانهم أداروا ظهورهم الى الاسلام وقاموا بحركتهم في تركية وغيرها .

لقد نحت تركية فكرة الجامعة الاسلامية وفكرة الخليفة وهو البابا - الامبراطور ، الذي يحل محل النبي وظل الله في الارض . وهكذا أصبحت تركية علمانية وتبنت مبدأ التمثيل الشعبي ، وبدلت اداراتها تبديلا تاما. وقد دهش الغرب لهذا التكيف السريع التام للشعب التركي الى الحياة الحديثة : الحكومة ، مجموعات القوانين ، التعلم الفعاليات الاقتصادية ، وحتى الازياء نفسها قد ارتضت فكرة ازالة الحجاب النسوي وتغيير اللباس . وقد فكر البعض انه اذا كانت الطبقات الوسطى مستعدة استعداداً كافيا للاحتكاك بأوربة لتقبل هذه التطورات الفجائية ، فان كتل الشعب قد ارتضت هذا التحول بصعوبة كبيرة ، وبالتالي كانت الوحدة الخلقية لطبقات الامة غير معينة . ان السنين المنصرمة أظهرت ان الجمهورية التركية قادرة على أن تؤكد وتصون مركزها كدولة مستقلة « نفوسها ثلاثة عشر مليونا » .

وفى الطرف الآخر من العالم الاسلامي نجد ان الوهابية قد شادت حول الحرمين الشريفين ، قلعة راسخة لاقدم التقاليد الاسلامية . وهي تتشبث باكثر المذاهب السنية تزمتا أي الحنبلية ، وتستند لأشد رؤساء هذا المذهب تعصبا وهو ابن تيمية (١٣٣٥ م) الذي غذت كتبه عقيدة عبد الوهاب (ت ١٧٩٢ م) . وتزعم الوهابية انها تريد أن تعيد الاسلام الى الاحترام الخالص للقرآن والسنة، وتعارض كل البدع ، كتقديس الاولياء والبقاع التى عاشوا فيها وقبورهم . ان الامير ثم الملك ابن سعود اسس نوعا من الاخوان الوهابيين الذين غدوا له سنداً وعونا حربيا لتأكيد سلطته . يبدو ان جمود مبادىء الوهابية وغلظتها فى التطبيق حكما عليها بان تظل بعيدة عن الحركة الحديثة

للتقدم المادي ، لكن هنا أيضا نجد روح ابن تيمية هي التي تحفز الزعيم وتدفعه الى أن يخلص للمصلحة العامة . ان ملك الجزيرة يحاول أن يدخل روح التجديد على جماعته الضئيلة البالغة ستة ملايين ليهيأهم لمعارك السلم والحرب معا . ولا يخرج من منهجه الاصلاحي غير البدع التي تظهر له خطرة على الدين والاخلاق . ولا يمكننا الاعتقاد أن حول الحرمين وبتأثير تقديس بيت الله وقبر نبيه ، سيجد دين القرآن له روحانية جديدة .

وفي منتصف الطريق بين الترك والوهابيين ، نجد السلفية تمثل رأيا وسطا قادرا على أن يكسب عامة المؤمنين ، ويطور الاسلام . يعتقد هؤلاء ان القرآن هو نفسه ناموس القرن العشرين ، كما كان في القرن السابع ، لكن يجب ان يفسر تفسيرا جديدا ، وأن يفتح باب الاجتهاد ، أي حق وضع رأي جديد على تطبيق احد جوانب الشريعة الاسلامية لتلبية حاجات العصر . ومتابعة لاحمد رضا والشيخ عبده نجد السلفية قد جددت كثيرا تفسير القرآن بحيث ان بعض اتباعها قالوا بجرأة جافية بأن القرآن قد ذكر الجراثيم والطيارات . وآخرون شغلوا انفسهم بمشاكل اجتماعية اكثر نفعا ، كمشاكل الزواج وتنظيم الحياة العائلية . وهم كالوهابيين اعداء الشعائر السحرية الخاصة بتقديس الاولياء وتطبيقات الاخوات وجماعات الصوفيـــة . ومع ذلك لا يبدو انهم ثوريون بدرجة كافية بحيث يمكنهم احياء الاسلام بافكار أكثر تجردا وسموا فيما يتعلق بالعالم والله .

هكذا نجد ان هذه الحركات المتباينة قـــد ظهرت تحت تأثير مؤثرات قومية تستجيب لضرورات جغرافية وتاريخية . وهـــذه الاخيرة قد فرضت ولا تزال مصالح خاصة على الجماعات الاسلامية .

إن الخمسة والثلاثين مليونا من مسلمي جزائر الهند الشرقية يكونون مجموعة خطيرة في بقعة غنية تحت حماية هولندة وسيجدون مكانهم في النظام الجديد للشرق الاقصى . اما الهند فيحتل مسلموها « ٦٩ مليونا » مركزاً مرموقا بين شعوب متباينة في العرق والدين والحياة الاجتماعية . وسيقومون بدور رئيسي في تطور البلد، لو عرفوا اظهار تفوق قيمتهم الروحية والاجتماعية . ان مسلمي روسية الاوربية والآسيوية وهم ثمانية عشر مليونا ، تعيش بعض جماعاتهم تحت نظام يمكن أن يتطور الى اتحاد دول حرة حقا .

ان الموقع الجغرافي للشرق الادنى ، الذي يجعل منه مجمع ثلاث قارات ، ونقطة ارتباط العروق والمدنيـات ، هذا الموقع يحفظ للشرق الادنى اهمية خاصة ، لا يقابلها ما له من قيمة اقتصادية او ما يحويه من سكان . ومع هـذا ففي الشرق الادنى منطقتان ذواتا خصوبة ، مصر والعراق . اما مصر « هبة النيل » فتمثل شخصية للانسانية من انبل واقدم ما نعرفه ، وتضم عشرين مليونا من المسلمين . ومنذ القديم والى اليوم تحسد مصر على واديها الضيق الخصيب ، ومن هنا تعاقب عليها أسياد كثيرون . وكحارسة لابواب البحر الابيض والبحر الاحمر ، وملتقى قارات ثلاث ، نرى مصر تحس لذلك بعدم تعين مصيرها السياسي . وكما يحس ستالين بأنه خلف بير الكبير وكترين الثانية ، وكما تحل الجمهورية التركية محل المملكة الحيثية في القرن العشرين قبل الميلاد ، فان ملك مصر يريد أن يعتقد بأنه وارث الفراعنة . والقاهرة هي المدينة الاسلامية التي تبلغ فيها الحياة العقلية أشدها ، وحيث يغرم المرء باحيا صورة بمشاكل الوقت الراهن . بينما العراق « ثلاثة ملايين نسمة » فيحتفظ بالخصوبة

المأثورة « لارض السواد » التي يرويها الرافدان ، وقد اظهر في هذا القرن ثرواته الزيتية الزاخرة . وعلى عكس ما كان الحال أيام العباسيين ، فان عاصمته اليوم ليست هي عاصمة العالم الاسلامي . ولم يعد له باب مفتوح ، عن طريق الخليج الفارسى ، على الهند والصين ويجري زيته الى البحر الابيض ، اما الانوار العقلية لبغداد فباهتة اليوم . وقد حفظت سورية (مليونان ونصف مليون نسمة) عبر قرون التاريخ الطويلة وثوراتها عن الحياة الروحية . والمسلمون والمسيحيون فيها فى الدرجة الاولى من الصراع الادبي ، والحياة الدينية في سورية لا تزال نشطة والجهود متوجهة الى صور الكفاح السياسي . الا ان تنوع العروق البشرية وتباين العقائد الدينية يحد من الوحدة القومية التي تعمل على التبلور حول دمشق . وان الجهود المتنوعة للاحزاب السورية غير قادرة على أن تمحو التأثيرات الاجنبية ، كتلك التي لتركية او لروسية ، أو تأثيرات انجلترا التي هى منتبهة على الدوام ومعنية بمشاكل الشرق ، او تأثيرات الولايات المتحدة ومشاريعهـا العالمية . وفرنسة التي عملت على تقدم الثقافة فى سورية ، فشلت في تدبير الشؤن السياسية فيها .

ان ايران معزولة نوعا ما بسبب شيعيتها ، وأصالة عرقهـا البشري ولغتها وفكرها ، وموقعها الجغرافي الذي يجعل منها مجالا للتنافس بين الاطماع الروسية والانجليزية .

لقد جئنا على ذكر قيمة الحركة الدينية الوهابية . ان الدولة العربية التي تكونت في ١٩٢٥ فى بلاد العرب لم تسعفها الطبيعة بخيراتها ، ولن تدخل ضمن دائرة الاقتصاد العالمي الا اذا ظهرت قيمة نتاجها الارضي .

كان للمغرب الاسلامي منذ القرن (٨ م=٢ هـ) حياته الخاصة وقد نما باصا لة بمرور الزمن سواء كان ذلك في الاندلس ايام الخلافة الاموية ثم أيام ملوك الطوائف ، أو في المغرب ، وصقلية والباليار زمن اسيادها المتعاقبين من ادارسة واغالبة وفاطميين وزياريين ومرابطين وموحدين وحفصيين ومروانيين وشريفيين .. الخ ، وان الاثنى عشر مليونا من مسلمي المغرب يتعلقون بمذهبهم المالكي ويعتزون به وبنظمهم المصطبغة بالصبغة البربرية وميولهم الادبية والفنية الخاصة بهم . ومنذ قرن تطورت افريقية الشمالية ضمن نطاق الفلك الفرنسي ، وقد جاءت جماعات من الشعوب الاسبانية والايطالية لتؤكد في شمال افريقية العنصر الاوربي . ومهما كان المصير المقبل لهذه البلاد ، فانها ستكون دولة اوربية على أية حال .

وقد تحولت جماعات من السود ذات اعداد كبيرة الى الاسلام في افريقية ، الا انهم هم كذلك لم يمتزجوا جيداً بالحياة العالمية .

يظهر المسلمون في كل مكان رغبتهم فى الحصول بقوة على استقلال تام ، ويبدو ان اكثر شعوب الاسلام لم تستكمل عدتها له بعد . هكذا يخاف ان تؤدي آمال هذه الشعوب الى فوضى ، وبالتالي تصبح هذه الآمال عائقا دون تنظيم السلم والحرية العامين .

واننا لنتمنى ان نرى الجماعات الاسلامية متكاملة ومتضامنة مع بعضها ، بدينها وعاداتها في دولة تنتسب الى احدى التكتلات الجديدة لشعوب العالم . وتستطيع جماعات الاسلام هذه أن تلعب عند ذلك دورها الاقتصادي والسياسي ، ولو عرفت ان تتطور ، في اطار كهذا باتجاهها الديني ، فستضيف اذن اثمن اضافة الى توكيد القيم الروحية للبشرية .

ونخشى كثيراً ، ونقول ذلك بقسوة ، ان يكون المجتمع الاسلامي على فقر أخلاقي ، وانه لن يقف على قدميه من هذه الناحية . ويؤكد البعض في ظنه ان اخلاق الاسلام الاولى غير معتبرة . الا ان مجموعة من المأثورات حفظت حتى الآن بين جماهير الناس نوعاً من السند الاخلاقي ، لا يستطيع المرء بأي حال أن ينكر قيمته الاجتماعية . والاذهان ليست مستعدة دون شك الى استبدال ما لديها من دعامات أخلاقية بنوع من المبادىء المجردة تفتقر الى أي نوع من التصديق الملموس .

اننا نعتقد ان الصفوة من المسلمين والاوربيين يسعهم التفاهم على بضعة مبادىء مشتركة وذلك لتنمية شخصية خلوقة لدى الناشئة . وان مما يثير الرعب والفزع لدى الاجيال التالية ، هو ما نحن عليه اليوم من فقر عقلي واخلاقي ، أي فقر المثل العليا . ويخاف المرء كثيراً من المتشبهين المزيفين والابدال الاغبياء ، من الذين يحملون ذاكرات موسوعية تعطي شيئا من ظاهر العلم ، وتظهر قدرة على الكلام ووفرة في الالفاظ تجعلان المرء يتحدث بحرارة بالغة عن أمور يجهلها . وازاء تنوع المعارف ، وتناقض العقائد ، يلزم الناشئين دون ان يرغموا على الاختيار من بينها ، ان يلمسوا قبل كل شيء العظمة ذاتها التي تكون لمثل هذا التنوع او عدم التعين ، وعليهم ان يخلصوا انفسهم في البحث دون كلل عن مشاكل العالم والحياة . ان الشاب ، مهما كانت طبيعة نشاطه ، فانه لو نشىء في مدرسة قويمة كهذه ، فانه سيجد كل يوم الارادة المنهجية التي تجعله يرفض أي شيء لا يفهمه ولا يستطيع أن يربطه بوحدة من وحدات ثقافته .

ونكرر هنا ، بأنا لا نأمل ، ان يرفض الشاب المسلم سبر المجهول

او ان عليه ان يهمل الحلول التي يقدمها اليه التراث الديني الاسلامي . ولكن اذا اقتنع بقوة العقل وبحدوده ، فانه سيساهم بعقله وعاطفته في ما يفهمه وفي ما يريد الاعتقاد به . هكذا سيستطيع من أجل تقدم شخصيته ودفعها بأحسن صورة الى الامام ان يفصل في نفسه بين « الروحي والزمني » .

اننا نرجو أخيراً أن لا يكون نجاح الشاب المسلم كبيراً في التأمرك ، كما نرجو ان لا يفقد كل الصفات الساحرة التي ورثها عن أسلافه : تلك الصفات التي هي نوع من الاستسلام الباسم ، لارادة الله لا يخلو من عظمة ، ونوع من الاتجاه الى الخارج يصل الى حد الروعة ، واحساس عميق بالتضامن يجلب الطيب والاحسان المستتر ؛ وتذوق للحياة السعيدة ، مع احساس رقيق باللون ، والطبيعة ، واتساق الاشياء .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	٢	نشاهد	لكن نشاهد
٢٥	٢	بالرغبة على	بالرغبة في
٢٦	١٦	ووجه	ووجد
٢٧	٨	اوصيت	أوحيت
٣٤	٤	٢٤٨	٤٤٧
٤٧	٢١	العبادين	الاباضيين
٤٨	١٢	العبادي	الاباضي
٥٠	١	٣٥٩	٣٥٨
٥٠	١٤	غاضبين	غاصبين
٥٨	١	بحثاً	عبثاً
٦٠	١٨	من على	على
٧٥	٥	مل	حل
٩٢	١١	محمد بن حنبل	أحمد
١١٢	٤	ابتداءآ	ابتداءآ من
١١٤	٢٠	تفضي	تضفى
١٥٥	١٤	مشروعاته	مشروعات
١٦٠	٩	العسكريين	تحذف

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
تحذف	الذين	٣	١٦٦
معايير	معايير	١٥	١٨٧
ان تثير	تثيرأن	١٩	١٩٨
أبوي	بطريركى	١٥	٢٠٩
تعارضاً	تعارضنا	١٩	٢٢٢
رقيقة	وثيقة	٢٠	٢٢٤
تتناقض	تتنامض	٢٠	٢٣١

ملحوظة : أضف الى آخر صفحة ٢٤ ما يلي : للجماعة الاسلامية . وقامت هناك دولة اسلامية عظيمة "،

اقرأ :

المدخل إلى علم النفس

الجزء الأول

القسم النظري

تأليف

صالح الشماع

يبحث في المبادىء العامة لعلم النفس بلغة ميسرة يقع في ٢٣٠ صفحة .

سعره ٢٥٠ فلساً



